



د. فنج فودة

حتى لا يكون كلاماً في الهواء



دار المعارف

دار المعارف
مكتبة

كتاب

اهداءات ٢٠٠٢

أسرة المرحوم/شارل كرتيه

الاسكندرية



د. فنج فودة
حتى لا يكون
كلاماً في الهواء



هذا الكتاب وكاتبه

هل لو مات الدكتور فرج فودة في صمت وهدوء مثل ملايين الذين يموتون بالسكتة القلبية أو نزيف في المخ أو حادث من حوادث الطرق ، هل كان من الممكن ان يتحدث عنه الملايين كما تحدثوا عنه بعد اغتياله ؟

إننى لا أكاد أذكر كاتباً اكتشفه الناس بعد رحيله كما حدث مع فرج فودة .. لا أذكر كاتباً عرف الكثيرون قيمته الفكرية وتحدثوا بعد موته عن مقالاته وأفكاره ومواقفه وشجاعته وجراته كما حدث مع فرج فودة .

في حياته لم يكن حوله هذا الصخب الذى فجره اغتياله برغم أنه كان يتمنى بالفعل أن يعيش وان يجد هذا الصخب .. في حياته كان يبدو ان قراءه محدودون وان كان من الكتاب الذين يضيفون إلى رصيدهم عدداً جديداً من القراء كل أسبوع بسبب الطعم الخاص الذى كانت تتميز به كتاباته وأسلوبه المختلف الذى يصاحبه فكر محدد درس صاحبه طويلاً إمكان الوصول بسهولة وثقة إلى عقل القارئ في هدوء وقوة . وكان منطقته يبدو مترابطاً لدرجة أننى تصورت أنه من خريجي كلية الحقوق وأنه درس القانون بل إننى لفترة اعتقدت أنه محام ثم كانت المفاجأة عندما اكتشفت أنه درس الزراعة ولكنه كان عاشقاً مدمناً للقراءة وللكتابة .

وعندما دعوته للكتابة في مجلة أكتوبر وكنا في شهر يوليو ١٩٩١ كان أسعد الناس بهذه الدعوة .. وقال لي بعد يومين إنه ظل ساهرا بلا نوم فقد وجد نفسه حائرا لا يعرف كيف يواجه قارئ أكتوبر . وقلت له واجهه كما أنت .. إن القارئ الذكي يستطيع أن يكتشف المصنعية أو الصدق بسهولة في أى كاتب .. فكن أنت ولا تحاول أن تفتعل المصنعية .. قال يسألني : وحدود الحرية المتاحة ؟ قلت أجيبه : أنا من المؤمنين بأن صاحب القلم يعيش هذه الأيام أزهى الفترات .. لقد عاصرت مهنة العمل الصحفي نحو ٤٠ سنة وأستطيع أن أقول بلا تزيد إننا لم نشهد حرية بهذه المساحة التي نعيش فيها اليوم . إن الحرية ليست أن تكتب فقط ولكن أن تقول أيضا وتتكلم وتجد ما تقوله منشورا ومطبوعا وموزعا ومحمولا إلى الملايين .. وليس هناك صاحب رأى في مصر اليوم لا يكتب أو لا يتكلم ..

قلت مضيفاً : إن قيمة أية حرية هي في استثمارها بالمقاييس التي تفيد الوطن .. ليس هناك شيء بدون فائدة .. الحرية لها فائدة ، الديمقراطية لها فائدتها .. أى شيء في الدنيا إذا لم تكن له فائدة يصبح عديم القيمة ويلقى به في أقرب سلة قمامة .. وفائدة الحرية أن نفيد بلدنا بالصدق لا بالغش .. ربما أكون مخطئا في تفكيرى ولكن صادقا في نواياى واتجاهاتى .. وما دمنا جميعا نلتزم أدب الحديث والحوار والكتابة فأنا أستطيع أن أراهن أننا قادرون على أن نكتب عن أى موضوع بغير تحفظات .

وأرسل لي الدكتور فرج فودة أول مقال له للنشر في مجلة أكتوبر وكان عن شركات توظيف الأموال ، واتصلت به أبدى إعجابي بالمقال وأطلب إليه أن يختار عنوانا ثابتا نضعه لمقالاته .. قال إنه لم يسبق أن فعلها ، فهو كان يكتب مقالات متناثرة في بعض الصحف الحزبية

ولكن بغير عنوان .. لكتني أقنعتني بأن كل كاتب لابد أن يكون له عنوانه الثابت لأن الناس سوف تذكره ، دائما بهذا العنوان .. وأرسل لي في اليوم نفسه ثلاثة عناوين تركتها على مكتبي إلى اليوم التالي .. كان أحد العناوين الثلاثة : في الهواء ، وكان العنوان الثاني كلام ودخان ، ولا أذكر العنوان الثالث لأنه لم يجذبني .. وقلت له وأنا أحدثه على التلفون : حيرتني .. وقلت وعيناي تنتقلان بين كلمات العناوين الأول والثاني : ما رأيك نجمع بينهما ويكون العنوان : كلام في الهواء ... ؟



اليوم الثاني لنشر مقاله الأول في مجلة أكتوبر اتصل بي وهو **وفى** في حالة ذعر .. قال إنه لم يسبق أن شعر بنفسه كاتباً كما حدث منذ صدور أكتوبر وقال مضيفاً إنني انتهيت من كتابة مقالى الجديد وسأرسله إليك فوراً .

وكان هذا المقال الثاني له يمس موضوعاً تخصص فيه ولكنه خشى أن يكتب عنه في أول مقال له .. وهذا المقال كثيراً ما أتذكره وأنا أستمع في أثناء صلاة الجمعة لبعض الخطباء الذين مفروض أن يتحدثوا عن الدين والعبادات فيتحدثوا عن السياسة ويخوضوا في موضوعات أجد نفسي في خلاف معها وأود لو أنني وقفت وقلت للخطيب : حيلك .. ما هذا الذى تقول .. والصحيح هو كذا وكذا ، ولكنى بالطبع أسيطر على انفعالاتى وأحاول أن أسرح بعيداً هرباً مما أسمع ، أو أتحمّل انفعالاتى كاتماً .

مثل هذا أعتقد أنه حدث لكثيرين غيرى وقد أحسن الدكتور فرج

فودة التعبير عن هذا الموقف الذى نواجهه فى مقاله الذى حمل عنوان
« لا لتسييس منابر المساجد »



وبرغم أن الدكتور فودة كان ضخيم الجسم يخيف منظره من
لا يعرفه ، فإن كل من اقترب منه انضم بسرعة إلى قائمة محبيه عندما
كان يفاجأ برقة سلوكه وأدبه وعفة لسانه ورقة مشاعره وبراءة الطفل
داخله مع قوة فى الدفاع عن فكره ودلائل لا تنفد جمعها من التاريخ
ورتبها فى أرشيف عقله وكانت قدرته عظيمة فى استخراجها بخفة ،
وعرضها برشاقة ، واقحام محاوره بسهولة .



ولقد بدأ فرج فودة الكتابة فى مجلة أكتوبر فى نهاية يوليو من عام
١٩٩١ .

وعندما سألوا الذى اتهم باغتياله يوم الاثنين ٨ يونيو ٩٢ عن
أسباب جريمته قال لهم : بسبب مقالاته فى أكتوبر تحت عنوان كلام فى
الهواء .

ولا أظن أن هذا المتهم باغتيال فرج فودة قد قرأ مقالا واحدا له ،
فمستوى تعليمه يدل على أنه بالكاد يفك الخط ، وأنه إذا قرأ لا يفهم
كثيرا كل معانى ما يقرأ .. وأن هناك مترجما نقل إليه ما جعله يؤمن أنه
كافر ملحد زنديق وأن اغتياله جاء فى سبيل الله ، وهو مالم يكن
صحيحا .. ولا يملك بشر أن يقوله عن بشر ..

أذكر أننى كنت أنظر بغير ارتياح إلى شاب من عائلة من أصحاب
الملايين .. كنت أرى وجهه ينطق بالصرامة والشدة والعجرفة .. وكان
يبدو فى خلال اللحظات الخاطفة التى أراه فيها فى النادى مترفعا على
كل من حوله .. كأنه امتلك الدنيا .. وقلت فى نفسى : طبعا ..

مليونير فما الذى يهيمه ؟ ثم فى مرة كنت فيها فى زيارة السعودية فى غير مواسم الحج والعمرة وانتهزت الفرصة لزيارة الكعبة ، وكانت من المرات القليلة التى كان الحرم المكى فيها غير مزدحم .. وكانت أكبر مفاجأة أن شاهدته هناك .. هذا المليونير الذى تصورت أنه ملك الدنيا ولا يعرف الله .. كان يجلس فى جانب بعيد كأنه لا يريد أن يراه أحد ممسكا بالمصحف وهو يقرأ .. وعرفت من موظف الفندق أن هذا الرجل تعود أن يختار الشهور التى ليس فيها زحام ليأتى إلى مكة ويمضى ثلاثة أيام ، وإن زيارته لهذا المكان لا تقل عن أربع مرات فى السنة ! ولأول مرة أدركت معنى الحديث الشريف « هلا شققت عن قلبه » ؟ ! .

وكدت أركع على قدمى وأنا أتمتم : أستغفرك يا الله .. فأنت وحدك الذى تعلم ما فى النفوس .. أما أنا أو أى واحد فلا يستطيع أن يتهم إنسانا فى دينه وعقيدته .. فمن نحن وماذا نرى وماذا نعلم عن الآخرين ؟ .. فلان جاهل ممكن ، أو دمه ثقيل جازى ، أو مشكوك فى ذمته ربما ، ولكن كافر .. حاشا ياربى أن نشاركك علمك واختصاصك وعدالتك ووحدانيتك ..



اغتالوه لأنه كافر .. هكذا أقنعوا الذى أمسك بالمدفع وصوبه عليه .. وفى حياته لم يمسك مسدسا أو مدفعا .. وعندما بعثوا إليه يوما يطلبون منه أن يصاحبه أحد الحراس خصوصا بعد حضوره الندوة التى حضرها فى معرض هيئة الكتاب وكان يحاور فيها كبار رجال الدين فإنه وافق على أن يصحبه الحارس عدة أيام ثم ضاق به وأعلن استعداداه أن يستمتع بحريته حتى ولو مات مقتولا بعد أيام ، بدلا من أن يظل مقيد الحرية ويمتد عمره سنوات ..

وبرغم أنه لم يظهر في ندوة تلفزيونية ولا إذاعية وإنما كان نشاطه محصوراً في مقالاته التي يكتبها في مجلة أكتوبر فإنهم لم يتحملوا هذه المقالات التي لم تدم سوى عشرة أشهر .

وكان من الممكن أن يكتب فرج فودة ربما عشر سنوات أخرى ثم يموت كملايين الناس الكثيرين دون أن يستشعر الناس خطورة أو أهمية أو قيمة ما كتب .. ولكنهم اغتالوه .. اغتالته يد الإرهاب والغدر والجبن .. وقد تصورت أنها بإنهاء حياته قد أغلقت ملف واحد من أشجع الذين تصدوا للإرهاب والتسلط باسم الدين ..

ولكن على العكس تماماً حدث ..
لم تهز جريمة اغتيال رفعت المحجوب المجتمع كما هزته جريمة اغتيال فرج فودة ..

ربما لأن رفعت المحجوب كان يسير في حراسة وفي موكب أما فرج فودة فقد كان يسير بغير حراسة مثل ملايين البشر ..
وكان رفعت المحجوب بصرف النظر محسوباً على السياسة ، وقد شهد التاريخ اغتالات سياسية عديدة ، أما فرج فودة فكان رجل فكر وقلم ولم يسبق أن شهدت مصر اغتيالا فكرياً كما حدث لفرج فودة ..

كان اغتيال فرج فودة رصاصة موجهة إلى العقل والفكر والرأى ..
وإذا كنا بعد سنوات طويلة قد وصلنا إلى حد أن يقول كل واحد فينا رأيه بحرية ، فهذا هو ذى رصاصة من مدفع في يد شاب يقصد ما يريد - وهذا وجه الخطورة والخطر - تغتال أجهل وأعز وأعظم ما استطعنا أن نصل إليه .. هذه الحرية ..

لم تكن الرصاصات القاتلة موجهة إلى فرج فودة وحده ، وإنما كانت موجهة إلى كل صاحب رأى .. كل متعلم .. وكل مثقف .. وكل من يقول إنه يريد أن يقول ويتكلم ..
إن أزمة هذا الشعب مع الحرية أنه كان يستشعر في فترة من الزمان أن هناك من يحومون حوله بالمدافع والرشاشات ويرتدون ملابس الدولة الرسمية ليمنعوه من فتح فمه بغير الهتاف للحاكم والتصفيق له ..

وعندما تحررنا من هذا خرج علينا من داخلنا من غير الأجهزة الرسمية من يحاول تخويفنا وإرهابنا وإدخالنا سجن أفكاره ؛ وعلى عكس ما كانوا يتصورون بدأ الحديث عاليًا عن فرج فودة بعد اغتياله .. وجاء من 'يبحث عن مقالاته وعما كتبه وسجله من فكر ...

وهكذا كان هذا الكتاب الذى الذى يجمع بعض مقالاته التى كتبها فى خلال عشرة أشهر فى مجلة أكتوبر وتحت عنوان « كلام فى الهواء » .. وعندما جاءوا يسألوننى عن عنوان الكتاب كان ردى على الفور :
حتى لا يكون كلامًا فى الهواء ؟

إن اسفى أننى لم أعرف فرج فودة طويلا وقد كنت أتمنى لو تحقق لى ذلك . ولكننى باغتياله عرفت الكثير عن معركة بلدى وشعبى ووطنى .. وهو ما يجعلنى اعتقد أن ما كتبه رغم قلته لم يكن بالفعل كلاما فى الهواء .

صلاح منتصر

لا لتسييس منابر المساجد

أمامى العدد الأخير من النشرة الاخبارية التى تصدرها المنظمة العربية لحقوق الإنسان ، وتتناول انتهاكات هذه الحقوق فى الأقطار العربية ، وأحد هذه الانتهاكات من وجهة نظر المنظمة ، يتمثل فى (وقف عالمين عن إلقاء الخطب والمحاضرات فى المساجد) فى إحدى الدول الخليجية ، والسبب - وفقا لتقرير المنظمة - يتمثل فى إبداء آراء سياسية فى الخطب المنبرية ، وهو ما يمثل من وجهة نظر المنظمة (ممارسة للحقوق المشروعة فى الاعتقاد والتعبير) خاصة أن (أيا منها لم يرتكب أى عنف) ..

ونبدأ بالرأى الآخر ..

فالقضية ساخنة ، ومطروحة على طول الساحة العربية وعرضها ، والذين ينادون بحرية عرض الآراء السياسية من فوق منابر المساجد ، خاصة فى خطب الجمعة ، يقدمون منطقا متسلسلا مفرداته على النحو التالى :

- كان هذا هو دور المنبر فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفى عهد الخلفاء الراشدين ، وفى عهد من تلاهم من الخلفاء ..
- من الصعب إن لم يكن من المستحيل فصل أمور السياسة عن أمور الدين ، أو منع علماء الدين من إعلان الرأى الشرعى فى القرارات السياسية ..

● حرية الرأي لا تتجزأ خارج المسجد أو داخله ، وحرية التعبير أيضا لا تتجزأ ، خارج إطار السياسة أو داخل هذا الإطار ..

● إذا كان المجتمع يقبل حقا الديمقراطية ، فالقيد الوحيد الذي يقبله الجميع ، هو حظر استخدام العنف في التعبير عن الرأي ، وحظر استخدام (القهر) في دفع البعض إلى اعتناقه ، أو دفع البعض الآخر إلى التخلي عنه ، والتعبير عن رأي الدين في القضايا السياسية ليس فيه من العنف شيء ، ولا من القهر شيء ، ولا بد والأمر كذلك أن يكون في إطار المسموح به ، إن لم يكن محل ترحيب ..

● إن أحدا لا يقبل الازدواجية في إلقاء الأحكام المتناقضة على نفس الواقعة ، فليس معقولا أو مقبولا أن يكون الإمام على المنبر محل ترحيب واحتفال وقبول إذا ناصر الحاكم ، وأيده في قراراته بالأدلة الشرعية ، وأعلن مساندته له بالأسانيد الفقهية ، ثم يصبح نفس الإمام محل استنكار ونقد ، ولوم وهجوم ، وإيقاف ومنع ، إذا تعارض رأيه مع رأي الحاكم ، وتناقضت أسانيده مع قراراته ، واختلفت أدلته وبراهينه مع قرارات القيادة السياسية ..

التسلسل هنا منطقي ، والحجة تبدو في ظاهرها متماسكة ومنطقية ، والقارئ يتصور أن أنصار الرأي الآخر في موقف عصيب ، فأين المفر من أدلة تستند إلى التاريخ ، وإلى الحاضر ، وإلى سند الرأي الآخر ، الذي ينطلق منه ، ويعتمد عليه ، ويدعو إليه ، وهو الديمقراطية ..

ولا بأس من مقدمة ..

. وهي مقدمة نراها ضرورية ، فنحن لا نعتقد أن هناك قضية تعلو على المناقشة وقرع الحجة بالحجة ، ولا نأخذ بمخاوف البعض من الاقتراب من القضايا (اللغمية) التي تنفجر فيمن يقدم عليها بمحاولة الحوار أو الأخذ

والرد ، ولا نفعل ما يفعله البعض من تشويه للرأى الآخر ، وطمس لحججه ، وتزييف لآرائه ، توصلا لانتصار فكرى رخيص ، بل نعتقد أن هذا المنهج هو الذى أوصلنا إلى ما وصلنا إليه ، ووضعنا فى موقف لا نحسد عليه ، ومن أين يأتى الحسد والخطأ يلبس زى الصواب ، والباطل يبدو وكأنه حق لا يختلف عليه اثنان ؟

ونبدأ من حيث انتهى رأى الآخرين ..

ونسلم معهم بالديمقراطية ، ونسألهم عن حرية التعبير عن الرأى ، هل هى مقصورة على الإمام ، أو أنها لا تتجزأ ، وتشمل الامام والمأموم معا ؟ .

ثم نسألهم عن حقوق الإنسان ، هل هى قابلة للتجزئة ؟ وهل احتجاجنا على انتهاك ما نتصور أنه حق للإمام ، يبرر لنا السماح بانتهاك حقوق المأمومين ؟ .

الأسئلة جافة ، وصعبة ، ومرهقة ، ومن حق القارئ علينا قبل أن نخوض فيها أن نتحاور معه حول مثال تخيلى ، نتصور فيه أن حكم أحد مباريات الكرة ، أوقف المباراة ، ثم أشار إلى مساعده أن يناوله مكبرا للصوت ، أمسكه بيده ، وأنطلق يلقي على جماهير المشاهدين خطابا سياسيا حماسية ، أو موعظة دينية بليغة ..

ماذا يمكن أن يحدث فى مواجهة ذلك ؟

لست أشك فى أن الجماهير سوف تثور ثورة عارمة ..

والسؤال التالى ..

هل لهذه الثورة علاقة بمضمون حديث الحكم ، الذى قد يكون موضوعيا وبليغا وجذابا وخلابا ؟ والإجابة بالنفى ، فالبلاغة لن تغنى عن الغضب ، والمنطق لن يشفع فى منع الثورة .

والسؤال الأهم : هل منع هذا الحكم من الاسترسال في خطابه السياسى ، يعتبر حجرا على حريته في إبداء رأيه ، لأن حرية إبداء الرأى لا تتجزأ ؟ وهل إذا أخرجناه خارج الملعب ، واستبدلناه بحكم آخر يستأنف المباراة ، نكون قد انتهكنا حقه الإنسانى ، وحجرتنا على حريته ، مادام لم يلجأ للعنف .. الإجابة بالنفى طبعا ، غير أنى ألمح اعتراضا يرد على ذهن القارئ ، وتساؤلا يلح عليه ، عن العلاقة بين هذا المثال وواقعة منع إمام المسجد من التعبير عن آرائه السياسية ، ولعل القارئ يتسم في ذكاء وهو يردد ، ها هو ذا الكاتب يخطئ في أول الطريق ، ويستعين بمثال يرتد إليه ، وينقلب عليه ، فليست هناك علاقة بين الكرة والسياسة ، لكن الكثيرين يجدون علاقة بين أمور الدين والقضايا السياسية ، سواء اتفق الكاتب معهم واختلف ، وأنا أقبل منهم هذا الرأى - إلى حين - وأنبههم إلى أن وجهها من وجوه الثورة على الحكم الذى أشرنا إليه ، ينطلق من حقيقة موضوعية ، تتمثل في انتهاك هذا الحكم لحقوق المشاهدين ، فهم أتوا من أجل مشاهدة الكرة ، ولم يأت واحد منهم لسماع رأى سياسى أو دينى ، وقد هيا المشاهدون وجدانهم لقبول ما سعوا إليه ، فلما فوجئوا بغيره كانت الثورة وكان الغضب ، وشبيه بهذا ما يحدث لمن هيا وجدانه ، وطهر بدنه ، وذهب إلى المسجد خاشعا لسماع مالا يمكن أن يختلف عليه أحد ، وهو قول الرحمن ، وحديث الرسول الكريم ﷺ ، وتفسير القرآن ، وأركان الدين ، وأحكام الإسلام ، فإذا به يسمع حديثا سياسيا يستحيل أن يكون محل اتفاق أو إجماع ، فالمسلمون يجتمعون بالدين ، ويتفرقون بالسياسة ، ومن الممكن أن يرى الإمام رأيا سياسيا ، ويرى المأموم رأيا سياسيا آخر يختلف معه على طول الخط ، دون أن ينقص هذا من دينه أو تدينه ، فلماذا يكون موقفه في هذه الحالة ؟ .

هل يصمت ؟ ، وإذا صمت فهل من المقبول أن تبدل خطبة المنبر

راحته غضبا ، وسلامة النفس ثورة ، وهدوءه الداخلى اشتعالا ؟ وهل من حقه إذا استبد به الغضب أن يعترض على الإمام ، أو يطالبه بالرجوع إلى الحق أو بالنزول عن المنبر ، أو يأخذ الأمر (من قصيره) ويخرج تاركا المسجد للإمام ، لكي يصل فيه ويجول ، ويصيب ويخطئ ، وكلاهما وارد ، وينجو بدينه ودنياه بعيدا عن ساحة المسجد الذى ينبغى أن يكون جامعا ، وأن يكون مكانا للاتفاق ، وملاذا للساعين إلى راحة النفس ، ونقاء السريرة ، وصدق الإيمان ؟

هنا نقرب أكثر من طبيعة المأزق الذى نتصوره ، وهنا أيضا قد يرد علينا البعض بأن من حق المعارض على الإمام أن يقف ويعلن اعتراضه خلال الخطبة ، مستندا في هذا إلى ما تواتر عن اعتراض امرأة على عمر رضى الله عنه في شأن المهور ، واعتراض أحد المسلمين عليه في طول ثوبه ، ومثل هذا الرد نرد عليه بسؤال سهل وبسيط ، عن أعراف عصرنا التى تأبى ذلك كل الالباء ، عن شكل الخطبة المنبرية إذا اعترض هذا على الامام ، وإذا دافع ذاك ، وإذا رأى ثالث خطأ هذا وذاك ..

وهناك ما هو أهم ..

فلا شك أننا تقدمنا في المحور خطوة ، ولاشك أيضا أننا لسنا في حاجة إلى تذكير المتشدين بإمكانية معارضة الإمام إذا اختلفنا معه ، بأن هذا يطرح أسئلة أخرى ، تخرجنا عن إطار الجدل إلى إطار الأسى والفرع ، فنحن لا نتصور أن الخلاف السياسى داخل المسجد يمكن حله بإنشاء منابر للمعارضين ، أو بتداول الوقوف على المنبر لأصحاب الآراء المختلفة أسبوعا بعد أسبوع ، مادام لكل منهم أدلته الشرعية وأسانيده الفقهية ، ولا نقبل أيا اقتراح أن تخصص المساجد ، فيصبح هذا المسجد متخصصا في التأيد ، وذاك متخصصا في التنديد ، فذلك كله عبث لا يليق بديننا

العظيم ، وما كان أغنانا عنه في ساحة الدين ، لكتها السياسة لعننا الله ،
ولعن ما تدفعنا إليه من خيال سقيم ، وتصورات لا تستقيم ..
ثم هناك ما هو أخطر وأهم ..

من قال يا عزيزي القارئ أن الامام في عرضه لرأيه السياسى ، يعبر
عن رأى الدين ؟

لا أحد يملك أن يدعى هذا أو يؤكد ، وأقصى ما يقال أن الإمام في هذه
الحالة يعبر عن اجتهاده الشخصى في أمر من الأمور ، وقد يتفق هذا
الاجتهاد مع صحيح الدين وقد يخالفه . فإذا خالفه وهذا وارد ، أفلا يحق
لنا أن ندعو إلى تجنب ذلك من الأصل ، وقصر خطبه المنبر على ما يتفق
فيه وعليه الجميع ، وأقصد به قيم الدين الرفيعة ، وأسس وأركانه ،
وأصوله وفروعه ، وثوابه وعقابه ؟

وأى ديمقراطية هذه التى تفرض على الجالس رأيا لا يراه ، ولا يملك أن
يخرج عليه ، وتلزمه باحترام إجبارى ليس لرأى الإمام على المنبر ، بل
لمكان يستحب فيه الخشوع والخضوع ، والسمع والاستيعاب والصمت
والتسليم ؟

هى إذن ديمقراطية : ولا اسمع ولا ترد ، واستوعب تعترض ، والتزم
ولا تناقش ، واصمت ولا تفتح فمك ، ولو حدث هذا كله في أمر من أمور
الدين ، وشأن من شئون العقيدة ، لكان هذا كله خيرا ، ولنزل على
قلوب المؤمنين بردا وسلاما ، لكن الكارثة أنه يحدث في أمور السياسة
والحكم ، وهى أمور يصبح الساكت فيها عن الحق شيطانا أخرس ..

والأمثلة واضحة ..

وأى مثال أوضح من موقف بعض رجال الدين من قضية الخليج ، التى

يعتقد كاتب هذه السطور أنها إحدى القضايا النادرة ، التي كان فيها الحق واضحاً ، والباطل أوضح ؟

ألم يجتمع رهط من العلماء في جدة لمنصرة تحرير الكويت ، والحكم على صدام حسين بالبغي ، والدعوة للجهاد ضد من روعوا شعب الكويت المسلم ، وأضاعوا أمنه ، وأهدروا أمانه ؟

وألم يجتمع رهط آخر من العلماء في بغداد لكي يناصروا صدام ، ويساندوا راياته ، ويدافعوا عنه ويهاجموا أعداءه ؟

هؤلاء وأولئك لا يختلفون حول قضايا الدين ، ولا يتباعدون إذا قصرُوا اجتهادهم على القيم الدينية وإعلاء شأنها في نفوس المسلمين ، لكنهم يتنافرون ويتصارعون حين يدخل كل منهم ساحة السياسة ، فيرى رأياً ويرى الآخر رأياً معاكساً ، وهم إن اختلفوا على صفحات الصحف ، أو في ساحات الأحزاب أو في جلساتهم الخاصة أو العامة فلا لوم ولا تريب ، لكن اللوم كله ، والتريب كله ، إذا انتقلت خلافاتهم إلى ساحات المناير ، وأكسبوها احتراماً استمدوه من وقوفهم على منايرهم ، وفرضوه على الجالسين أمامهم وفي روعهم أن ما يستمعون إليه هو صحيح الدين وأصيل الاعتقاد ..

أليس الأكرم للإسلام والمسلمين ، أن نقصر ساحة المسجد على الموعظة الدينية ، وعلى الدعوة بالتي هي أحسن ، للذي هو أحسن ، وهو صلاح الدنيا وسعادة الآخرة ؟

والتاريخ ذو شجون ..

فالمسلمون قد تنازعوا ، وأسالوا دماء بعضهم ، حين اختلفوا حول أسلوب الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه في الحكم ، وحين

اختلفوا حول الثأر له ، وحين اختلفوا حول تولية من يليه ، وهو الخليفة العظيم على بن أبي طالب رضى الله عنه ..
الخلاف بدأ ، والدماء سالت ، والسيوف استطالت ، والأعناق ضربت ، والأطراف تمزقت ، حين دخلت السياسة من باب الدين ، فتمزق حبل الإجماع المتين ، وأصبحت هذه الأيام السوداء فتنة وصفها المسلمون فيما بعد بالفتنة الكبرى ..

ونعود إلى المعترضين ..

ونذكر لهم أن إطلاق حرية الدعاة في خلط أوراق السياسة والدين ، وتصوير اجتهاداتهم الشخصية على أنها رأى الدين الصحيح ، ومن خلال مواقعهم على المنابر ، ليس فيه شيء من الدعوة للحرية كما يدعون ، فالحرية لا تتجزأ ، وما يتاح لأئمة المنابر المسييسين ، لا يزيد على كونه تعبيرا عن رأى فريق من الفرق ، وتيار من التيارات ، هو تيار الإسلام السياسى ، بل أن شئنا الدقة ، فهو تعبير عن الآراء المختلفة في ساحة هذا التيار ، فأين حق التيارات الأخرى في التعبير وهى جميعا تنتسب للإسلام ديناً ، وتتمسك به اعتقاداً ؟ وأين فرصتها المتكافئة في عرض الرأى والدعوة إليه ؟ ومن هذا الذى يملك أن يستقل بالإسلام ، أو أن يعتبره قطاعاً خاصاً به ، يختص به فريقه ، ويحتكره جماعته ، ويؤممه تياره لصالحه ؟

ويبقى الحديث عن صدر الإسلام ..

وهو حديث يستند إلى هذه الفترة الزاهية ، ويجد فيها سنداً لرأيه ، فقد كان المسجد بالفعل في هذه الفترة منبرا للتوجيه ، وساحة للحوار ، ووسيلة للاتصال ، وهنا نستعير قول الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله

عنه ، في شأن سهم المؤلفة قلوبهم ، حين قال : لقد كان ذلك والإسلام يومئذ قليل ، ونحن نكرر نفس القول ، فقد كان المسجد في ذلك الزمن وسيلة الاتصال الأولى بالمسلمين ، فهل أصبح كذلك في عهد تقدم وسائل الاتصال وتراعى أطراف ديار المسلمين ، وإمكان توصيل الرأي والأمر والقضايا إلى كل مسلم في داره ، وفي أى لحظة من لحظات ليله أو نهاره ؟

نعم كان المسجد مكانا للحوار والنقاش في كل الأمور بما فيها الأمور السياسية ، فهل هو اليوم أصلح مكان لهذا ؟ وهل هو أقوى في تحقيق ذلك من ساحات البرلمان والصحف والأحزاب وأجهزة الاعلام المسموعة والمرئية ؟

نعم أيضا كان المسجد مكانا للرأى والرأى الآخر ، وقت أن كان المسلمون قلة ، وكان تماسكهم قائما ، وكانت قضاياهم واضحة ، واختلافاتهم محدودة ، فهل أصبح ممكنا أن يقوم المسجد بهذا الدور ؟ في زمن تشابكت فيه القضايا وتعقدت ، وتعددت فيه الآراء السياسية في ذات القضية ، وانعكس هذا على الاجتهادات الدينية ، فكان ما كان من خلافت رجال الدين في كل القضايا السياسية ، وكان ما عاصرناه جميعا من نماذج فجة للخروج على كل الأعراف والآداب والقيم فوق منابر بعض المساجد من قلة من الأئمة ، تحقيقا لماأرب سياسية لصالح تيار سياسى محدد ، أو توصلا إلى شهرة إعلامية تكفلها شرائط الكاسيت المثيرة ، ولدينا منها نماذج لا نود التعرض لها ، لأننا لا نشك في أنها نماذج إن أدانت فهي تدين أصحابها ، ولا تمس الإسلام العظيم السمح من قريب أو بعيد .

ونصل إلى نتيجة ..

وهى نتيجة نعتقد أنها منطقية ، فللديمقراطية تواجدتها ، ولممارسة حرية

الرأى ما يناسبها من ساحات ، وما يتلاءم معها من أساليب ، ونحن ضد فمع أى رأى وضد الحجر على أى فكر ، وضد منع أى فرد من حقه الطبيعى فى الممارسة السياسية المشروعة ، غير أننا نجد أن لهذا كله ما يناسبه من ساحات وأماكن ، والتدخل مثلا بمنع أحد السياسيين من القاء محاضرة على ركاب أحد الأتوبيسات ليس حجرا على حريته السياسية ، وليس انتهاكا لحقه الإنسانى ، ولكنه تنظيم لممارسة الحرية ، والاستمتاع بالحق ، وهو أيضا احترام لحق ركاب الأتوبيس فى الاستمتاع بوقتهم على النحو الذى استهدفوه ، وهو حق إنسانى ، فهم استهدفوا الوصول إلى مكان محدد ، وليس إلى رأى محدد فى قضية لم يسع أحد منهم إليها ، أو إلى معرفة أبعادها ، وكذلك المصلون ، الذين استهدفوا السعى الى المعرفة الدينية الصحيحة ، وسعوا إلى المسجد كساحة للاتفاق الدينى ، وليس كساحة للخلاف السياسى ، وإذا كنا نرى أنه ليس من حق الدولة أن تمنع إماما من إبداء رأيه فى محفل سياسى ، لكونه إماما ، فإننا نرى أن من حقها أن تمنعه من توظيف منبر المسجد لتحقيق أهداف سياسية ، لكونه إماما ، يسعى إليه المسلمون للتفقه فى أمور دينهم ، وما نظن أن إثارة الفرقة بين المسلمين ، واستثارة مشاعرهم لصالح تيار معين ، باب من أبواب الفقه أو هدف من أهدافه ..

ولهذا نختلف مع المنظمة ..

فالمنظمة معنية بحقوق الإنسان ، ومنشغلة بالدفاع ضد انتهاكات هذه الحقوق ، ومنع بعض الأئمة من استغلال منابر المساجد فى التعبير السياسى ، ليس انتهاكا لحقوق الأئمة ، فحقهم مكفول فى حدود وظيفتهم وأهدافها ، لكنه منع لهم من انتهاك حقوق المصلين ، بإجبارهم على سماع ما يختلفون حوله وعليه ، وهو أيضا انتهاك لساحة هى باليقين أعز من أن

توظف خدمة لطموح فريق ، أو لجنوح قاتل ، أو لجموح اجتهاد .. مع كل الاحترام لحقوق الإنسان ، ومع كل التوقير للإسلام ، ومع كل الاعتذار لمن يسعون إلى توظيف الإسلام لينتهكون حقوق الإسلام والإنسان معاً ..

لا بد من تونس وإن طال السفر

كانت زيارتي الأولى للجمهورية التونسية الشقيقة ، منذ عامين ، حيث أتيت لي فرصة دراسة وضع التيار السياسي الديني هناك عن قرب ، وأثار انتباهي ، وربما انزعاجي ، ذلك القدر الهائل من ازدواجية الخطاب السياسي ، الذي يقدمه هذا التيار للجماهير التونسية ، فعلى السطح ما يسمى بحزب النهضة ، الذي يتوجه للمثقفين ، والليبراليين ، والذي يتبنى معك أي شيء ، ويوافقك على كل شيء ، وينشئ معك أينما انشئت . وعبثا يذهب جهدك إن حاولت إحراجه ، أو ظننت أنك بأسئلتك سوف تضعه في مأزق ، فلو سألته عن موقفه لو قدر له أن يحكم أو يشارك في الحكم ، من صناعة الخمور لأجابه لا بأس ، وعن بيعها لا بأس ، وعن تداولها لا بأس ، وعن لباس البحر ذي القطعتين لا بأس ، وذو القطعة الواحدة لا بأس ، وعن السفور لا بأس ، وعن الاختلاط لا بأس ، وباختصار فهو حزب يسعى إلى طمأنة الرأي العام المعارض له في أي شيء وفي كل شيء ، فإذا سألته عن فهمه الخاص للإسلام تسارعت الألفاظ الضخمة الرنانة إلى لسانه ، وحدثك عن النهضة والهوية وفقه الحضارة ، وإذا سألته عن العنف استنكر ، وعن تكفير المجتمع أنكرك ، وعن اغتيال المعارضين بسمل واستغفر ، وهنا لابد أن تسأل نفسك إن كنت مختلفا معه ، أو على النقيض منه ؟ ماهي المشكلة إذن ؟ ولماذا هذا العداء المتبادل بينه وبين نظام الحكم ؟ خاصة أن الرئيس الحالي هو الذي

أخرج زعماءهم من السجون ، وفتح صفحة جديدة معهم ، وسمح لهم أخيرا بإصدار صحيفتهم (الفجر) ، وهى صحيفة بينى وبينها قضية تتداولها المحاكم التونسية ، وهذا موضوع حديث آخر ، لا أريد أن يشغلنى أو يشغل القارئ عن السؤال عن سر العداء بين حزب (لا بأس) ونظام الحكم التونسى ، وهو عداء لا يشغل الطرفين فقط ، بل يشغل أيضا الشعب التونسى ، الذى يتعنى أن ينتهى ، وأن تزول أسبابه ، فهو شعب طيب ، رقيق فنان ، مثقف ، عاشق للحياة إلى أقصى حد « ساع إلى الهدوء النفسى ، والاستقرار السياسى ، قريب للحضارة بالعقل ، وللأصالة بالوجدان .

وحدثت المواجهة ..

فى أعقاب محاضرتى الأولى ، التى ألقيتها فى صفاقس ، استأذن مقدم المحاضرة ، الأخ الأستاذ الأسعد الجموسى ، فى أن يتلقى الأسئلة كلها مكتوبة ، ويلقيها دفعة واحدة ، وأتولى إجابتها جميعا مرة واحدة فاعتذرت ، وطلبت منه أن يسمح لكل صاحب سؤال بالبقاء ، وأن تولى الإجابة سؤالا بسؤال ، فإذا به يكرر الطلب ، وملامح القلق بأدبه على وجهه ، وهو قلق تبينت أسبابه فيما بعد ، واستسلم أمام إصرارى على رأى ، وبدأت الأسئلة ، واستمرت السهرة إلى ما بعد منتصف الليل ، فقد كنا فى رمضان ، وكان موعد بدء المحاضرة فى التاسعة مساء .

وانكشف الوجه الآخر

كشفت الأسئلة لى عن الوجه الآخر للحركة الاسلامية فى تونس ، فما يقوله الزعماء شىء ، وما يقوله الشباب المنتمى للحركة شىء آخر تماما ، وإذا كانت مقولات حزب النهضة هى المعلنة على لسان الكبار ، فمقولات

حزب التحرير الاسلامى هى المتداولة على ألسنة الصغار ، وهى مقولات تقترب كثيرا من مقولات أعضاء تنظيمات (الجهاد) و (التكفير والهجرة) و (الجماعة الاسلامية) و (الناجون من النار) و (الناجون من الكفتة) و (قف وتبين) و (كل واشكر) .. إلى آخر هذه الأسماء الغريبة التى أتحفنا بها زماننا الردىء ، ووجه التقارب يتمثل فى تبني العنف كأسلوب للتغيير وقد أتاحت لى الفرصة للحصول على الكتب التى توضح فكر هذا الحزب ، وهى كتب فاخرة كان أعضاء الحزب يوزعونها بالمجان بعد محاضرة لى فى برلين ، لكن هذه قصة أخرى ، ويستطيع القارئ أن يكتشف كثيرا من أوجه الشبه بين الفكر الراديكالى للثورة الخمينية ، وملامح فكر حزب التحرير الاسلامى ، الذى نشأ خارج مصر ، ونجح فى استقطاب الأنصار فى سوريا والأردن والعراق وفلسطين وبعض المغرب العربى ، ولم تسمع عنه مصر إلا فى حادث الفنية العسكرية المشهور ، الذى قام به تنظيم صالح سرية ، ومع فشل التنظيم الذريع فى تحقيق أهدافه ، انتهى وجود الحزب وتأثيره فى مصر .

نعم للإسلام .. لا لتونس ..

بدت الأسئلة لى عنيفة وحادة ، وكانت إجاباتى عنها أعنف وأحد ، وصفق المؤيدون للسانلين وصفق المعارضون لهم لإجاباتى وصفق أغلب الحاضرين للأسئلة والاجابات معا ، لكن أغرب تعقيب أتى من شاب صغير ، أعلن عن استعدادة للموت فى سبيل الإسلام ، وعدم استعدادة للموت فى سبيل تونس ، فهو يؤمن بعالمية الدعوة ، ولا يؤمن بإقليمية الأوطان ، وهو يرى فى الأوطان بقايا احتلال بغيض ، واستسلاما لدعاوى استعمارية لا هدف منها سوى الكيد للإسلام ، والتعويق لقيام دولة الخلافة الإسلامية .

هكذا لخص الشاب الصغير منطقته في عبارة بدت لي غريبة ، وهي (نعم لعالمية الإسلام ولا للوطنية التونسية) .

الحق أقول للقارئ إنني انزعجت ، وإن سذاجة السائل والسؤال قد أصابتني بالغضب ، فهذا شاب ولد بعد الاستقلال ، ولم يدرك ما فعله جيل آبائه من أجل استقلال تونس ، وكيف كانت تونس محورا لحياتهم وجهادهم ، وكيف سالت الدماء الزكية من أجل ما ينكره هذا الشاب الساذج المندفع وكيف كان الإسلام رصيذا إيجابيا في حركة الاستقلال الوطني ، ثم ما هذا العبث ؟ ومن أين يأتي التناقض ؟ وما هي المشكلة في الجمع بين الولاءين : الولاء للدين ، والولاء للوطن ؟ ويبدو أن الغضب قد تسلل إلى حديثي الذي أحرص دائما على أن يكون هادئا في مواجهة أي استفزاز ، ويبدو أيضا أن الغضب قد تحول في نفوس الجالسين إلى حماسة نبيلة وأصيلة للوطن الحبيب ، فاشتعل التصفيق في أرجاء القاعة وأنا أردد ، لا كنت أنت ، ولا كنا نحن ، إن أتى اليوم الذي ينكر فيه واحد منا ولاءه لوطنه وانتماءه له واعتزازه بتاريخه ، لقد كانت تونس قبل الإسلام ، وبقيت مع الإسلام ، وستبقى على مدى الأيام ، وكذلك كانت مصر وتكون وستكون ، وقد كانت مكة بالنسبة للرسول العظيم أحب الأماكن إلى قلبه ، وأقرب البلدان إلى فؤاده ، كانت كذلك بالنسبة له قبل الإسلام ، وظلت كذلك بالنسبة له بعد الإسلام ، كانت مكة بالنسبة له وطنا ، وكان الإسلام بالنسبة له دينا ، وما تعارض الوطن والدين أبدا ، وقد آوته المدينة ونصرته ، وعلى مدى سنوات هجرته ، ظلت المدينة موطننا للأنصار ، وظلت مكة موطننا للكفار ، وظل الرسول العظيم يردد وهو يناجي مكة ، أنها أحب البلاد إليه ، ولولا أن قومه أخرجوه منها ما خرج ، وهكذا يكون الوطن ، أحب البلاد ولو أساء أهله ، أما أنت أيها الصبي فجزء من مسلسل الصدام الذي لا ندرى له سببا ، فمرة

تصطدمون بالإسلام مع العصر ، ومرة مع الوطن ، ومرة مع الحاكم ، ومرة مع المحكومين ، وكأن الإسلام لا يعرف من اللغة العربية إلا لفظا واحدا ، هو لفظ (لا) ، لا للوطن ، لا للحضارة ، لا للدولة ، وقد جاء علينا الدور لكي نقول لأمثالك لا ، لا تشغلنا يابني بهذه التفاهات ، وإذا كان لديك سؤال فاسأل في موضوع المحاضرة وهو (حقوق الانسان والدولة الدينية) ..

التيار السياسي الإسلامى .. والخصوصية التونسية ..

الشاهد هنا أن كثيرا من أسئلة الشباب كانت تعكس هذا المنطق الساخط ، الرافض للعنيف ، وآسف أيضا إذا أضفت ، والسادج أيضا ، في كل مكان ذهبت إليه ، في تونس والقيروان وسيدى بوزيد ، وجفصة وغيرها ، وقد تأكد لى أن مظلة التيار السياسى فى تونس تجمع بين نقيضين ، رأس مدار مناور بلا قدمين ، وقدمان شرسان عنيفان بلا رأس ، وإذا اجتمع الرأس والقدمان معا فلمواجهة نظام الحكم ، كل بطريقته ، وكل لتحقيق هدفه ، الرأس المفكر بالشعارات الرنانة الواسعة المرنه ، لجمع المعارضة حولها وإسقاط النظام أو إحراجه ، والأقدام الباطشة بعنف القول أو الفعل تعبيرا عن أزمات حقيقية لا علاقة لها بشعارات الفريق الأول ، وإنما علاقتها وثيقة بأزمات البطالة والتضخم وضيق فرص العمل فى الخارج والداخل ، والذي يحكم على التيار السياسى الدينى فى تونس ، من واقع تجربته فى مصر بخطأ كبيرا ، فتونس لم تعرف حتى الآن أشباه التنظيمات الدينية المسلحة فى مصر ، ولم تهب عليها بعد أعاصير الاغتيالات على يد أصحاب (الجلايب) البيضاء والقلوب السوداء والأيدى المملطخة بالدم ، وهى أيضا قطر متماسك عقيديا ، فالكل مسلمون ، والكل مالكيون (نسبة لمذهب الامام مالك) .

وفقهاء (الزيتونة) يختلفون عن فقهاء الأزهر ، ويتسامحون مع كثير مما لا يتسامح معه الأزهريون ، وأوضح الأدلة على ذلك موقفهم من تعدد الزوجات ، حيث يباركون منعه بالقانون ، وللقارئ أن يقارن هذا بالمذابح الفكرية التي حدثت في مواجهة قوانين الأحوال الشخصية في مصر ، التي لم يجرؤ قانون منها أن يقترب من هذه الدائرة المحرمة ، والقضايا التي يتغنى بها صبية الجماعات الإسلامية في مصر ، والتي تشمل تطبيق الشريعة فوراً وبالقوة ، وتكفير الحاكم ، وتشبيه الدستور والقوانين بشرعية التتار ، ليست جزءاً من أدبيات شباب هذا التيار هناك ، فالخلاف في جوهره خلاف سياسي ، وإن كان التيار السياسي الديني التونسي حريصاً على إلباسه ثوبا دينيا ، يبدو لي وللكتيرين قصيرا إلى درجة الحرج شفافا إلى درجة الخجل .

خارج هذه التركيبة غير المتناسكة للتيار السياسي الديني في تونس ، توجد مجموعة من المفكرين الإسلاميين أصحاب الفكر المعتدل ، الذين يملكون ما يجب أن يمتلكه أى متحدث عن الإسلام أو باحث في قضاياها .. وأقصد به الوجدان الجميل ، والأفق المتسع ، والرغبة في الجمع بين العزيزين ، العصر والإسلام ، ويوجد أيضا علماء الدين الذين التفت بهم ، والذين أشك في أننى سألتقى يوما بمن هم أكثر منهم فهما وعلماء وتواضعا .

وفجأة هب الإعصار

وللإعصار مقدماته ، وإحداها تتمثل في التركيبة القيادية للتيار السياسي الإسلامى التونسى ، الذى يتمثل أساسا فيما يطلق عليه (حزب النهضة) . والذى يمثل كما ذكرنا خليطاً من أنصار (لا بأس) وأنصار البأس الشديد . والذى يتزعمه اثنان ، أحدهما هو راشد

الغنوشي ، والثاني هو عبد الفتاح مورو ، وقد فضل الأول أن يقيم في باريس ويلدغ كالنحلة ، ويحوم كالفراشة ، ويصدر البيانات والتصريحات ، ويحلم بتكرار تجربة عودة الخميني إلى كرسى الحكم على جناح الإيرفرانس ، والثاني عبد الفتاح مورو . وهو قاض شرعى ، في الأربعينات من عمره ، له قبول واسع لدى أنصار التيار السياسى الإسلامى ، يتمتع بهدوء الأعصاب ، وقد ملحوظ من خفة الدم المحببة لدى التونسيين ، وقدرة أكبر على التعامل السياسى مع جميع التيارات ، وربما لهذا السبب ، فضل البقاء في تونس ، والذي لا يعلمه الكثيرون أنه كان مرشحا لزعامة التيار ، وأنه اعتذر عن رفضها لإصابته بمرض السكر ، فكان اختيار الغنوشي ، وهو اختيار أعتقد أن التيار السياسى الدينى في تونس سوف يدفع ثمنه ، إن لم يكن قد بدأ في دفع هذا الثمن بالفعل .

لقد قدر لى أن أدرس شخصية عبد الفتاح مورو من خلال كل ما كتب وكل ما كتب عنه ، فقد أعلنت في إحدى محاضراتى عن استعدادى لمناظرة زعماء التيار السياسى الدينى في التلفزيون ، وفوجئت بمكالمة تليفونية من الأستاذ عبد الرحيم الزويرى أمين الحزب الحاكم في ذلك الوقت ، ووزير العدل حاليا ، يخبرنى فيها بقبول الأستاذ عبد الفتاح مورو للمناظرة ، وتحديد موعد في الساعة التاسعة والنصف مساء للمناظرة في مبنى التلفزيون ، حيث يجب أن أكون هناك في التاسعة لترتيب موضوعات المناظرة ، التى ستحضرها أربع شخصيات عامة ، يتعاطف بعضها مع التيار السياسى الدينى ، وخلال ساعات اليوم المتبقية ، لم يكن لدى شاغل سوى جمع كل يمكننى جمعه عن هذه الشخصية المجهولة بالنسبة لى ، والتى سأتحاور معها أمام جمهور المشاهدين .

باختصار ، حتى لا تقودنا القصص الطريفة إلى ما يأخذنا بعيداً عن

الخط الأساسى للمقال ، كنت هناك فى الموعد ، وحضر ثلاثة من الأربعة المدعويين ، واعتذر الرابع وهو الأستاذ صالح الجورشى ، وفى التاسعة والرابع رن جرس التليفون ، لكى يعلن اعتذار الأستاذ عبد الفتاح مورو عن عدم الحضور ، بعد مشاورته لقيادات الحزب ، وكانت الحجة الظاهرية أن البث لن يكون مباشرا ، وهى حجة مردود عليها بوجود (المراقبين) الأربعة ، الذين سيشتركون فى الحوار ، وباستحالة البث المباشر فى مثل هذه المناظرات الساخنة ، فمن يضمن لمستول التليفزيون ألا يخرج الأستاذ مورو من جيبه مثلا ، بيانا سياسيا يدعو فيه لقلب نظام الحكم ، أو أن تتحول المناظرة إلى معركة حقيقية أو .. أو .. إلى آخر هذه (المحظورات) المنطقية ..

انقسم رأى ، وسيطر على الجلسة قرار إلغاء التسجيل ، وكان رأى على العكس من ذلك تماما ، حيث طالبت بتسجيل الحلقة ، مع وضع لافتة باسم الحاضرين ، وترك لافتة الغائبين امام مقاعدهم الخالية ، وكانت وجهة نظرى أن الانسحاب من المناظرة موقف سياسى لا بد من إعلانه ، وقد تم هذا ووجهت حديثى إلى (الغائب الحاضر) وهو التعبير الذى نشرته الصحافة التونسية ، وأذيع التسجيل فى التليفزيون وكان صدها واسعا .

ونعود إلى مقدمات الاعصار ، التى تتمثل فى ثلاث مقدمات ، أولاها أحداث الجزائر التى تنعكس آثارها على المغرب العربى كله بأكثر مما نتخيل فى شرقنا العربى ، وثانيها ذلك الحادث المثير ، الذى تمثل فى الهجوم على المقر الرئيسى للحزب الحاكم (التجمع الديمقراطى الدستورى) وهو مجرد هجوم رمزى أسفر عن قتل أحد الحراس ، وقامت به جماعة ملثمة تنتمى للتيار السياسى الدينى ، ومثل هذا الحادث يبدو لنا فى مصر ، كأنه (لعب أطفال) ، لكنه يبدو شديدا الخطورة بالنسبة

للتونسيين ، فقد زرت كثيراً من الوزراء في منازلهم ومكاتبهم ، وركبت مع بعضهم سياراتهم ، وفوجئت بأنه لا توجد أى حراسة خاصة على منازلهم أو في سياراتهم ، ومعنى هذا أن درجة الاحساس بالأمان عالية ، ومن هنا تبدو جسامة تأثير هذه الحوادث العنيفة على الرأى العام ، وكانت ثلاثة المقدمات ذلك الانقسام الذى حدث في قيادات التيار السياسى الدينى التونسى ، في أعقاب حادث الهجوم ، حيث استقالت بعض القيادات واستنكرت ، وكان على رأسها عبد الفتاح مورو ، الذى أطل على الساحة السياسية بوجه كنت أتوقعه ، وهو وجه متسامح وليبرالى وعصرى ، وهو الآن يسعى لتكوين حزب شرعى ، على أسس ديمقراطية ، وداخل إطار النظام وليس خروجاً عليه ، وأظن أن هذا كان في سبيله للتحقيق لولا تجربة الجزائر المريرة ، التى أضافت إلى ذاكرة أهل المغرب العربى درساً قاسياً ، يتمثل في أن حصول التيارات السياسية الدينية على الشرعية ، كان مدخلاً لمحاولة القضاء على الشرعية بالعنف والإثارة .

كانت هذه هى مقدمات الإعصار ، الذى ما لبث أن هب ، وتمثل في الإعلان عن اكتشاف مؤامرة لقلب نظام الحكم ، اشتركت فيها جماعات مدنية وعسكرية ، وترتب عليها أن أصبح الصراع واضحاً ومكشوفاً بين النظام المدنى والتيارات السياسية الدينية وهو صراع سوف تكشف الأيام القادمة عن آثاره وتداعياته .

وحتى إشعار آخر :

يضع الجميع أيديهم على قلوبهم ، في انتظار ما تسفر عنه الأحداث في تونس ، والأمر المؤكد لكل من له دراية بالأوضاع التونسية ، أن الواقع التونسى يختلف كثيراً عن الواقع الجزائرى ، فالأوضاع في تونس أكثر

استقرارًا ، وأكثر المتشائمين لا يتوقع تهديدًا حقيقياً لنظام الحكم المدني ،
والذى يشغل الجميع حقا هو مستقبل التجربة الديمقراطية التونسية ،
ومدى نجاح الحكم فى تجاوز الظروف الاقتصادية الصعبة ، وهذا فى
تقديرى هو العامل الحاسم فى تحديد هذا المستقبل ..

وللحديث بقية

فما أكثر القصص المسلية والطريفة التى استبعدناها حتى لا يتشتت
السرد ، وما أعمق الحب الذى أحمله لهذا القطر الشقيق ، وما أكثر
الشوق إلى زيارتى للقطر التونسى فى الشهر القادم ، وسأنقل للقارئ من
خلالها مما يحدث هناك ، بنظام البث (المباشر) من ساحة الصراع
الساخنة ..

ولابد من تونس وإن طال السفر ..

يا أهلاً بالمعارك حرب الفيديو لفضائح بعض القيادات العربية في تونس

ما يزال الحديث عن تونس متصلاً ، وهو حديث قريب إلى وجدان كاتب هذه السطور ، فليس هناك شك في أنني أحببت هذا القطر الشقيق ، وأن الكثيرين من أبنائه قد بادلوني حبا بحب ، وقد اندهشت وأنا أشاهد في شريط الفيديو لمحاضرتي الأولى في نفس يوم وصولي إلى تونس ، بعد سفر مرهق جوا وبراً ، كيف كنت على راحتي تماماً وأنا أتحدث ، وكيف امتلأ حديثي بالمداعبات والضحكات المتبادلة ، وكأنني أتحدث مع أبناء قريتي في ريف دمياط ، ولا تفسير لهذا الاقتراب أو التجاذب ، إلا بالتجاوب النفسي بين المتحدث والمستمع ، وهو تجاوب يسهل عليك أن تتلمس صداه ، ويصعب عليك أن تفسر أسبابه ..

مازلت أذكر حديث صديقة من أحد الأقطار العربية ، حين ذكرت لي أن الفن (يولد في مصر ، ويعيش في تونس ، ويموت في ..) ، ولن أذكر القطر الأخير ، حتى لا أغضب أحداً ، فقد كان القطر الذي تنتمي هذه الصديقة إليه ، وربما دفعته الدعابة إلى هذا القول ، بيد أن الفقرة الثانية تظل صحيحة ، فالفن يعيش في تونس ، وأجمل تسجيلات حفلات أم كلثوم كانت هناك ، وقد ذكر لي مدير المراسم أن سيارة السيدة أم كلثوم قد توقفت في أول أحد الشوارع الرئيسية ، وأنها سارت على

قدميها حتى نهاية الشارع ، لكي تحيي الجماهير المحتشدة على جانبي الطريق ، والتي استقبلتها كما لم تستقبل الرؤساء أو الزعماء من قبل ومن بعد ..

في تونس تجد جمهوراً لكل الفنانين ، أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد وعبد الحليم وسيد مكاوي وعدوية والشيخ إمام وفيروز ومارسيل خليفة وشهر زاد ، وللفنانين الشبان هناك تجارب رائعة وجريئة ، وقد استمعت في مدينة الحمامات من مطرب شاب إلى إحدى أغرب وأجمل الأغنيات التي سمعتها في حياتي ..

كانت الأغنية تتحدث عن (جنازة) أحد الفنانين ، وكيف كان جسده يقود المشيعين ، وصوت المطرب يردد (في القلب جريدة ، مرشوقة سعة ورا سعة) ..

في ليلة رمضانية أخرى ، جلست في مقهى شعبي خلف مسجد الزيتونة ، وكانت هناك فرقة موسيقية صغيرة ، وكان الشبان والفتيات يتجاوبون مع الغناء بالتصفيق والترديد والرقص ..

هذا الشعب الفنان يستحيل عليه أن يستجيب لهواة (النكد الأزلي) ، الذين يحلو لهم الحديث عن حرمة الموسيقى والغناء والفن ، وقد تقسو الظروف الاقتصادية على التونسي فيخرج عن طبعه ، لكنه لا ينفصل أبداً عن طبيعته ، والذين لا يفهمون ذلك يعزلون أنفسهم عنه ، وقد يفسر هذا موقف كثير من الرافضين للتيار السياسي الديني ، الذين لا يكتفون بالرفض ، بل ويتجاوزون ذلك إلى العداء الشديد ..

ممنوع لأقل من ١٨ سنة ..

وما دمنّا نتحدث عن العداء الشديد ، فلا بأس أن نذكر هنا قصة تشغل الرأي العام التونسي حالياً ، وهي قصة شهيرة تناقلها التونسيون

حتى وصل الأمر إلى ضرورة تدخل رئيس الدولة بإصدار تصريح نشرته جميع أجهزة الاعلام ، بعدم نشر شريط الفيديو الخاص بالأستاذ على العريض لأن الحياة الخاصة لا يجوز أن تكون مجالاً لتصفية حسابات سياسية ..

ما هي قصة الشريط ، ومن هو الأستاذ العريض ؟ ..
الأستاذ العريض هو الشخصية الثالثة تقريباً في مثلث قيادات حزب النهضة (الغنوشي - مورو - العريض) ، وهو يمثل الحدة والعصبية والتهور أحياناً تماماً كما يفعل بلحاج في الجزائر ..
هذا عن الأستاذ العريض فماذا عن شريط الفيديو ..
لا بأس من مقدمة ترتبط بما ذكرناه عن العداء الشديد الذي تحمله بعض التيارات لدعوى التيار السياسى الدينى الجامدة والمتصلبة والعنيفة أحياناً ..

جريدة (الاعلان) التونسية تمثل قمة هذا العداء ، ومحرروها على استعداد للوصول بهذا العداء إلى أقصى مداه ، وقد فوجئ التونسيون بصدور عدد من جريدة الاعلان عليه تحذير واضح جداً يقول (ممنوع قراءة هذا العدد لمن هم أقل من ١٨ عاماً) وتحت هذا التحذير إعلان بالبنط العريض جداً عن حصول الجريدة على شريط فيديو (صوت وصورة) لممارسة غير طبيعية وغير أخلاقية بين أحد قيادات حزب النهضة وبعض أعضاء الحزب ..

عبارة (أحد قيادات حزب النهضة) لم تكن التعبير الدقيق الذى نشرته الجريدة فى العنوان ، وقد كتبناها لتخفيف وقع ما نشر على القارئ المصرى ، فالذى نشر فعلاً هو - شريط (...) للعريض - وقد وصفت الجريدة تفاصيل الشريط وهى تفاصيل مفزعة ، ودعت من يريد للحضور لمقر الجريدة لمشاهدة محتويات الشريط ، وتحدث العريض أن ينكر

ما حدث ، والمذهل أن تسجيل هذا الشريط قد تم من بعض أعضاء
الحزب لتصفية حسابات مع قياداته ، وقد قرأت عن هذه الفضيحة في
بعض الصحف العربية فلم أصدق الأمر ، لكن تصريح الرئيس التونسي
الذي نشرته إحدى الصحف المصرية أكد لي أن في الأمر شيئاً ، وأنه
يستحيل أن يصدر رئيس الدولة تصريحاً من فراغ ، وظلت الظنون
تتجاذبنى إلى أن اتصل بي أحد أصدقائي التونسيين هاتفياً ، وهو بالمناسبة
أحد أشهر الصحفيين في صحيفة الاعلام ، وأخبرني بالتفاصيل ، وزاد على
ذلك أن أخطرني بأنه قد أرسل الشريط إلى البريد قبل يومين ..
هذا مثال للعداء المتبادل (شعبياً) بين التيار السياسى الدينى
والتيارات الأخرى ، وقد عرضناه لأنه يمثل نموذجاً مختلفاً عما يحدث في
بلادنا حيث لا يصل العداء إلى هذه الدرجة الحادة الصريحة المباشرة ..
الطبيعة التونسية هنا تلعب دورها ، فالناس في تونس مشاعرهم
مباشرة وواضحة وعنيفة أحياناً ، على الرغم من تسامحهم فيما لا يتسامح
فيه أحياناً في مصر ، لكن لهذا التسامح حدوداً لا يقبل التونسيون أن
ينجاوزها أحد ..

خلال إقامتي في تونس قرأت حواراً دار في شهر رمضان بين الأستاذ
مورو ومحامية تونسية يسارية ، نشرته مجلة المغرب العربى ، وهى مجلة
محترمة ..

الحوار دار في لقاء علنى بين المحامية والأستاذ مورو ، وبدأ بمداعية من
المحامية للأستاذ ، تذكر له فيها ما معناه أن حبها له يتجدد ، ولا يتبدد ،
وهنا رد الأستاذ مورو مباشراً فيه خفة دم واضحة ، وفيه إشارة جنسية
أكثر وضوحاً ، على سبيل المداعية بالطبع ، ثم تدارك الأمر وطلب منها أن
تبعد عنه حتى لا يفسد صيامه ..

التونسيون رددوا هذه الدعاية وهم يضحكون « وتمثل رد فعلهم في

الاعجاب بسرعة بديهية وخفة دم الأستاذ مورو ، ولم أجد أحدا يتجاوز ذلك إلى لومه أو الطعن في تدينه أو الإساءة إليه .

كان الحوار كله في دائرة المسموح به تونسيا ، فتقبله التونسيون برحابة صدر ، ولو حدث هذا الحوار في مصر ، لقامت القيامة ، وربما خسر صاحب الدعاية رصيده الشعبي كله ، بل وأكثر من ذلك فأنا لا أتصور أن تنشر مجلة أو صحيفة مصرية نص الحوار كاملا ، بدليل أنني شخصيا أخرج الآن من نشر التفاصيل .. هل اقتربنا قليلا من فهم طبيعة الشعب التونسي ، وكيف أنه شعب متسامح طيب فنان متذوق للدعاية ، واضح في مودته ، وشديد الوضوح في عاداته أيضا .. أتمنى ذلك ..

وتكرر الخطأ التاريخي ..

نعم وقع التونسيون في الخطأ الذي تكرر في أغلب البلدان العربية ، فعقب الحصول على الاستقلال ، تخصصت أغلب النظم العربية في تمزيق أوصال التيارات المدنية المعارضة ، ووصلت بعض الأنظمة إلى حد التصفية الجسدية للمعارضين ، وكلما اضمحلت المعارضة المدنية ، فرك أنصار الحزب الحاكم أيديهم فرحا ، واحتفلوا بانتصارهم ، وسعدوا بأن أعداءهم (المدنيين) أصبحوا مثل طواحين الهواء في قصة (سرفانتس) الشهيرة .

حدث هذا في مصر ، وفي غيرها ، وحدث بنفس الصورة في تونس ، مع اختلاف في الدرجة وفي التفاصيل ، وعندما ظهر المد السياسي الديني ، اكتشفت الأحزاب الحاكمة حجم الخطأ الذي ارتكبته ، فقد أصبحت وحدها في المواجهة ، وبحثت عن الأحزاب المدنية التي كان يمكنها أن تواجه فلم نجد ، وأصبح قصارى حلم بعض الأنظمة أن تتزعم المعارضة فيها أحزاب مدنية ، ولكن هيهات ..

هذا ما حدث بالضبط في تونس ، فأحزاب المعارضة هاشمية تماماً ، وبعضها يسارى ، وهو مطعون في القلب بما حدث لليسار في العالم كله ، وبعضها الآخر قومى ، وهو مطعون في القلب أيضاً بما حدث ويحدث في عالمنا العربى من انقسام وتفكك وتجارب وحدوية فاشلة وطائشة ..

في ظل انهيار المعارضة المدنية ظهر التيار السياسى الدينى ، وتحملت له نسبة محدودة من التونسيين ، ولا يستطيع أحد أن يدعى في تونس أن رصيد هذا التيار يمكن أن يتجاوز مثلاً العشرين في المائة ، لكن هذه النسبة تعتبر هائلة بالمقارنة بما يمكن أن تحصل عليه أحزاب المعارضة المدنية التى يحمد بعضها الله ويقبل يده ظهراً وباطناً إذا حصل على ١ ٪ أو ٢ ٪ .

المشكلة هنا أن التيار السياسى الدينى صعد بأقليته المحدودة إلى منصة المعارض الرئيسى ، وأن بعض أحزاب المعارضة المدنية الهشة وجدتها فرصة لتصفية حساباتها القديمة مع الحزب الحاكم فتحالفت معه ، وفعلت ما نردده في النكتة الشهيرة ، عم (ولد العم) الذى أراد أن (يغيظ) زوجته ، والنتيجة بالطبع تمثل مأزقاً للحزب الحاكم ، فالتيار السياسى الدينى أقلية ، لكن صوته أعلى من حجمه لغياب المعارضة المدنية الحقيقية لأسباب تاريخية ، وهو لا يؤثر في الأوضاع القائمة ، لكنه شاء الحزب الحاكم أم أبى زعيم المعارضة أو أعلاها صوتاً ، وأكثرها شعبية ..

ومن هنا نفهم ما حدث أخيراً من لقاءات بين رئيس الدولة ، وهو نفسه رئيس الحزب الحاكم ، مع زعماء المعارضة المدنية ، وتعاونهم معهم إلى درجة إرسال بعضهم برسائل إلى رؤساء الدول خلال أزمة الخليج . هل فات الآوان ، وهل تأخر الوقت ، لا نظن ، وإن كنا نؤكد أنه لأول مرة في تاريخ تونس بعد الاستقلال ، تصبح قوة الأحزاب المدنية المعارضة أملاً للحزب الحاكم ، ويصبح حديثها ونقدها وهجومها مثل ربح

الصيف المنعشة ، وينزل كلامها العنيف على قلب الحزب الحاكم بردا وسلاما ، ولا يلقى سوى الترحيب .

والشيء بالشيء يذكر

فأحد أسباب الموقف التونسي (الرسمي) في أزمة الخليج يتمثل في الود المتبادل بين الحزب الحاكم والأحزاب القومية المعارضة ، وهي الأحزاب المؤهلة في ظل ضعف اليسار لتصدر ساحة المعارضة المدنية ، وهو ليس السبب الوحيد أو الرئيسي بالطبع ، لكنه أحد الأسباب القوية بالتأكيد ، ويمكن أن نضيف إليه ذلك العداء المترسب في أعماق الوجدان ، لدى قطاعات كبيرة من الشعب ، للغرب عموما ، بأسلوب (لا أحبك ولا أطيق البعد عنك) ، فالكثيرون يقرءون بالفرنسية ، ويتصلون أعمق الاتصال بالحضارة الغربية عن طريق اللغة ، لكنهم يشعرون أن وجدانهم بعيد عن هذا تماما ، وأن ثقافتهم مختلفة ، وأن لسانهم في كثير من الأحيان في واد ، ووجدانهم في واد آخر ، وتزداد الأزمة تعقيدا من خلال ما حدث لأهل المغرب في فرنسا من اضطهاد وحساسيات ومشاكل ، خاصة بعد ظهور بعض الأحزاب العنصرية في الساحة الفرنسية ، الأمر الذي ترتب عليه عودة الآلاف إلى الوطن الأم ، محملين بمشاعر الكراهية لكل ما هو على الجانب الآخر من البحر المتوسط ، فإذا أضفنا إلى ذلك غط السياحة الخليجية في تونس ، أمكننا أن نقرب أكثر من فهم رد الفعل التونسي ، رسميا وشعبيا خلال هذه الأزمة ، وأنا هنا أتحدث عن فهم رد الفعل وليس عن قبوله .

الطريف أن البعض يتصور أن نقل جامعة الدول العربية من تونس إلى القاهرة كان سببا رئيسيا لما حدث في تونس وللجفوة الطارئة بين تونس

ومصر ، وأستطيع أن أجزم بأن هذا ليس صحيحا ، وأنه لا أحد في تونس يتوقف أمام هذا الأمر ، لا بالغضب ولا بالرفض ولا بالحقد والكراهية .

وما يزال الحديث متصلاً

فتونس في القلب ، وحب التونسيين لمصر لا حد له ، ولن أنسى بائع الزهور الفقير ، في مصيف (سوسة) ، الذي كان يصر على أن يهدي زهرتين لابنتي الاثنتين كل يوم ، ويرفض إطلاقاً أن يأخذ الثمن ، تحية كما كان يقول لمصر والمصريين ، ولن أنسى أيضاً ذلك الشاب الصغير الذي وقف بعد أن انتهت محاضرتي في مدينة (سيدى بوزيد) ، لكى يسألنى وهو يمسك بجريدة (المحرر) التى تصدر فى باريس .

- هل قرأت هذه الجريدة .

- ماذا تقصد ؟

- أقصد أن عنوانها الرئيسى كان عنك .. وكان يذكر أنك دعوت إلى فتح أسواق لبيع الجوارى فى القاهرة .. هل يتناسق هذا مع حديثك عن الحضارة ، وكلماتك الرنانة عن مواجهة الردة الحضارية . صمتت القاعة .. وفوجئ الجميع بى وأنا أضحك بصوت عال .

عندما أصبح الحجاب قضية فرنسية ساخنة

أكتب هذا المقال في باريس ، بعد لقاءات بكثير من الأصدقاء المصريين ، الذين يتحركون بأقدامهم على أرض العاصمة الجميلة ، ويعيشون بوجدانهم على ضفاف النيل ..

هذه هي الزيارة الأولى لباريس بعد الضجة الشهيرة التي ثارت حول حجاب فتاتين مغربيتين ، والغريب أن ما نقلته إلينا أجهزة الاعلام ، كان ملونا بنظرية المؤامرة ، وهي نظرية يعتنقها الكثيرون للأسف الشديد ، وتتلخص في تصوير الحضارة الغربية على أنها معادية للإسلام ، بل ومتفرغة لهذا العداء ، ويمكن القارئ لبعض المقالات في المجلات والصحف الدينية ، أن يتخيل الحضارة الغربية كأنها نشأت أساساً من أجل هذا الهدف ..

الأسف هنا يعود إلى اعتقاد كاتب هذه السطور ، أن هذه النظرية لا أساس لها ، فالذى يشغل الغرب حقا هو المزيد من التقدم ، والانجازات الحضارية ، والتنافس القاتل حول اكتشاف الجديد والمفيد والمبهر ، لأن هذا هو شرط الاستمرار ، فالعجلة تدور بسرعة هائلة ، والذى يتوقف يسقط منها بغير رحمة ، وقد ودع الغرب منذ زمن طويل قضية خلط أوراق السياسة والدين على المستوى العام ، وأصبحت قضايا (الحروب الصليبية) و (الحكومات الدينية) ، قضايا تنتمى لديهم إلى عصور قديمة ومتخلفة ، وحلت محلها قضايا الديمقراطية ، وحرية الفكر

والعقيدة ، والمساواة دون تمييز على أساس الجنس أو الاعتقاد ، وهي قضايا لا تحمل لديهم (الهزار) أو الاجتهاد ، أو على الأقل هذا ما أعتقده ، وما تناقشت حوله مع بعض الأشقاء العرب في مصر ، وكان منهم من شارك في مسئولية الحكم في بلاده في فترة سابقة ، فإذا بأحدهم ينبرى لي معترضاً بلهجة لم تخل من الحدة ، ويمتطق انطوى على غضب واضح ، أوجزه في عبارة مثيرة أنهى بها الحوار قائلاً (أين هي الحرية الدينية والقيم الحضارية التي تتحدث عنها . إن فرنسا - الحرة - لم تحمل رؤية فتاتين بالحجاب) ..

دار النقاش وتشعب ، وظلت هذه العبارة تطرق ذهني في تساؤل ملح ، عن صحة ما ذكره الصديق ، وعن حقيقة القصة التي استند إليها في رأيه الغاضب ، حتى أتيت لي فرصة زيارة العاصمة الفرنسية ، فكان أول ما فعلته هو التساؤل عما حدث ..

وهكذا بدأت المعركة ..

في صباح أحد الأيام ، في مدرسة بإحدى مدن الجنوب الفرنسي ، دخلت شقيقتان من أصل مغربي ، أعمارهما (١٥) ، (١٦) عاماً ، إلى قاعة الدرس بحجاب .

لم يكن الحجاب مجرد غطاء (منديل) للرأس ، بل كان حجاباً لا يكشف سوى الوجه ، وينسدل على الصدر والظهر والكتفين ، فوق جلباب واسع فضفاض يصل إلى القدمين ..

التفاصيل السابقة هامة ، من أجل فهم ما دار من حوار ، وما حدث من مشكلات ، فالمدارس الفرنسية لا تعترف بالزى الرسمي الموحد للطالبات ، وتراه انتقاصاً من الحريات الشخصية للمواطنات صغيرات السن ، وهي لا تشترط في الزى سوى أن يكون مناسباً وعادياً ، ولفظ

(مناسب وعادى) واسع المدى ، ويسمح بالتأكيد بمنديل الرأس أو القبعة ، أو ما يشبهها ، ويسمح أيضًا بالملابس (المحتشمة) ، لكنه لا يسمح بالزى (الدينى) ، الذى يميز بين الطالبات على أساس العقيدة الدينية .

دخلت الطالبتان الفصل الدراسى ، وتصادف أن كان أحد دروس اليوم خاصا بالتربية الرياضية ، وعادة تلبس الطالبات فيه ما يلائم أداء الألعاب الرياضية شورت وفانلة أو بذلة تدريب) ، وقد اعتذرت الطالبتان عن المشاركة بحجة عدم ملاءمة الزى الرياضى ، الذى (يحف) أو (يشف) أو (يصف) ، وهنا استدعاها مدير المدرسة ، ونبه عليها بعدم دخول المدرسة بهذا (الزى الدينى) وبضرورة حضور الدروس الرياضية بزى رياضى ملائم ..

عبارة (زى دينى) هنا هامة أيضًا ، لأن هذا هو التفسير الذى استند إليه مدير المدرسة فى قراره بالمنع ..

وهاجت الدنيا ليس بعدها بأيام ، بل فى اليوم التالى مباشرة ، حيث صدرت عشرات الصحف وهى تنشر أخبار هذه (الحادثة) فى الصفحة الأولى ..

هنا لابد من التوقف أمام ما يطرحه كثير من العرب المقيمين فى فرنسا ، حيث تعتنقون نظرية (المؤامرة العكسية) ، ومضمونها أن القصة كلها مدبرة ، وليس دافعها هو الدفاع عن الإسلام ، بل إثارة مشكلة تزعج الفرنسيين ، ويبدو الاسلام وراءها فاعلا أصليا .

دليل أصحاب نظرية (المؤامرة العكسية) ، هو سرعة النشر وسخونته ، وهم يصلون فى تصوراتهم إلى درجة اشراك الطالبتين ، أو أسرتهم فى هذه المؤامرة ، إن جاز التعبير ، ويبرهنون على صحة تصورهم بما حدث بعد ذلك ، وهو كثير ومثير ..

كان منطق مدير المدرسة ، كما عرض على صفحات الصحف ، وعلى شاشات التليفزيون ، بسيطاً ، ويتلخص في أن فرنسا دولة (علمانية) ، ترفض التمييز على أساس الدين داخل المؤسسات التعليمية ، وأن الزى الذى ارتدته الطالبتان ، ينطلق من فرضية دينية ، ويترتب عليه ما يشبه الاعلام عن الهوية الدينية فالتطالبتان تعلنان بهذا الزى أنها مسلمتان ، وهذا مرفوض داخل المدارس الفرنسية .

أردف مدير المدرسة في توضيح قصده ، أنه يرفض أيضاً أن تدخل المدرسة طالبتان بزي الراهبات ، فالقضية لديه ليست موقفاً من دين معين ، ولكنها قضية أعراف وقيم تسود نظام التعليم ، وتمنع التمييز أو التمايز على أسس دينية ، والمشكلة في تصويره تجاوزت الزى إلى محاولة فرض إطار قيمي معين على نظام المدرسة ، فالتطالبتان ترفضان حضور الدروس الرياضية ، وغداً سترفضان حضور دروس الفلسفة ، أو بعض دروس العلوم الطبيعية ، لأسباب عقيدية ، ويستحيل عليه وهو مسئول عن المدرسة أن يقبل بذلك .

هذه مدرسة فرنسية ، والحديث للمدير ، والكل فيها طالبات فرنسيات ، هن كل الحق في ممارسة دينهن كما يشأن ، والاعلان عن هويتهن الدينية بأى أسلوب ، لكن ليس داخل جدران المدرسة ، ولو تركنا الأمر دون وقفة ، فسيدخل الطلبة اليهود غداً بطاقة الرأس اليهودية المميزة ، وسيدخل البوذيون بزي الرهبان البوذي البرتقالي اللون ، وسينهدم ركن المساواة وعدم التمييز من أساسه ..

هذه حجة مدير المدرسة ، نقلتها مترجمة حرفياً من إحدى الصحف الفرنسية ، وهى حجة بدت مقنعة لكثير من الفرنسيين .

بعد يومين ، دخلت زوجة الرئيس ميتران ميدان المعركة ، بتصريح ساخن ، أعلنت فيه أن مدير المدرسة أخطأ ، وأن من حق الطالبتين أن

يذهبن إلى المدرسة بزيهن الدينى ، وأن رأى مدير المدرسة لا يزيد على كونه تفسيراً شخصياً يتناقض مع مفاهيم الحرية والعلمانية ، وبعد هذا التصريح إنزال سيل من الاحتجاجات من التجمعات الإسلامية ، التى ذكرت أن ما لبسته الطالبتان ، ليس (زيا دينيا) ، ولكنه تنفيذ لتعاليم الدين ، وإذا كان من حق مدير المدرسة أن يمنع (الزى الدينى) ، فليس من حقه أن يمنع (التدين) ..

اتسع الخرق على الراق ، كما يقولون ، ودخل الفرنسيون من مناصرة الطرفين إلى حلبة النقاش ..

أنصار مدير المدرسة ذكروا أن أحدا لا يمنع مواطنا من ممارسة الدين ، أو التدين ، لكن التدين له أماكنه ، وليست المدارس من هذه الأماكن ، وأنه على الرغم من أن الأغلبية الساحقة من الفرنسيين من المسيحيين ، إلا أنه من المحظور على المدارس أن تلزم الطالبات بزي دينى أو أن تسمح لهم بذلك ، وبرهنوا على الحرية الدينية فيما يخص المسلمين بالتحديد ، بإحصائية تثبت أن عدد المساجد وأماكن العبادة الإسلامية ، التى حصلت على تصريح بالتشييد أو النشاط ، قد تجاوز ستة آلاف مسجد وقاعة ، خلال السنوات العشر الأخيرة ، وأن أغلب هذه الأماكن قد تم إنشاؤه بتمويل خارجى ، دون أن يعترض أحد ..

رد عليهم أنصار الطالبتين بأنه من العجيب أن تثور هذه الضجة كلها من أجل قضية مثل هذه القضية ، إلا إذا كانت الدوافع شيئا آخر غير قضية الطالبتين ، والتلميح هنا واضح بالعداء بالفرنسى للإسلام والمسلمين ..

رد أنصار مدير المدرسة بأن الذى أثار الضجة هم أنصار الفتاتين ، فالأمر لم يزد عن تعليمات من مدير إحدى المدارس لطالبتين ، كان يمكنها احترام التعليمات ، أو رفع شكوى بذلك للمستوى التعليمى أو الإدارى

الأعلى ، أو مناقشة المدير في قراره ومحاولة إقناعه ، لكن الذى حدث أن الدنيا قامت ولم تقعد دون مناسبة ، وتحولت القضية على يد أنصار الفتاتين من قضية شخصية محدودة ، إلى قضية سياسية وقومية ودينية .

أضاف أنصار مدير المدرسة ، أن القانون يسمح للجاليات الاسلامية بأن تكون لها مدارسها ، التى لن تكون مدارس دينية بالطبع ، لكن من الممكن أن يتم فيها التوسع فى تفسير مفهوم الزى المناسب والعادى وغير المتميز دينيا .

ووصل الأمر إلى الجمعية الوطنية ..

وهذا ما لم يتصوره أحد ، فقد تصاعدت القضية إلى حد مناقشتها فى الجمعية الوطنية الفرنسية (أى المجلس التشريعى) ، وتابع الفرنسيون المناقشات الساخنة ، التى انتهت نهاية درامية ، حيث تم التصويت فيها لصالح الطالبتين ، وسمح لهما ولغيرهما بارتداء الحجاب فى المدارس ، وتحولت القضية إلى معركة سياسية مثيرة ، أعطى الاشتراكيون أصواتهم فيها لصالح الفتاتين ، وارتفعت أصوات حزب الجبهة الوطنية الذى يتزعمه (لوبين) منددة بموقف الاشتراكيين ، وتصادف فتح باب الانتخابات فى إحدى ضواحي باريس ، فإذا بمرشحة حزب لوبين تكتسح منافسها الاشتراكى وهى ترفع شعار أنقذوا فرنسا من الاشتراكيين ، وكانت قصة الفتاتين هى الموضوع الانتخابى الساخن ..

ولم تنته القصة ..

للأسف الشديد ، لم تنته ، بل لعلها بدأت .. فقد استقال مدير المدرسة ، احتجاجاً على قرار الجمعية الوطنية ، وأثارت استقالته تعاطفاً كبيراً من رأى العام الذى يستوعب منطقهم ويفهمه ، وتم التعبير عن هذا التعاطف بمقالات وحوارات ركزت على نقطة أساسية ، وهى أن الأعراف

الفرنسية المستقرة ، أصبحت مهددة من خلال الأقليات الوافدة ، التي تستند إلى الحريات الواسعة التي يكفلها الدستور الفرنسي .

بعض هذه المقالات كان عاطفياً ، وإن لم يخل من المنطق فكثير منهم ذكروا أنهم يذهبون إلى بلدان الشرق الأوسط ، ويتنازلون طائعين عن كثير من عاداتهم الشخصية التي يمارسونها في بلادهم ، التزاما منهم بحق الأغلبية في ضبط السلوك الاجتماعي العام وفقا للأعراف السائدة .

أحدهم ذكر أن المواطن الفرنسي يقبل زوجته أو صديقته في الطريق العام ، أو في الحديقة ، وقد يفعل أكثر من ذلك لكنه لا يفعل هذا في شوارع القاهرة مثلا أو شوارع بغداد ، والفتيات الفرنسيات ينزلن إلى البحر بالنصف الأسفل من لباس البحر ، ولا يفعلن ذلك مثلا في شواطئ الاسكندرية أو جدة .

ونعود إلى نتيجة المعركة ..

ولعل هذا هو أهم ما في الموضوع .. فالقضية كانت محل حوار من البداية وحتى النهاية ، وليس في الحوار خطأ والفرنسيون انقسموا إلى مؤيدين ومعارضين ، وكثيرون منهم تحمسوا لصالح الفتاتين ، أى أن القضية لم تكن قضية عدااء عام للإسلام أو المسلمين كما صورتها لنا بعض أجهزة الإعلام .

وزوجة رئيس الدولة أيدت الفتاتين ، وكذا الحزب الاشتراكي ، أى أن الموقف (الرسمي) لم يكن معارضا ، أو محايدا ، بل كان أقرب إلى التأييد ..

والقضية ، وهذا هو الأهم ، تم حسمها لصالح الفتاتين ، وليس ضدهم ، ومن أعلى سلطة تشريعية في البلاد ..

من أين إذن أتت مقولات العدااء الفرنسي للإسلام والمسلمين على أى

أساس حدثى الصديق العربى فى القاهرة ، عن فرنسا - الحرة - التى لم تتحمل حجاب فتاتين ، وعن العداء الفرنسى للحجاب ، والادعاء المغلوط بحرية الرأى والاعتقاد ، والايمان الفرنسى الكاذب بالحريات الشخصية ..

من أين أتى هذا كله ، وعلى أى أساس يستند أنصار منطق المؤامرة .. هذا هو السؤال الذى لن يجيب عليه أحد من أنصار هذا المنطق ، لأن منطق المؤامرة سابق للقصة ، ولا حق لها ، ومستمر وقائم سواء حدثت أو لم تحدث ..

وبدا الحصاد المر ..

مع خالص الأسف ، فقد تابع الفرنسيون بانزعاج شديد ، الضجة التى أثارته بعض الجهات حول القضية ، فأعطتها أكثر من حجمها ، والكتابات المثيرة التى تداولتها كثير من المجلات والصحف العربية ، وكلها للأسف الشديد نقلت هنا إلى الرأى العام ، وأصابته بارتباك وضيق شديد ، وجعلته يتساءل أهذا هو الجزاء على المناصرة والسماح ؟ ، وهل من المعقول أن يصدر قرار من أعلى الجهات التشريعية لصالح الفتاتين ، ثم نتهم بالتعصب وبإعلان الحرب على الاسلام ؟ لقد ناصرنا موقفا شاذا - بالنسبة لنا - لفتاتين غريبتين ، على حساب موقف منطقى بالنسبة لنا أيضا ، لمسئول فرنسى ، وكلفناه وظيفه ، تزييدا منا فى تأييد الحرية الشخصية والدينية ، فهل من المعقول بعد هذا أن نتهم بالعداء للاسلام والمسلمين ، وأن توجه إلينا تهمة التعصب ؟.

هنا فقط بدأ الفرنسيون يتنبهون إلى قضايا كانوا يتسامحون فيها من قبل ، ولو على حساب النظام العام ، وأصبحوا يتعاملون معها بقدر كبير من التشدد والتشكك والحذر ..

أنتبه الفرنسيون إلى أن المسلمين في بعض المدن الصغيرة ، يجلسون صفوفًا خارج المسجد وقت صلاة الجمعة ، وهذا مخالف للنظام العام .. انتبهوا إلى أماكن السكنى إلى أماكن للعبادة دون موافقة ، وهذا مخالف للنظام العام ..

انتبهوا إلى ارتفاع صوت أذان الصلاة خارج حدود المسجد ، وبدأوا يعلنون شكواهم من هذا .. صحيح أنه لا توجد ميكروفونات توقيظ النيام في الفجر للصلاة ، لكن ارتفاع صوت المكبرات الصغيرة داخل المسجد ، في أذان الظهر أو العصر بدأ يثير شكوى الجيران ..

ساد الشعور بأن القضية لم تعد قضية حرية دينية ، بل محاولة لأسلمة المجتمع الفرنسي ، وإخضاع الأغلبية فيه لنزعات الأقلية .. ثم حدثت الضجة الكبرى في عيد الأضحى الماضى في حى الأتراك .. ليلة العيد امتلأت الشرفات والأسطح بخراف العيد ، التى حجبت النوم عن عيون الجيران الفرنسيين ، وفي الصباح ارتفع الصباح والتهليل والتكبير ، وفتح الفرنسيون نوافذ شققهم لكى يشاهدوا ما أفزعهم وهو منظر ذبح الخراف أمام أبواب المنازل وفي الشرفات وفوق الأسطح .. إنهالت الشكاوى على أقسام البوليس والقضايا أمام المحاكم والمطالبات بالتعويضات على ما أصاب مشاعر الأطفال من ألم ..

الشاهد هنا أن (لوبين) لم يعد وحده صاحب الراية المرفوعة (احذر تقاليد بلادنا أو غادروها) ، وإنما تعدى الأمر إلى شخصيات كانت معروفة بالاعتدال .

جاك شيراك ، عمدة باريس وهو أحد أهم الشخصيات السياسية الفرنسية ، أدلى مؤخرًا بتصريح انتقد فيه كثيرا من سلوكيات التجمعات

الاسلامية في بعض أحياء العاصمة ، خاصة فيما يتعلق بالنظافة واحترام
آداب الطريق والقوانين البلدية ..

وحاورني صديق فرنسي ..

وهو صحفي معروف ، وهو أيضاً من المتعاطفين مع القضايا العربية
لكنه كان تائراً هذه المرة ، وكان رأيه أن حرية الاعتقاد في فرنسا لا مثيل
لها في العالم كله ، واستطرد مؤكداً وجهة نظره ..

روجيه جارودي مثلاً ، أحد أشهر الفلاسفة الفرنسيين ، شهر
إسلامه ، فلم يتزعج أحد ، ولم ينتقده كاتب فرنسي واحد ..

لاحظ الصديق عدم انتباهي ، فسألني ، هل يستطيع نجيب محفوظ
عندكم أن يعتنق ديناً آخر ، دون أن تتقلب الدنيا رأساً على عقب . سألته
عن مناسبة الحديث ، الذي لا علاقة له من وجهة نظري بقضية
الطالبين ، فأجابني بأن القضية واحدة ، فالاعلام لديكم يتناولها من
منطلق اتهام فرنسا بالتخلي عن حرية الاعتقاد ، لمجرد الحوار حول
القضية ، ورغم أن النتيجة كانت لصالح الفتاتين ، وصدقني أنه لو تحول
مليون فرنسي إلى الاسلام فلن يتزعج هنا أحد ، ولو حدث العكس فلن
يفرح أحد ، فنحن لا نطلب من المواطن سوى احترام القانون ،
أما اعتقاده فهو شيء يخصه ، وإذا كنا لا نجبره على موقف عام ، فنحن
نطلب منه المعاملة بالمثل الشاهد هنا أن الحديث طال ، واستمر صديقي في
اندفاعه ، وغضبه ، وشرده . بذهني بعيداً وأنا أتساءل عن علة عدم نقلنا
للحقائق كاملة ، ولماذا نهوى أن نضع أنفسنا في مواقع المضطهدين دون
سبب أو مبرر ، ولماذا نتصور أننا وحدنا أصحاب المنطق ، والحق ،
ولا نعطي لأنفسنا فرصة فهم الآخرين والتعرف على منطقهم ..

وسألت نفسي وأجبت بصورة عملية ، فقد أخرجت القلم من جيبي
وكتبت هذا المقال ..

قبل أن يجرفنا الطوفان

توقفنا قبل ثلاثة أسابيع عند نتائج نهاية الحرب العالمية (الثالثة) ،
وهى نتائج تكفى وحدها لتأكيد أن افتراضنا بشأن قيام هذه الحرب
صحيح ، فخرطة العالم لا تمكن إعادة تشكيلها إلا بعد حرب عالمية ،
وأن يتحول حلفاء الأمم إلى أطراف صراع فى المستقبل فهذه نتائج
حرب عالمية هى الأخرى ، وأن يحدث العكس أيضا فإن هذا يؤكد
ما ذهبنا إليه ..

أطراف تحالف الأمم ، وهى أمريكا وأوروبا الغربية واليابان ، هم
المرشحون للصراع الجديد ، الذى بدأت ملامحه فى السنوات الأخيرة ،
وأطراف عداة الأمم سوف يصبحون حلفاء ، فالاتحاد السوفيتى ،
أو روسيا البيضاء على الأقل ، وجميع دول أوروبا الشرقية ، سوف تصبح
جزءا من أوروبا الموحدة ، بعد زمن يقصر أو يطول ، جنبا إلى جنب مع
ألمانيا وإنجلترا وفرنسا ، أبرز رموز التحالف الغربى الأوروبى وأشدّها
عداء لهم فى الماضى القريب ..

ألا يذكرنا هذا بنهاية الحرب العالمية الثانية ، التى دخلها الاتحاد
السوفيتى وهو حليف للولايات المتحدة ، وخرج منها وهو أعدى أعدائها ،
ودخلتها اليابان وهى أعدى أعداء الولايات المتحدة ، وخرجت منها
حليفة ، شأنها شأن ألمانيا الغربية ..

هذا عن الصراع والتحالفات ، فماذا عن خريطة العالم ..

فليُنظر القارئ إلى خريطة اليوم ، وإلى توقعات خريطة الغد القريب ، لكى يدرك عمق التحولات ، فقد اختفت دولة المانيا الشرقية ، وانتهى تقسيم برلين ، واختفى سورها الشهير ، وبدأ من يرسمون خرائط العالم السياسية فى إهمال اللون الأحمر الذى لم يعد أحد منهم فى حاجة إليه ، فقد اختفت (الكتلة الشرقية) وانتهى حلف وارسو ، ثم بدأ الانقسام فى (القارة السوفيتية) ، وها هى ذى دول ثلاث هى استونيا ولاتفيا وليتوانيا تعلن استقلالها ، بعد أن عاشت أكثر من نصف قرن كولايات ضمن الاتحاد السوفيتى ، والمتأمل جيداً للأحداث يستطيع أن يتنبأ باستقلال دول أخرى آسيوية وأوروبية ، سوف تنفصل بالتأكيد عن هذا الاتحاد ، بل إن بعض المتشائمين ، يتصورون أنه لن يبقى منه سوى جمهورية روسيا وحدها ..

يوغوسلافيا أيضاً تغلى ، والأقليات فى ألبانيا ورومانيا تحشد جهودها ، والعالم كله ينتظر مخاض ميلاد عالم جديد ، حدوده جديدة ، وخريطته مختلفة ، وحيث دارت رحى الحرب ، فى أرض القارة الأوروبية ، سوف يتم وضع اللمسات الأخيرة لعالم الغد ..

وانتصرت الليبرالية ..

فالأمر الواضح والمؤكد حتى الآن أن الليبرالية بشقيها السياسى والاقتصادى قد أحرزت نصراً نهائياً ..

الحديث عن الديمقراطية (الاجتماعية) تلاشى ، والعبارات الطنانة عن ديمقراطية الغرب التى تحمى مصالح الرأسمالية المستغلة وتضرب مصالح الطبقات العاملة قد انتهت الآن ، وخجل أصحابها منها ، فزعيمة الدول التى رفعت هذه الشعارات ، وهتفت بهذه العبارات ، تعيش الآن مناخ الليبرالية السياسية حتى النخاع ..

لقد اكتشف السوفييت أن كلمة (لا) رائعة ، حين ينطقها المعارض دون أن يتحسس رقبته ، وأن هذه الكلمة هي المفتاح السرى لأبواب محاربة الفساد ، ومشكلة السوفييت ودول أوروبا الشرقية أن متاخ القمع لم يكن فقط متمثلاً في القيود المفروضة على حرية الرأي ، لكنه كان إطاراً متكاملًا ، يبدأ بالعلاقات غير الإنسانية داخل فترة التجنيد بالقوات المسلحة ، وينتهي بالتعامل غير الحضارى فى أقسام الشرطة ، ويمر على أجهزة الاستخبارات حيث الأهوال الجسام .

هذا الاطار المتكامل ، سوف يحتاج إلى وقت طويل ، حتى تتحول ممارسة الديوقراطية إلى واقع حقيقى وليس مجرد (صرعة) موضة ، ونعمة نشاز ، لا علاقة لها بالأنغام السائدة فى المجتمع ..

الغريب أن أحدا فى دول أوروبا الشرقية لم يتحدث عن التدرج ، أو الخطوات المحسوبة ، فجميعها انتقلت من أقصى الاستبداد إلى أقصى الديوقراطية دون مشكلات ، وكأنها كانت فى غفوة أفاقت بعدها على واقع ليس غريباً عليها ، والذي لا يصدق عليه أن يراقب ما يحدث الآن فى ألمانيا (التى كانت شرقية) ، وبولنده وتشيكوسلوفاكيا وغيرها ..

هذا عن الليبرالية السياسية ، ولا يختلف الأمر كثيراً إذا انتقلنا إلى الليبرالية الاقتصادية ، التى أحرزت انتصارا حاسما ، فالجميع يتحدث عن الاقتصاد الحر ، والحديث عن التخطيط الشامل الذى يتحكم فى العرض والطلب قد أصبح تاريخا ، وكاتب هذه السطور لا يصدق عينيه وهو يرى ما يحدث ، فمن يصدق أن ما كنا ندرسه أو نقوم بتدريسه فى الجامعات سوف يتغير تماماً ، سواء فى مقررات التنمية أو التخطيط أو النظريات الاقتصادية ، فلا معنى ولا فائدة من تدريس ما لم يعد له وجود ، وما أثبتت التجارب الحية أنه كان محض عبث أو انعطافة تاريخ عاد أخيراً إلى مساره الصحيح .. من يصدق ؟.

وهنا يبدأ الاختلاف ..

فقد بدأنا سلسلة هذه المقالات بعرض لتصورات الكاتب جان كريستون روفان ، في كتابه (الامبراطورية والبرابرة الجدد) ، وتوقفنا متأملين تصوراته عن صراع الشمال والجنوب ، وتخيله أن عالم الشمال قد أصبح شبيهاً بعالم الامبراطورية الرومانية القديمة حيث تسيطر دولة واحدة على مقدراته ، وهو يقصد بها الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو تصور متسرع ، لأن نتائج الحرب العالمية الثالثة لم تحسم بعد ، فنحن في فترة ترتيبات ما بعد الحرب ، وهى ترتيبات يمكن أن تتمخض عن توحيد عالم الشمال ، إذا وعى درس الحروب السابقة ، واتفق على أسس عالم المستقبل ، وتلافى الصراعات الاقتصادية المحتملة ، وهو احتمال ضعيف ، فأغلب الظن أن عالم الغد سوف يصبح مجالا لحرب اقتصادية طاحنة بين ثلاث قوى عاتية ، أولها الولايات المتحدة الأمريكية ومجالها الحيوى فى الأمريكتين ، وثانيها أوروبا الموحدة ، وألمانيا الموحدة هى المرشحة لزعامتها بغير منازع ، ومجالها الحيوى يشمل القارة الأوروبية كلها ، بغربها وشرقها ، وثالثها اليابان ومجالها الحيوى فى الشرق الأقصى والقارة الآسيوية ، وإذا لم تتوصل هذه القوى لحد أدنى من الاتفاق فسوف يشهد العالم حربا رابعة طاحنة ، سداها الاقتصاد ولحمتها الصراع على غزو الأسواق الثلاث ..

ويبقى دور البرابرة ..

وقد يفاجأ القارئ إذا ذكرنا له أننا نتفق مع الكاتب فى نظره لعالم الجنوب ، الذى سوف يتحول إلى عالم يعج بالبرابرة الجياع ، فلا مجال للدول أو الدويلات الصغيرة فى عالم الغد ، وما يحدث فى عالم الشمال

اليوم ، يكاد يلغى دور وأهمية دول عالم الجنوب ، فقد كانت أسواقا رائعة في الماضي ، ولن يكون لها هذا الدور في المستقبل ، فأوروبا الموحدة سوق هائلة ، وقارتا أمريكا سوق هائلة ، والشرق الأقصى سوق هائلة ، وتستطيع أوروبا وأمريكا أن تغلق أسوارها على مجالها الحيوى ، وأن تتعامل مع أسواق الجنوب بقدر كبير من التعالى والتأفف وفرض الشروط ، وهو موقف يختلف تمامًا عن موقفها في نصف القرن الأخير ، وربما ظلت اليابان وحدها أكثر التكتلات احتياجا لأسواق العالم المتخلف ، خاصة في القارة الآسيوية ، وقل نفس الشيء عن أهمية الجنوب كمصدر للقوى العاملة الرخيصة ، فهذه أيضًا إحدى المسلمات التى أخذت سبيلها للاندثار ، فالتقدم العلمى يغنى عن ذلك من ناحية ، والمجال الحيوى يسد العجز إن وجد من ناحية أخرى ، والمشكلة الحقيقية التى سوف تواجه أوروبا الموحدة ، هى كيفية التخلص من فلول النازحين من الجنوب ، الذين أصبحوا عبئا بعد أن كانوا مصدر ثروة في الزمن البعيد السعيد ، ولا تبقى إلا المواد الخام ، ولا أظن أن عالم الشمال سوف يحتاج منها إلى شيء سوى البترول ، هذا إن لم ينجح في العثور على بديل أرخص منه في المستقبل القريب ..

باختصار نقول أن مستقبل الجنوب لا يبشر بخير ، وأن أحد مظاهر الكارثة أن أحدا فيه لا يفكر في احتمالات الغد رغم أنها مفزعة ..
لا أحد يتصور ماذا سيكون عليه عالم الجنوب في المستقبل ، رغم أن التنبؤ بما سيحدث سهل سوف يستجدى الجنوب من الشمال القروض ..
وسوف يستجدى منه الطعام ..
وسوف يستجدى منه حق المعرفة للمخترعات الجديدة ..
وسوف يستجدى منه الخبرة الفنية ..

وسوف يستجدي منه السلاح لكي يحارب به جيرانه الجنوبيين ..
هذا ظاهر الصورة ، وجوهرها أسوأ للأسف الشديد ، فالعلاقات بين
دول الجنوب وبعضها ، والصراعات المحتملة بينها تبشر بمزيد من التخلف
والتعزق وضياع الموارد ..
هل يريد القارئ مثلاً ..

ليس هناك مثال أوضح بالنسبة لنا من بلدان العالم العربي ، التي
يفترض فيها أنها أقرب البلدان إلى التكامل والتوحد ، والتي تتغنى بهذه
الوحدة ليلاً ونهاراً ، وتربطها وشائج التاريخ واللغة والمصالح ، ومع ذلك
فالحقائق تقول أن جميع الدول العربية بلا استثناء لها مشاكلها الحدودية مع
جيرانها من الدول العربية الشقيقة ، وأنه خلال ربع القرن الأخير ، وهو
أكثر ربع قرن في التاريخ الحديث تغنى فيه العرب بالوحدة حدثت نزاعات
(مسلحة) عديدة ، أطرافها عربية ، منها نزاع مسلح بين المغرب
والجزائر وآخر بين مصر وليبيا وثالث بين ليبيا وتشاد ورابع بين البحرين
وقطر وخامس بين مصر واليمن وسادس هو أكثرها إثارة ، وتمثل في
(غزو) العراق للكويت ، هذا إذا استبعدنا مأساة أيلول الأسود وحوار
الأطراف العربية على الأرض اللبنانية ، بالرصاص ، والحروب الأهلية
الدائرة في لبنان ، وجنوب السودان ، والمغرب ، وأن حجم الخسائر بسبب
هذه النزاعات العسكرية ، خاصة نزاع العراق والكويت كان كفيلاً بسداد
الديون المستحقة على كل الدول العربية المدينة ، وأن حجم الانفاق
العسكري لهذه الدول خلال ربع القرن الأخير يتجاوز حجم الديون
المستحقة على الدول العربية المدينة بكثير ..

وأنه في الوقت الذي تحقق فيه بعض هذه الدول أعلى معدلات الدخول
في العالم ، تعاني دول أخرى مثل السودان والصومال وتشاد من المجاعات
أو هي على أبوابها بالفعل ..

هل هناك واقع أسوأ من هذا الواقع ..
الذى يجد ما هو أسوأ يدلنى ، ولدى مكافأة له ، والمشكلة أن هذا كله يحدث ونحن على البر ، ولم تغرق بعد فى لجة الفتن القومية والطائفية والدينية المحتملة ، وهى فتن يعتقد كاتب هذه السطور أنها آتية لا ريب فيها ، وهذا أيضاً إذا تجاهلنا (الصراع حول موارد المياه) وهو صراع لا بد وأن تهب أعاصيره فى المستقبل القريب ..

مرة أخرى .. هل هناك توقعات أسوأ من هذه التوقعات ؟ وإذا كان هذا واقع حال أكثر الدول ارتباطاً ببعضها ، من خلال المصالح والتاريخ والوجدان والأغاني الوطنية التى تهز الحجر ، وتزلزل الجبال ، فماذا يكون عليه واقع الدول الأخرى فى كل أرجاء العالم الجنوبي التعيس ..
هذا هو السؤال الذى يعرف الجميع إجابته للأسف الشديد ، فعدا استثناءات محدودة تتمثل فى استراليا ونيوزيلنده وسنغافورة وكوريا الجنوبية ، وجنوب أفريقيا وإسرائيل ودول الخليج ، يبدو الجميع وكأنهم مقبلون على كارثة ، إذا لم يتدارك البعض منهم الموقف ، ويبدأ التفكير منذ الآن فى أسلوب الخروج من مأزق التخلف والديون والأزمات الاقتصادية الطاحنة ، وربما كانت مصر أجدر هذه الدول بالتفكير العميق ، لأنها تملك إمكانية هائلة للخروج من مأزقها الصعب ، فهى فى النهاية دولة (دور) أكثر منها دولة إمكانيات ، ودورها كان دائماً أكبر من حجمها المادى بكثير ، ثقافياً وسياسياً وحضارياً ، وعندما تلعب مصر دورها الصحيح ، يتغير شكل المنطقة كلها ..

هل يريد القارئ مثالا على ما ذكرنا عن مصر ؟
إذن فعليه أن يراجع تاريخ الدولة المصرية الحديثة ، فى عهد محمد على ، وفى عهد إسماعيل ، حتى يدرك مدى الحجم والتأثير ، وحتى يدرك ما هو أهم ، وهو مدى التناقض بين محدودية الموارد ، ولا محدودية الدور

المضارى والتاريخى الذى يمكن أن تلعبه مصر ، أهم دولة فى العالم كما قال نابليون بحق ..

ولهذا نشعر بالمرارة ..

فمصر قد استدرجت إلى صراع داخلى محزن ، يراهن فيه البعض على العودة للخلف بضع مئات من السنين بدلاً من التقدم للأمام بخطوات محسوبة ، والكتاب السياسيون فى مصر منشغلون بالقضايا الجزئية والمحلية أكثر بكثير من انشغالهم بالقضايا الكلية والعالمية ، وما يحدث فى عالم اليوم وهو هائل لم يدفع أحدا من الكتاب لوضع تصوره للمستقبل ، ولم يدفع المحللين السياسيين لرسم سيناريوهات لعالم الغد القريب ، وحتى السيناريوهات المطروحة فى الساحة ، والتي تصورها الآخرون لمستقبل المنطقة ، وهى متعددة ، لا يقدم عليها أحد بالحوار ، والتحليل ، والقبول أو الرفض وتقديم البديل إن كان هناك بديل ..

نحن فيما يبدو فى انتظار ما يصنعه بنا الغد وهذه كارثة ، ولا بديل عن وضع تصور لما سوف نصنعه نحن بهذا الغد ، أقول قولى هذا وأنا أعلم أن الإقدام على ذلك مغامرة ، فمشكلتنا الحقيقية كامنة فى منهجنا فى التعامل مع الأشياء ، فقد تعودنا دائماً على أسلوب رد الفعل وليس الفعل ذاته ، وقد تعودنا أيضاً على خداع النفس ، وعلى الوقوع دائماً فى أسر تجارب الماضى القريب ، وكأن العالم ثابت لا يتغير ، وكأننا لا ندرك أن كل يوم جديد يطرح واقعا جديدا ، يحتاج إلى سلوك جديد مختلف ..

نحن نتحدث عن السلام مع إسرائيل ولا ندرك نتائجه ، رغم أنها واضحة تماما أمام أى محلل سياسى من الدرجة العاشرة ، ونحن أيضاً نتحدث عن الوحدة من خلال معطيات التاريخ ، وتنسى أن معطيات

الجغرافيا هي العامل الحاسم ، ونحن وهذا هو الأخطر ، نتصور أننا سوف نفرض رؤيتنا ، رغم أن الواقع هو الذى يفرض نفسه ، ورؤيته ، ومعطيته التى لم تتعامل معها يوماً تعاملًا موضوعيًا ..

من هنا يأتى الشعور بالمرارة ، فلا مجال فى عالم الغد لأحلام طائر الرخ وخيالات شهر زاد ، ومغامرات الشاطر حسن ، فهو عالم يحتاج إلى عقلية المحاسبين ، وليس إلى خيالات الشعراء ، وهو عالم مظلم بقدر عشقنا للجناس والطباق والكناية ، ومضىء بقدر عشقنا للأرقام والحسابات والحقائق ..

فليكن إذن نقدنا للذات ، هو المدخل لإجابة أكثر الأسئلة إثارة ، وأبعثها للضييق والغضب ، حين نكتشف حجم الهوة التى تفصل بين منهجنا ومنهج الآخرين ..

السؤال المثير هو ، كيف يمكن أن تخرج مصر من مأزق المستقبل ، وإذا كنا لا ندعى أننا نملك إجابة كاملة له ، فليس أقل من فتح الباب للحوار ، وطرح تصورات الآخرين ، أقول ليس أقل ، لأننا بالتأكيد فى حاجة لما هو أكثر ..

موعدنا مع السؤال المثير ، والإجابة الأكثر إثارة فى الأسبوع القادم ..

حديث عن آفاق المستقبل

هذا حديث ترددت في كتابته ، كما ترددت في قوله ، عندما سألتني الكاتب الكبير نجيب محفوظ ، في ندوته بـكازينو قصر النيل ، سؤالاً محدداً هو ، ما هو تصورك للمستقبل وكيف يمكن لمصر أن تخرج من عنق الزجاجة إلى أفق المشاركة في مسيرة الحضارة في المستقبل ..

وحاولت الاعتذار ..

فنحن بطبيعتنا نميل إلى الحديث في الجزئيات ، ونتحاشى النظرة الكلية ، ونتطاحن ونحن نتحدث هموم اليوم ، ونستبعد الحديث عن المستقبل ، ربما لكونه مسئولية الأجيال القادمة ، وربما لإيماننا بعنصر (المصادفة) أو (المفاجأة) ، فمن يدرى ماذا يحدث غدا ، وهل كانت أزمة الخليج بأحداثها ونتائجها في حسابان أحد قبل أن تحدث ؟ والأخطر من ذلك أننا نتحدث عن (المتغيرات) بافتراض أننا (ثوابت) ، مع أن البدهى والمنطقى ، كما علمونا في الاقتصاد ، أن التخطيط للمدى الطويل ، يفترض استحالة وجود الثوابت ، وقديما قالوا ، وهو قول شديد ، أنه في السياسة ، لا توجد عداوات دائمة ، ولا صداقات دائمة ، ولكن توجد مصالح (دائماً) ..

وندخل في الموضوع ..

ونتفق على أساسين ، لا خلاف عليهما اجمالاً ، لكن الخلاف الشديد

سوف يكون في التفاصيل ، وهى الديمقراطية والتنمية ، وهما سبيلان يرقيان إلى مستوى الشعارات ، فالكل يتحدث عن الديمقراطية ، والكل يسعى إلى التنمية ، والمشكلة أننا نتحدث ونسعى في إطار اللحظة ، وفي ضوء الواقع ، وفي حدود المشكلات الراهنة ..

ونبدأ بالديمقراطية ..

ولا نخوض في تعريفها ، ولا نتوقف عند التسمية ، ونحدد ما نقصده بإطار عام يسمح للجميع بحرية التعبير ، وإمكانية التغيير ..

مشكلة الديمقراطية تتجاوز حدود مصر إلى المنطقة بأكملها ، فالأوضاع الراهنة تبدو كأنها تسلم زمام كثير من بلدان المنطقة إلى دائرة مفرغة ومفرغة ، تبدأ بالانقلابات العسكرية التى تفشل فى حل المشكلات ، وتنجح فى تفريغ المجتمع من القيادات المدنية المؤمنة بالشرعية ، وتنجح أيضا وهذا هو الأهم ، فى ترسيخ مفاهيم إهدار الشرعية الدستورية تحت شعارات فضفاضة من نوع (الشرعية الثورية) ، و (الحرية للشعب ولا حرية لأعداء الشعب) ، وعادة يكتشف الجميع أن المقصود بالشعب هو دائرة الحكم ، وربما ضاقت الدائرة فلم تتسع الا للحاكم الفرد ..

هذا النمط من الحكم هو السبب فى غو وتعاظم التيارات السياسية الدينية ، صاحبة التراث العريق فى العمل السرى ، وفى التنامى تحت إطار اللا شرعية ، منذ أواخر عهد الأمويين وحتى الآن ، وهنا تبدأ الدائرة المفرغة فى دورتها المفرغة ، وفى غياب المعارضة المدنية ، سوف يؤدى الحكم العسكرى الى السلطة الدينية ، ولن ينتزع السلطة الدينية من مواقعها إلا الانقلاب العسكرى ، الذى يسلم الأمور بدوره ، بعد زمن يطول أو يقصر إلى سلة دينية جديدة وهكذا ، وأحيانا يختصر البعض

الطريق فيضعون العمامة فوق الزي العسكري ، كما حدث ويحدث في السودان ..

الخروج من هذه الدائرة المفرغة ضرورة ..
والتواصل مع الشرعية الدستورية مسألة حياة أو موت ..
والشرعية الدستورية لا تتسع لهذا أو لذاك فكلاهما خطر عليها ،
ومدمر لها ، والذي يفضل أحد البديلين على الآخر يستجير من الرمضاء بالنار ..

السؤال الذي يطرحه القارئ ، لا بد أن يكون عن العلاقة بين هذه الدائرة المفرغة ونظم حكم كثيرة ، تنبته لخطر غياب الديمقراطية ، فأتاحت قدرا واسعا من حرية التعبير عن الرأي ..
والإجابة أن جناحي الديمقراطية هما حرية التعبير وإمكانية التغيير ، وإطلاق الأولى هو مدخل الثانية ، والديمقراطية ليست منحة ، وليست سماحا بقدر ما هي مناخ ، وأغلب بلادنا تدور في دائرة السماح ، ولا بد أن تكون منصفين ، فالتطور الديمقراطي في أغلب بلادنا أتى بقرارات فوقية ، والمناخ الديمقراطي لا يحدث بين يوم وليلة ، وإذا كنا نتحدث عن المستقبل حقا فلتكن نقطة البدء باستمرار السعي الى هذا الهدف ..

والشيء بالشيء يذكر ..

فالكثيرون منا يركزون في نظرتهم للديمقراطية على حق الأغلبية، في الوصول إلى الحكم ، ويغضون أعينهم أو ينظرون بنصف عين إلى حقوق الأقليات التي أتصور أنها المحك الحقيقي للتجربة الديمقراطية ، والأقليات في عالمنا العربي واحدة من ثلاث ، إما أقليات سياسية ، وإما أقليات قومية ، وإما أقليات دينية ، وهنا تظهر النظرة بنصف عين بصورة أوضح ، حيث يقصر البعض نظرتهم لحقوق الأقليات على الأقليات السياسية ،

وهو قصور في النظرة ينذر بأوخم العواقب ، ويشوه وجه المستقبل ، ويؤثر على التجربة كلها بالسلب ، ويحيل فهم الديمقراطية إلى نوع من العبث .. والأخطر بالتأكيد ، وإذا كنا تحدثنا عن تجربة العالم العربي كله ونحن نتناول مفهوم الديمقراطية ، فإن الحديث هنا ، وهو عن (التنمية) ، يركز على مصر ، وهو الحديث الذي أشرت إليه في البداية ، حين تحدثت عن التردد في الخوض في إجابة السؤال ، وسوف يكتشف القارئ أن ترددي كانت له أسبابه المنطقية ، فالصراحة تفرع وتجريد الحقائق يشعل الغضب ، واكتشاف التناقض بين ثبات المواقف والحديث عن المتغيرات ، لا بد أن يقود إلى قدر - قل أو أكثر - من عدم الارتياح ..

ونبدأ فنقول ..

إن التنمية داخل الحدود القطرية تمثل أكثر خطأ يقع فيه من يرسم استراتيجيات المستقبل البعيد .. يصدق هذا على مصر أكثر مما يصدق على أي قطر آخر ..

أتذكر هنا تعبير الدكتور جمال حمدان العظيم (عبقرية المكان) ، وهو تعبير رائع ، لأن عبقرية المكان هي أعظم معطيات مصر ، والموقع العبقرى ليس مصطلحا يطلق في الفراغ ، لكنه مصطلح نسبي يرتبط بمواقع الآخرين ، ويتفاعل معها ، والتجارب الحديثة في التنمية المصرية ، تتمثل في تجربتين مذهلتين ، إحداها في عهد محمد علي ، والثانية في عهد الخديو اسماعيل ، وفي كلتا التجربتين ، اتسعت حدود التكامل خارج نطاق الوادي الضيق ، وانعكس هذا على التنمية والتقدم والانطلاق الحضارى داخل الوادي ..

الشيء المشترك في التجربتين ، هو الاستناد إلى بعد (الجغرافيا) وليس إلى بعد (التاريخ) ، فلم ترتفع في أي منها رايات الوحدة العربية

أو الوحدة الإسلامية أو الوحدة الأفريقية ، بل استند الانطلاق إلى مفهوم المجال الحيوى ، شمالا فى اتجاه عمق الخلافة العثمانية فى عهد محمد على ، الذى وصل بجيشه إلى حدود اليونان ، وجنوبا فى اتجاه منابع النيل فى عهد الخديو اسماعيل ، الذى وصل إلى أوغندة ومصوع وزيلع وهرر ..

وحاولها عبد الناصر ..

بمعطيات عصره ، الذى لا يسمح بالتوسع عن طريق القوة العسكرية ، ولست أشك فى أن عبد الناصر قد أدرك الدرس ، وهو استحالة التقدم والتنمية فى إطار الوادى الضيق ، ولست أشك فى ذكاء مستشاريه ، الذين قدموا إليه فكرة الدوائر الثلاث ، العربية والإسلامية والأفريقية ، ولست أشك أيضا فى سلامة اختيار الدائرة الأولى لأنها الأقرب للتحقيق ، والأكثر اتساقا مع مرحلة العداء لاسرائيل .. المشكلة هنا تمثلت فى العلاقة بين التاريخ والجغرافيا ..

فالوحدة العربية التى بدأها عبد الناصر مع سوريا ، ثم مع سوريا واليمن ، ثم مع سوريا والعراق ، كانت وحدة استندت الى معطيات التاريخ ..

لقد تسلم عبد الناصر الحكم ، وفى يديه وحدة جغرافية حقيقية ، هى وحدة وادى النيل ، ولو بذل فى اتجاهها عشر جهده الذى بذله فى سبيل الوحدة (التاريخية) مع سوريا وغيرها لكان هذا أجدى بكثير .. أكتب هذا وأنا أعلم أن متغيرات الواقع أقوى فى كثير من الأحيان من مبررات الطموح ، فقد كانت هناك آمال اتفاقية الجلاء ، ومشكلة محمد نجيب ، ومشاكل صلاح سالم ، وحساسيات حزب الأمة ، وقلة خبرة قادة الثورة ، وغيرها من الظروف التى أثرت وغيرت ، ولا مجال للحديث عنها ، لأنه لا جدوى من البكاء على اللبن المسكوب ..

ما أذكره هنا أن عبد الناصر كان مدركا للحقيقة التي أتناولها اليوم ، وأنه حاول ولم ينجح ، وقد فشلت التجربة ، لكن القاعدة ظلت صحيحة ، وهي صحيحة منذ أيام الفراعنة وحتى الآن .. الحديث عن تنمية مستقلة داخل حدود مصر ، حديث عن آمال محدودة بقدر محدودية موارد هذا الوادي ، ويقدر اهمال صاحب هذا الحديث ، لأعظم ما وهبه الله لمصر ، وهو عبقرية المكان ..

وننتقل إلى المفيد ..

والمثير أيضا ، فالحديث في كل مكان عن السلام بين العرب واسرائيل ، والحوار بين الطرفين أو الصراع بينهما ، يدور حول السلام العادل من وجهة نظر كل منها ، فالعدل من وجهة نظر العرب هو مبادلة الأرض بالسلام ، والعدل من وجهة نظر اسرائيل هو الحصول على بعض الأرض بالاضافة إلى السلام ..

هذا هو ظاهر الحوار ، والمشاركون فيه لا يطرحون على أنفسهم سؤالا واضحا ومحددا عن طبيعة هذا السلام ، ولا عن الصورة التي سيتحقق بها ..

ليست القضية أن يقبل (بفتح الياء) البعض بالسلام أو لا يقبل ، أو أن يقبل (بضم الياء) على السلام أو لا يقبل ، فهذا اختيار مطروح على الجميع ، ولهم أن يختاروا بإرادتهم الكاملة ، فإذا أقبلوا فأهلا بها ونعمت ، وإذا لم يقبلوا فيأدار ما دخلك شر ، لكن الأهم ، لمن يقبل أو يقبل (بفتح الياء وضمها) أن يفهم طبيعة هذا السلام قبل أن يقبل عليه أو يقبل به .. السلام الذي سيكون ، إن كان حقا سيكون ، ليس له إلا أسلوب واحد ، وهو أن تصبح اسرائيل جزءا من نسيج المنطقة ، ودولة من دولها ، وعنصرا من عناصر تكاملها ..

هكذا ببساطة ، وبوضوح ، ونحن مازلنا على البر ، ومن يقبل فهو حر ، ومن لا يقبل فهو حر أيضا ..

السلام الذى سيتحقق - إن تحقق - ليس معناه أن يتم تبادل السلام باليد ، أو أن نقول لهم (سلام عليكم) فيقولون لنا (وعليكم السلام) ..

السلام معناه استعداد الدول العربية (المعنية) واسرائيل للتعاون والتكامل والتبادل ..

الذى لا يفهم ذلك يغالط ..

والذى لا يعلن ذلك يكذب ..

والذى لا يتصور ذلك يخدع نفسه ..

والذى لا يقبل ذلك عليه أن ينسحب من العملية كلها ، ويتراجع قبل بدء الطريق ..

الاسرائيليون ليسوا سذجا ، وعلينا ألا نكون حالمين ..

هذا ما أشرت إليه في بداية الحديث ، عندما أشرت إلى حديثنا عن المتغيرات ، ونحن (ثوابت) ، بمعنى أننا نتصور عالما متغيرا في المستقبل ، يتغير فيه كل شيء ، إلا مواقفنا الثابتة ، والتي نطلق عليها ، لتبرير ثباتها اسم (المواقف المبدئية) ..

ما ذكرته الآن ليس اجتهدا شخصيا ، ولا رأيا خاصا ، ولكنه ببساطة واقع ما سيحدث ، وحقيقة ما يمكن أن يتم ، ونحن نكره الواقع ، ونهرب من الحقائق ، ونفضل الأحلام أحيانا ، ونتصور أننا سنضحك على الآخرين أحيانا أخرى ، ولو عشنا على أرض الواقع ، أو تعاملنا مع الحقائق خلال نصف القرن الأخير لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه .. المشكلة يا عزيزى القارئ أننا لن نضحك على أحد ، ولن يضحك أحد علينا ، فالخيارات واضحة ، ونستطيع أن نختار السلام أو أن نختار

الحرب ، فإذا اخترنا السلام فلا بد أن نتعرف على الاختيار الذى نسعى إليه ، أليس هذا منطقيا ؟ ..

أليس هذا أفضل من أن نفاجأ بهذا على مائدة المفاوضات ؟ .. أقول نفاجأ ، وأقصد الرأى العام ، ولا أقصد خبراء السياسة أو القادة ، لأن الاوراق كلها مكشوفة على المائدة ، ولا سر فى الأمر ، فقط هى طبيعتنا التى تفصل أسلوب الزغزغة ، والدغدغة ، وتديك أصابع الأقدام ، ثم الهمس فى الأذن بالتقسيط المريح ..

وهم قد استعدوا لذلك ..

فليس سرا أن لدى الاسرائيليين دراسة معلنة ومنشورة منذ عام ١٩٧٧ ، عن تشكيل تكتل اقتصادى وسياسى وعسكرى يشمل مصر واسرائيل ولبنان وسوريا والعراق ، وقد بنوا تصوراتهم على أساس تمتع هذه الدول بديمقراطية كاملة ، وعلى أساس حرية انتقال رؤوس الأموال والافراد وحق العمل داخل هذه الكتلة ، وعلى أساس تخصص دول المنطقة (مصر فى الصناعات الثقيلة وسوريا فى المنسوجات واسرائيل فى الالكترونيات والعراق فى البتروكيماويات ولبنان فى السياحة .. الخ) ..

هذا ما لديهم ..

فماذا لدينا ؟ ..

هل هو الرفض ؟ ..

حسنا ..

ما هو البديل ؟ ..

هل هو الوحدة العربية ؟ ..

مع من ، وضد من ، بعد السلام ؟ ..

هل هو التكامل العربى ؟ ..

كيف ، ومع من ، وبأى أسلوب ؟ ..
هل هو رفض السلام من البداية؟ ..
حسنا ، وماذا بعد ؟

من سيحارب ومن الذى لن يحارب ؟ ..
ومن سيدفع فاتورة الحرب ؟ ..

وكيف ستحدث التنمية فى ظل اقتصاديات الحرب ؟
أليس من حقنا الآن أن نتزعج ، ونحن نكتشف أننا لا نفكر
للمستقبل ، ولا نخطط له ، ولا نرى ما هو أبعد من مواقع أقدامنا ، بينما
يفعل الآخرون العكس ، فيفكرون للغد ، ويخططون له ، ويسعون إليه ..

وأكاد ألمح الغضب ..

وهو ما يغضبني حقاً ، فأنا لا أدعو لشيء أكثر من التفكير ، ووضع
السيناريوهات ، والاستعداد لما هو آت .. فهل هذا كثير ، وهل يدعو هذا
إلى الغضب بأية صورة ..

الذى يغضبك هو الذى يضحك عليك ، وينومك مغناطيسياً ، ويصور
لك الأمور على غير طبيعتها ، ويخدر مشاعرك حتى تفاجأ بالحقيقة يوماً
فيحدث لك ما حدث مسلسل الصراع العربى الاسرائيلى ، الذى امتلأ
بالمفاجآت الدرامية ، وهى مفاجآت يسهل عليك أن تعرف سببها الآن ،
إذا اكتشفت أنك تغضب لمجرد أن شخصاً يدعوك للتعامل مع الواقع ،
والتفكير فى المستقبل ، والحساب أسلوب واحد زائد واحد يساوى اثنين
وليس عشرة آلاف ..

مطلوب قبل أن نجيب عن سؤال السلام ، أن نفهم طبيعته ، فهل هذا
كثير ؟ ثم نقبل أو نرفض ، فهل هذا خطأ ؟ ، ثم نعلم أن هناك

أطروحات في الساحة يجب أن يكون لنا موقف منها أو تصور لها أو
أطروحات مقابلة أو تصورات مختلفة ، فهل هذا يدعو الى الضيق ؟ ..

ولماذا طرحت التصور الاسرائيلي ؟..

لأن هاجسا في داخلي يؤكد لي أن المنطقة كلها تسعى إليه ، وأغلبها
يفعل ذلك بغير وعي ، بصرف النظر عن تقييم التصور الاسرائيلي
موضوعيا ، وهل يخدم مصالح دول المنطقة أم لا ..

فلنتأمل ما حدث ويحدث في العراق ، وفي لبنان حتى ندرك أن التصور
يقترّب ، وأتينا لا بد وأن يكون لنا تصورنا الخاص ، الذي يختلف أو يتفق .
لا بد أن يكون لنا السيناريو الخاص للرؤية المستقبلية لمصر ، والذي
يرتكز على أساس الديمقراطية الصحيحة ، وعلى أساس وضع تصور
استراتيجي للتنمية المتكاملة داخل الوادي وخارجه ..

انتهى عصر الجيوش الزاحفة عن طريق الغزو بالقوة أيام محمد علي
واسماعيل ، وبدأ عصر العقول الزاحفة عن طريق الاتفاق لتحقيق
المصالح على موائد المفاوضات ..

فلينته إذن عصر انتظار الغد ، واليد على الخد ، والتغنى مع أم كلثوم ،
وأقول يا عين اسعفيني ، اسعفيني يا عين ، وليبدأ عصر الفهم للحاضر
والطرح الواضح للمستقبل ، والاستعداد للغد ، قبل أن يدهمنا ما لم نستعد
له .. ألم أقل لكم إن حديثي مزعج ..

قراءة في أوراق مؤتمر السلام

أكتب هذا المقال ، بعد أن تحدد موعد انعقاد المؤتمر في نهاية شهر أكتوبر ومكانه في مدريد ، وبعد أن وافق الجميع على تشكيل وفد أردني فلسطيني مشترك ، وسوف ينشر المقال بعد انعقاد المؤتمر بالفعل ، ومن حسن حظ كاتب هذه السطور ، أنه لا يحتل موقعا رسميا ، ولا يستمد معلوماته من مصادر رسمية ، ولا يعبر إلا عن رأيه الشخصي ، وتحليله السياسي الخاص ، استنادا الى حقائق الموقف السياسي المعلومة للكافة ، والبيانات والتصريحات المنشورة والمتاحة للجميع .

ليسمح لنا القارئ بالاختلاف ..

فالشائع لدى الجميع ، أن القضايا (اللغمية) إن جاز التعبير ، تتمثل في قضايا هضبة الجولان ، ومدينة القدس ، وهو تصور نختلف معه ، لكن ليس قبل أن نوضح أن اختيارنا لتعبير (القضايا اللغمية) هو اختيار دقيق ، لأن القصد منه أنها قضايا يتصور البعض أنها تنفجر في وجه من يقدم عليها بالحل ، أو حتى بمحاولته .

قضية هضبة الجولان تمثل حدا أدنى للاتفاق بالنسبة للجانب السوري ، بل لعل الاتفاق على الحد الأدنى الذي يقبل به السوريون ، هو أحد الشروط الأساسية لاشتراكهم في المؤتمر ، بصرف النظر عن التصريحات (الاعلامية) التي تتحدث عن رفض الشروط المسبقة وعن أن كل شيء

قابل للتفاوض ، إلى آخر هذه التصريحات التي يجيد الطرف الاسرائيلي إعلانها ، وتوظيفها ، والمزايدة عليها ..

الجميع يعرفون أن الطرف السوري لا يقبل بأقل من عودة هضبة الجولان إلى السيادة السورية ، وأن الرئيس الأسد لا يمكنه أن يقدم ما هو أقل من ذلك إلى شعبه ، والجميع يعرفون أيضا أن اسرائيل لا تقبل بأي تهديد لأمنها يأتي من هذه الهضبة ، التي تمثل موقعا عسكريا متميزا يهدد أمن حدودها الشمالية ..

والهضبة نفسها ، لا تمثل إغراء لاسرائيل ، اقتصاديا أو جغرافيا أو سكانيا ، بقدر ما تمثل تهديدا لها ..

والحل المنطقي ، بل لعله الحل الوحيد الممكن ، يتمثل في عودة الهضبة إلى السيادة السورية ، مع نزع السلاح الشامل لها ، وربما تم بحث ترتيبات تحديد حجم القوة العسكرية السورية في المناطق الشمالية المتاخمة للجولان ، على النحو الذي تم بالنسبة للمناطق المسماة أ ، ب ، ج ، في شبه جزيرة سيناء في معاهدة كامب ديفيد .

الحل السابق هو الحل التوفيقى ، الذى يتنازل فيه كل طرف عن شيء ، ويكسب شيئا آخر ، وهو حل يرضى - فى تقدير كاتب هذه السطور - كل الأطراف ، فالسوريون سوف يحتفلون بعودة هضبة الجولان إلى السيادة السورية ، ورفع العلم السوري عليها بعد ربع قرن من الاحتلال الاستيطاني ، وهو انتصار لهم لاشك فيه ، يبرر اشتراكهم فى مؤتمر السلام ، والاسرائيليون سوف يستريحون إلى انتهاء التهديد الأمنى الآتى من الشمال إلى الابد ، ليس بقوة (السلاح) ، بل بقوة (السلام) وهو انتصار لاشك فيه ، خاصة أن عقد اتفاق سلام مع سوريا سوف ينهى إلى الأبد احتمالات الصراع المسلح فى المنطقة ، أما التنازلات التى سوف يقدمها الطرفان فى المؤتمر ، فهى أكثر وضوحا ، فاسرائيل

سوف تتنازل عن احتلالها للجولان ، وسوريا سوف تتنازل عن تسليحها ، وهى تنازلات ممكنة ، فى ضوء التجربة السابقة للسلام بين مصر واسرائيل .

لعل القارئ الآن يبدو مستريحا إلى اتفاق يؤكد له ما هو راسخ فى ذهنه ، من أن السياسة هى فن التعامل مع الواقع وليس الحلم ، ومع الممكن وليس المستحيل ، لكن الأمر لن يتم بهذه البساطة ، فهناك فرق بين ما يمكن أن ينتهى اليه المؤتمر ، وما يمكن أن يحدث خلال المفاوضات ، فالطرف الاسرائيلى واضح تماما من المؤتمر ، فهو يريد أن ينتهى بسلام حقيقى كامل ، تصبح اسرائيل بعده دولة من دول المنطقة ، لها ما لها ، وعليها ما عليها ، ويستحيل عليه أن يقبل بالخروج من المؤتمر ، كما دخله ، دولة بلا جذور ، ولا علاقات ، ولا قبول ، ولا تعامل مع الجيران ، ولا تفاعل معهم ولا طمأنينة حقيقية لسكانها على المدى البعيد . الاوراق التى لديه هى التعنت والمواقف المتشددة ، والعروض المستفزة ، خاصة أنه يضع يده على الأرض بالفعل .

والأوراق التى فى يد الطرف السورى هى ترتيبات ما بعد السلام ، وهى أوراق يضع الطرف الاسرائيلى عينه عليها ، وهو مستعد أن يتعامل معها بمنطق المبادلة ..

باختصار وبوضوح نقول أن اسرائيل لا تسعى إلى هدنة أو ترتيبات حدودية ، لكنها تسعى مع سوريا إلى سلام دائم ، وفى المقابل فإن سوريا تسعى إلى انتصار سياسى ، يتمثل فى استرداد الأرض ، وإن الاتفاق ممكن لأنه معلوم الملامح ، محدد النهايات ، لكن الخلاف سوف يكون على التفاصيل ، ولهذا فسوف يستغرق وقتا ، وربما كان الخلاف العنيف فى بداية المؤتمر ، وخلال جلساته ، مطلوبيا ومرغوبا كتكتيك دبلوماسى ، يمرر لكل من الطرفين إعلان انتصاره السياسى فى نهاية المطاف .

القدس لغم آخر ..

لكنه لغم يمكن التوصل إلى ابطال مفعوله إذا تعرفنا على الحد الأدنى المقبول للاتفاق بين الطرفين .

أهداف الجانب العربي تتمثل في عودة الجانب العربي من مدينة القدس للسيادة العربية ، خاصة أنها مدينة مقدسة بالنسبة للمسلمين والمسيحيين العرب ، ويكفى أن فيها المسجد الأقصى وكنيسة بيت لحم وكنيسة القيامة ، وفي المقابل فإن اسرائيل تتمسك بثلاثة شروط أساسية ، أولها أن القدس هي عاصمة اسرائيل ، وثانيها أن القدس مدينة موحدة لا تقبل التقسيم ، وثالثها حق اليهود في زيارة أماكنهم المقدسة التي تتمثل في حائط المبكى وموقع هيكل سليمان القديم .

هذه هي الصورة التي تبدو كئيبة في ظاهرها ، وإن كان كاتب هذه السطور يرى أن إمكانية التوصل إلى حل فيها واردة ، فالتوفيق ممكن بين وجهتي النظر ، ومن الممكن أن تظل القدس موحدة ، وأن تخضع إداريا لمجلسين إداريين محليين ، أحدهما اسرائيلي في القدس الخاضعة للاحتلال منذ عام ١٩٤٨ والآخر عربي في القدس المحتلة بعد عام ١٩٦٧ ، مع ترتيبات شاملة لحرية العبادة والانتقال ، أما انتقال الحكومة والكنيسة إلى الجانب الاسرائيلي في القدس ، فلن يكون في اعتقاد كاتب هذه السطور نقطة خلاف حقيقية .

المكاسب هنا للطرفين واضحة ، والتنازلات أيضا واضحة ، وملامح الاتفاق واضحة ، لكن هذا لن يمنع الخلافات ، والمزايدات ، والمنازعات السياسية واللفظية ، وكل هذا في تقديرنا مطلوب ومرغوب ومحسوب ، خاصة أن عين الطرف الاسرائيلي سوف تظل مركزة على أهم ما يشغله في

هذا المؤتمر ، وهو ترتيبات ما بعد السلام ، مع كل دول المنطقة ، سواء مع أطراف الحوار الاساسية ، أو حتى المراقبين ، ولهذا يتفاءل كاتب هذه السطور بالنسبة لما سوف ينتهى إليه المؤتمر ، لكنه لا يتفاءل بالنسبة لأمرين ، أولهما ما سيحدث خلاله . وثانيهما عنصر الزمن ، الذى قد يطول إلى سنوات ، قد تمتد في تقدير كاتب هذه السطور إلى خمس سنوات ، إلا إذا حدث ما ليس في الحسبان ، وما أكثر ما يحدث في عالمنا العربى .

ولنتوقف قليلا أمام عنصر الزمن ..

فهو دائما في صالح اسرائيل ، خاصة أن يدها في الماء البارد . فهى تضع يدها بالفعل على مناطق النزاع ، وهى قادرة على توظيف الزمن لصالحها سياسيا وماديا ، وهو (أى الزمن) عنصر ضغط على الأعصاب العربية المشدودة ، والمرهقة بسبب ضغوط الاحتلال والنزاعات العربية والأزمات الاقتصادية الطاحنة .

خلال المؤتمر ، سيبدو عنصر الزمن لأول مرة محل قبول لبعض الأطراف العربية ، لأن الوجدان المحمل بالاشعار والمواقف الوطنية المتصلبة ، والمتخمة بقضية واحدة للصراع على مدى نصف قرن تقريبا ، فى حاجة إلى وقت لاستيعاب المتغيرات الجديدة ، وفى حاجة إلى صدمة بالمواقف الاسرائيلية المتشددة ، حتى يمكن الهبوط به برفق على أرض الواقع والممكن فى نهاية المطاف .

الحلول ممكنة إذن استراتيجيا ، والزمن مطلوب والخلافات واردة تكتيكيا ، لكننا تؤكد مرة أخرى على ما ذكرناه ، وربما فوجيء به القارئ ، وهو أن قضيتى الجولان والقدس ، على عكس ما هو شائع ، لن تكونا عقبتين لنسف المؤتمر ، ولعلهما - وهذا تقدير شخصى لكاتب هذه

السطور - أسهل القضايا حلا ، وأوضحها ملامح من حيث النتائج حتى قبل عقد المؤتمر ، ولا يمكن مقارنتها بالقضية الجوهرية الحاسمة ، التي سوف تكون محل نزاع حقيقى وخلاف جوهرى على مدى جلسات مؤتمر السلام ، وهى قضية مستقبل الضفة الغربية ، التي يمكن أن تنسف امكانية السلام فى مؤتمر السلام ، إلا إذا اجتهد الدبلوماسيون للوصول إلى حل توفيقى يكون محل قبول من كافة الأطراف .

ولنا فى هذا رأى ..

نذكره رغم أنه قد يعرضنا للنقد العنيف ، لكن المصارحة بالحقيقة تستحق قدرا من الشجاعة فى عرضها .. الطرف الفلسطينى يسعى إلى قيام دولة فلسطينية مستقلة وكاملة السيادة فى الضفة الغربية ، واسرائيل تعلن بوضوح أنها لا تقبل بذلك ، ولا تسمح بأكثر من حكم ذاتى محدود لسكان هذه المنطقة ، وهى على استعداد للتفاوض حول بدائل أخرى ، مثل انضمام الضفة للأردن و غير ذلك من البدائل التى لا نريد مناقشتها حتى لا نرفع ضغط الدم لدى القارئ العربى .

الحقيقة الغائبة هنا ، التى يجب أن يعرفها القارئ ، أن قيام دولة فلسطينية مستقلة ، أمر لا يحظى بقبول أطراف عربية فى النزاع ، وهو يمثل من وجهة نظرها خطرا داهما عليها ، وإن أعلنت عكس ذلك ، ولعلنا هنا نقصد دولة عربية محددة ، ولعل القصد واضح ، ولعلنا نضيف أن أطرافا عربية أخرى لا تنظر بارتياح الى هذه النتيجة التى يرجوها ويسعى اليها المفاوض الفلسطينى ، وهى قيام دولة فلسطين مستقلة على الارض العربية المحررة فى الضفة الغربية .

هذا اعتبار لا بد من أخذه فى الحسبان حتى تكتمل الصورة ، وحتى تصبح صحيحة وحقيقية أمام القارئ العربى ، قبل أن تنتقل إلى عرض

القضية الخلافية الحقيقية في مؤتمر السلام القادم ، وهى قضية مستقبل الضفة الغربية .

لأسباب عديدة ، منها أن الجميع يتوقعون أن تحدث تعديلات حدودية ، لصالح اسرائيل ، وهى تعديلات طفيفة ، بعضها لأسباب أمنية ، وبعضها لأسباب استيطانية ، والبعض الآخر قابل للتفاوض والمساومات ، بينما البعض الأول يبدو بالنسبة لاسرائيل مسألة حياة أو موت ، وعندما يبدأ الحديث عن تعديلات الحدود ، فلا بد أن نتوقع مقاومة ، إن لم نقل مصادمة ، مع الجانب العربى فى الحوار ..

السبب الثانى ان الحل التوفيقى غير واضح ، ولا نقول غير ممكن ، فالطرف الفلسطينى يسعى إلى دولة فلسطينية ، والطرف الاسرائيلى يسعى إلى قيام حكم ذاتى ، والأطراف العربية سوف يسعى بعضها للمطالبة منذ البداية باستفتاء لتقرير حق المصير ، أغلب الظن أنه سوف يكون محل رفض شديد من الجانب الاسرائيلى . لتوقعه أن تكون نتيجته فى صالح الدولة الفلسطينية المستقلة ..

المشكلة هنا أيضا على عكس المشكلات السابقة ، فهى ليست مشكلة ثنائية ، لأن الطرف الأردنى فيها مؤثر ، والجميع يدركون أن القضايا كلها فى جانب ، وقضية مستقبل الضفة الغربية فى جانب آخر ، لأنها لب النزاع ، وجوهره ، ولو تم حلها لتحقق السلام فى المنطقة كلها ، ولأصبح صعبا على أى طرف من الأطراف أن يزايد على ما أمكن تحقيقه ، وكاتب هذه السطور يتوقع أن تنتهى المفاوضات الساخنة باتفاق على الحكم الذاتى لعدة سنوات ، يعقبه استفتاء وبتعديلات حدودية محدودة ، وباتحاد كونفيدرالى أردنى فلسطينى فى المدى الطويل .

ويبقى السؤال الحائر ..

وهو هل سيتحقق السلام ؟ وهو سؤال يعتقد كاتب هذه السطور أن إجابته أسهل بكثير من إجابة سؤال آخر أهم ، بل أهم بكثير ، وهو ، وماذا عن المستقبل بعد السلام ؟ .

هذا هو السؤال الأخطر ، والأكثر أهمية ، ونحن عندما نتوقف عنده لا نضع العربة أمام الحصان ، لأننا لو كنا منطقيين حقا ، وعقلانيين حقا ، لمحاولنا إجابته قبل أى حديث عن السلام ، الذى يمكن أن يكون مدخلا إلى المستقبل ، ويمكن أيضا أن يكون مدخلا إلى الكارثة ، والمشكلة أننا لم نختلف على إجابة هذا السؤال ، لأننا لم نطرحه أصلا .
أليست هذه فى حد ذاتها .. كارثة ؟

المأزق

خلال جلسات مؤتمر السلام ، سوف تتركز العيون على ثلاثة وفود ، وفدين عربيين ووفد اسرائيلي ، أما الوفدان العربيان فهما الوفد السوري والوفد المشترك (الأردني) ، وسوف يبقى دور الوفود الأخرى أقل أهمية بكثير ، وإن كان بعضها لا غنى عنه (لتشحييم) عجلة التفاوض وعبور المشكلات بحلول دبلوماسية ممكنة ..

وما أكثر الفرص الضائعة ..

ومن نافلة القول أن نذكر أن الحوار لن يكون (عربيا - إسرائيليا) ، فهذا واضح تماما من قبل انعقاد المؤتمر ، وبمعنى أكثر وضوحا فإننا لن نشهد وفدا إسرائيليا في مواجهة وفد عربي موحد ، بل سنشهد مفاوضات ثنائية (اسرائيلية - سورية) و (إسرائيلية - لبنانية) و (إسرائيلية - أردستينية) ، إذا جاز التعبير ، ولن يخرج تشكيل اللجان ، ولا المباحثات الثنائية ، عن هذا المفهوم ، والفرصة الأولى الحقيقية للحوار (العربي - الاسرائيلي) كانت متاحة عقب مبادرة السلام ، وفي وجود مصر كطرف أساسي في المحادثات المباشرة ، وهي فرصة ضاعت لأسباب معروفة ، أما الفرصة الثانية فيعتقد كاتب هذه السطور ، أنها كانت متاحة لو قبل صدام حسين بالانسحاب استجابة لمبادرة ميتران ، قبيل نشوب حرب الخليج ، وكان بوسعها أن يشترط

لقبوله بالانسحاب ، عقد مؤتمر السلام لحل النزاع العربي الاسرائيلي على أسس عادلة ..

لا وقت للحديث عن الفرص الضائعة ، ولا مجال للبكاء على اللبن المسكوب ولا مفر من الاعتراف بأن المفاوض العربي قد خسر ورقة ضغط هائلة ، هي ورقة الوفد العربي الموحد ، وهي ورقة لم تتكفل بضياها الظروف الدولية وحدها ، بل أسهمت في ذلك النزاعات العربية ، والتركيبية النفسية التي أوصلت العرب في تاريخهم الحديث إلى ما وصلوا إليه ..

ورقة الضغط التي ذكرناها ، والتي خسرتها ، كانت ستقود في نهاية المطاف إلى قيام دولة فلسطينية مستقلة ، وفي غيابها يفتح الباب واسعا أمام احتمال جديد ، قد يكون هو الممكن الوحيد في نهاية المطاف ، وهو الاتحاد الكونفيدرالي الأردني الفلسطيني ، وهو اتحاد يضع علامة استفهام كبيرة أمام مستقبل الأسرة الهاشمية الحاكمة في المدى الطويل ..

والاتحاد السوفيتي بلا أوراق ..

المحزن حقا أن حساب الخسائر مليء بالبؤس ، فالمؤتمر ينعقد في أسوأ توقيت ممكن منذ حرب أكتوبر ، فالاتحاد السوفيتي خارج الملعب العالمي الآن ، ولو كان موجودا كقوة كبرى ، كما كان شأنه منذ خمسة أعوام ، لتغيرت الصورة ، والأوراق التي كانت في يده تبعثرت تماما ، وخرجت من يده قبل انعقاد المؤتمر بسنوات ، ويكفي أن نذكر من هذه الأوراق ، السماح بهجرة اليهود السوفيت ، وإنهاء المقاطعة الدبلوماسية للكتلة الشرقية بأكملها ..

وقد ذكرنا في مقالات سابقة أن عنصر الزمن كان في صالح اسرائيل ، ولم يكن في صالحنا أبدا ..

هذه ورقة ثانية خسرتها ، وهي ورقة مشاركة الاتحاد السوفيتي ، في توقيت سابق ، وهي ورقة لا مجال للحديث عنها الآن ، لأن اشتراكه في ظروفه الحالية لا يقدم ولا يؤخر ، ولا يضيف إلى رصيد المفاوض العربي شيئاً يذكر ..

فلنتقدم في حديث الخسائر خطوة أخرى ، ولنذكر أن العام الماضي وحده ، قد تكفل بضياغ ورقة تفاوضية ثالثة ، لها تأثيرها وفاعليتها ، وهي ورقة (تناغم أو تناسق الموقف العربي) ، وهي ورقة تأثرت كثيراً بحرب الخليج ، ويكفي أن نشير إلى الموقف الفلسطيني فيها ، وكيف تعارض تماماً مع موقف دول الخليج ، وكيف أثر ذلك في النهاية بالسلب على الانتفاضة الفلسطينية في الداخل ، وعلى دعم العمل الفلسطيني داخليا ودوليا ، ويكفي أيضا أن نشير إلى التعارض بين المواقف الفلسطينية والأردنية من حرب الخليج في جانب والمواقف المصرية والسورية والخليجية في جانب آخر ، وكلها أطراف في حوارات المؤتمر وقراراته ..

صحيح أن المصلحة العربية العليا تفرض نفسها على الجميع في نهاية المطاف ، بيد أن أحدا لا ينكر أن الموقف العربي برمته كان سيصبح في موقع أفضل لو لم تحدث حرب الخليج ، وأن الوفد الفلسطيني أو (الأردستاني) كان سيحظى بتعاطف أكبر ، وتماسك أكثر حوله لو لم تترك حرب الخليج بصمتها على الجميع ..

وتبقى أكبر الخسائر ..

وقد أرجأناها للنهاية ، ونقصد بها الموقف الفلسطيني الداخلي ، ولا نريد أن نضيف إلى الهموم العربية الجديدة ، ففيها ما يكفيها كما يقولون ، لكننا نشير إلى ثلاث حقائق واضحة ، الأولى تتمثل فيما حدث للانتفاضة ، التي لم يعد لها وجود حقيقي إلا في القصائد العربية ، والتي

تحولت من ظاهرة مقلقة لإسرائيل ومثيرة لتعاطف الرأى العام لأقصى حد ، إلى شكل من أشكال (الشغب) المحدود ، الخاضع تماما لسيطرة الأمن الاسرائيلي ، ومرة أخرى فليقارن القارئ في خياله بين انعقاد المؤتمر الدولى فى ظل فورة الانتفاضة وتأثير ذلك على مساره ، وبين انعقاده الآن وكل شىء هادئ فى الضفتين ، الشرقية والغربية - أما الحقيقة الثانية ، وهى حقيقة مرة ، فتتمثل فى اختراق الموساد لبعض فصائل المقاومة الفلسطينية ، بل وبالتحديد لأشدها تشدقا بالتطرف والعنف والحديث عن التحرير من البحر إلى النهر ، وليحاول القارئ أن يتذكر معنا بعض العمليات (الفدائية) ، وليراجع توقيت حدوثها حتى يتأكد مما نذكره الآن ..

* عملية (أكبلا لاورو) والتي تم فيها اختيار ضحية واحدة ، تمثلت فى شخص عجوز مشلول يتحرك على كرسي متحرك ، تم ربطه بالكرسي والقائه فى البحر ، حتى اكتشفت السلطات السورية جثته على الشاطئ ، وكانت إعلانا للعالم كله عن (البرابرة) الفلسطينية والتوقيت الذى تم اختياره هو توقيت طرح مبادرات السلام الفلسطينية ..

* عملية الهجوم على المصيفين فى أحد الشواطئ الاسرائيلية ، وهى عملية بدت مكشوفة جدا ، وتم تخطيطها بحيث تكفل للأمن الاسرائيلي القبض على أغلب الجناة ، وقد خلت من تهديد أية أهداف عسكرية أو استراتيجية ، وكان توقيتها هو التقارب الفلسطينى الأمريكى ، وإعلان أمريكا استعدادها للاعتراف بالمنظمة بعد مفاوضات هائلة ، وجهود مصرية وعربية ، وقد أسفرت عن قطع المفاوضات الامريكية الفلسطينية ، وانتهت الآن برفض حضور منظمة التحرير كطرف أساسى فى التفاوض ..

* عملية اغتيال (أبو إياد) على يد (مناضلين) فلسطينيين ..

ونستطيع أن نذكر عدیدا من الأمثلة ، ويكفيها ما ذكره أخيراً مدير المخابرات في ألمانيا الشرقية (سابقاً) عن تدخل (الموساد) للإفراج عن أحد الفلسطينيين المنفذين لعملية الاعتداء على مقر البعثة الرياضية الإسرائيلية في دورة ميونيخ الأولمبية ، وهي العملية التي أثارت العالم كله على الفلسطينيين والعرب ..

و نجاح (الموساد) في اختراق بعض صفوف المنظمة عامل اضعاف وإحباط للجهد الفلسطيني الثوري ، وهو عامل لا يمكن التقليل من شأنه ، وأعتقد أن تأثيره سوف يكون أكثر وضوحاً في مرحلة التفاوض ، وسنرى كيف سيتم استخدام هذا السلاح كلما نجح الجانب الفلسطيني في إحراز مكسب تفاوضي ، ولو كان جزئياً ..

وتبقى الحقيقة الثالثة ، وهي تأخير إعلان قيام (الدولة الفلسطينية) إلى أسوأ توقيت ممكن ، وبعد هنا بسنة ، كما يقولون ، وقد كان هذا مطلباً للرئيس الراحل السادات ، وكان يدعو إلى إعلان قيام دولة فلسطينية ولو (ليوم واحد) ، ووقتاً اتهموه بالخيانة - وبمحاولة ضرب النضال الفلسطيني بتحويله من ثورة إلى دولة ، ورد هو عليهم بأنهم يخافون من وجود (وزير للخزانة) حتى لا يكشف ثروات المناضلين ، وخلال هذا التراشق ضاعت فرصة ذهبية لإعلان الدولة في توقيت صحيح ، ولم يكن السادات غيباً حين طالبهم بذلك ، فقد كان يعلم أن أرض فلسطين لم تشهد قيام دولة فلسطينية في تاريخها كله ، فقد كان على مدى التاريخ جزءاً من الشام ، وكان يحاول أن يلعب على ورقة قيام هذه الدولة حتى يكسب لها المؤيدين والمُعترفين بها رسمياً ، ويخلق واقعاً جديداً يضيف رصيداً للقضية الفلسطينية ، وكان باستطاعته في ظل المتغيرات الدولية القائمة وقتها أن يفعل ذلك ، والذي لا يصدق عليه أن يراجع

كيف استطاع النظام المصري في تلك الظروف الدولية أن يجند عشرات الدول للاعتراف بالمنظمة ..

بعد سنوات طويلة قبل الفلسطينيين ما رفضون من قبل ، بيد أن التوقيت كان متأخرا ، ومتأخرا جدا ، والذي لا يصدق عليه أن يقدم لنا كشفا بعدد الدول التي اعترفت بالدولة الفلسطينية ، وتبادلت معها التمثيل الدبلوماسي ويقارنها بعدد الدول التي اعترفت بدولة لا وجود لها وهي دولة البوليزاريو ، وعليه أن يقدم في المقابل كشفا بعدد الدول التي اعترفت بالمنظمة ، عندما كانت الظروف الدولية ملائمة ، وساعتها سوف يكتشف الفلسطينيون مدى الخطأ الذي ارتكبوه عندما أخوا إعلان دولتهم طوال هذه السنوات ..

الموقف الفلسطيني الداخلي في تقدير كاتب هذه السطور في أسوأ مراحله والخلافات بين المنظمة وحماس وفصائل المقاومة وبعضها أسوأ مما يتصور الجميع ، ولعل هذا هو ما دفع سعيد كمال (سفير فلسطين في مصر) إلى إعلان تخوفه على مستقبل كيان الحكم الذاتي الفلسطيني خلال السنوات الخمس المقترحة (والتي سيتفاوض الفلسطينيون من أجل خفضها إلى فترة زمنية أقل ، لكنهم يقبلون بالحكم الذاتي من حيث المبدأ) ، وقد وصل الأمر بسعيد كمال إلى إعلان استعداده لقبول حماية أمريكا لهذا الكيان الفلسطيني خلال هذه الفترة ، حتى لا تتذرع إسرائيل بالخلافات الداخلية ، وتتدخل لاحتلال الضفة الغربية مرة أخرى (راجع حديث سعيد كمال لجريدة الجمهورية بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٩٩١) ..

هذا عن حساب الخسائر ، فماذا عن حساب الأرباح ؟
أول الأوراق الراحبة في يد العرب ، تتمثل في الموقف الأمريكي ، الأقل انحيازا إلى إسرائيل لأول مرة منذ سنوات طويلة ..

صحيح أن الموقف الأمريكي لا يصل إلى مستوى الطموحات العربية ، لكن التغير الذى أحدثته المتغيرات العالمية ، وحرب الخليج ، قد دفع بالموقف الأمريكى إلى الضغط لعقد المؤتمر الدولى ، وإعلان الاستعداد للضغط لصلح اتفاق سلام على أساس (مبادلة الأرض بالسلام) وهو تغير إيجابى ، لعله هو الذى دفع العقلاء فى المنطقة إلى التثبت بفرصة السلام هذه المرة ..

الورقة الرابعة الثانية تتمثل فى تماسك الشعب الفلسطينى فى الضفة الغربية حول منظمة التحرير كممثل شرعى وحيد رغم خلافات فصائل المقاومة ، وهو موقف له حساباته ، وانعكاساته ، ولعلنا نذكر هنا أنه موقف متقدم على مواقف السياسيين الفلسطينيين .

الورقة الرابعة الثالثة ، والأخيرة تتمثل فى تأييد قطاعات شعبية واسعة ، داخل اسرائيل للسلام الحقيقى الدائم ، وعلى حد قول سعيد كمال فى حديثه المذكور سابقا (إن التنسيق مع هذه القوى ، ورقة ضغط لا يجب التفريط فيها أو الاستهانة بها) ، وحتى نتصور حجم هذا الضغط أو التأثير نذكر أنه باستخدام النسبة والتناسب ، فإن المظاهرة التى قام بها سبعون ألفا من أنصار حركة السلام الآن فى اسرائيل توازى قيام مليون وأربعمائة ألف بمظاهرة فى شوارع القاهرة ..

وهكذا ضاقت مساحة المناورة ..

ونقول ضاقت ولا نقول ضاغت ، فالفلسطينيون ظهرهم للحائط ، واللبنانيون لا يحلمون بأكثر مما اتفق عليه الرئيس الجميل مع اسرائيل ، والسوريون يملكون بظروف اقتصادية صعبة ، وعلاقتهم بجيرانهم شرقا وجنوبا متوترة ، وهم قد انزلقوا بإرادتهم فى المأزق اللبنانى ، وفقدوا حليفهم التاريخى فى لعبة القوى الكبرى ، وحتى لعبة الكراسى الموسيقية

العربية في ظل الحد الأدنى من الاتفاق العربي لم تعد ممكنة ، ولم تعد تشد انتباه أحد في العالم العربي كله ، والسلام في نهاية المطاف سوف يضع الأنظمة العربية كلها في مواجهة اختيار الديمقراطية .

وأخيرا ..

في أوقات الهناء العربي ، عندما كنا نتغنى بالوحدة ونحلم دون أن نقيد أحلامنا حدود الممكن والواقع ، كان بوسع عبد الناصر أن يهاجم أساس الوجود الاسرائيلي ذاته ، وأن يعلن مقولته البليغة في وصفه لوعده بلفور (لقد أعطى من لا يملك وعدا لمن لا يستحق) ..

الآن تغيرت الأمور ، وتواضعت الأحلام ، وحلت محلها الحقائق ، وأعلن الفلسطينيون دون لبس أنهم يقبلون بدولة اسرائيل ، ويعترفون بها ، ولم تعد المشكلة أن يقبلوا بالجلوس مع اسرائيل ، بل أصبحت المشكلة عكسية ، وهي أن يقبل الاسرائيليون الجلوس معهم والاعتراف بهم ، وهم على استعداد الآن لقبول المقترحات الامريكية بالحكم الذاتي للضفة الغربية في ظل اتحاد كونفيدرالى مع الأردن ، والأمريكيون يطلبون أن تكون فترة الحكم الذاتي خمس سنوات ، وسيطلبون هم أن تكون ثلاثا ، وبعدها الاستفتاء على تقرير المصير ألم يكن ذلك كله متاحا في اتفاقية كامب ديفيد ؟ .

ألم يقبل الإسرائيليون بوفد فلسطيني في مباحثات مينا هاوس، وهو ما لم يستطعه الفلسطينيون الآن ، حيث يقبلون بوفد أردستاني ؟ .
غموما ، ستدور الدائرة ، وسن عقد المؤتمر ، في أسوأ توقيت ممكن للفلسطينيين وللعرب حتى الآن ، ونقول (حتى الآن) ، لأن هذا ضرورى تناسقا مع منطق الأحداث ، فغدا سوف يكون أسوأ بالتأكيد للفلسطينيين والعرب ، والذي لا يصدق عليه أن يستعرض خريطة العالم

العربي ويستعرض حجم الخلافات (العربية - العربية) ، وعليه أن يعود بالذاكرة إلى الوراء ، ويقارن الوضع العربي الآن ، بالوضع قبل خمس سنوات ، ثم قبل خمس سنوات ثانية ، ثم قبل خمس سنوات ثالثة ، حتى يتأكد من حقيقة واضحة ، وهو أننا نسير ، وبسرعة خارقة وبتألق نحسد عليه.. إلى الوراء ..

لم أكن متشائما إذن وأنا أختار لهذا المقال ، عنوانه الذي كتبت قبل أن أخط حرفا واحدا فيه وهو (المأزق) أما لماذا لم أكتب (المأزق العربي) ، فلا بد أن القارئ يشاركني فيما ذهبت إليه من اختصار ، فمادام هناك مأزق ، فلا بد أن يكون عربيا ..

حديث ذو شجون

إذا ذهبت للسباحة في المياه العميقة ، فليس لك أن تدعى الانزعاج ، إذا وجدت أسماك القرش تسبح بجوارك ذراعا بذراع .. تذكرت هذه الحكمة البليغة وأنا أتابع ردود الفعل الغاضبة أحيانا ، والعنيفة أحيانا أخرى ، قولا كتابة ونشرا ، للمقالات التي نشرتها عن آفاق المستقبل ومؤتمر السلام ، ولم يخل الأمر بالطبع من تقدير البعض وإعجابهم ، بيد أنها فرصة على أية حال ، لكي أوضح منهجى في الكتابة ، ورأى فى بعض ما يكتبه زملاء وأساتذة بعضهم تعلمت الكتابة من مقالاته ..

الكاتب فى بلادنا أمامه أحد اختيارين ، أولهما أن يسير فى الركب ، وأن يكون قلمه صدى لقول الناس ورأى الناس ، وأن يكون سعيه للالتقاء بوجودان الناس ، وهو هنا كاتب مريح ، مستريح ، وقدرته على الإراحة والراحة ، تتحدد حسب حجم موهبته ، فهو فى النهاية ساع لصنع فنجال قهوة مضبوط ، والبعض يقترب من ذلك ، والبعض النادر يتألق فى ذلك أكثر الأحيان لا يلتقى اقتناع الكاتب وما يكتبه ، فهذا شىء وذاك شىء آخر ، وربما تعود على ذلك فالتقى الاثنان وأصبح ما يقتنع به هو ما يقنع الناس ، وهنا يصبح الكاتب شهيرا وجهيرا ، مريحا مستريحا ، مقبولا ، وبعض أشهر كتابنا من هذا النوع ، دليلى على ذلك ما يفعله أغلب القراء ، حيث يؤجلون قراءة مقال كاتبهم المفضل إلى ما قبل النوم مباشرة ، لأن ما يكتبه يريحهم وربما يخدرهم ، لكنه فى كل الأحوال يسعى

بالنوم إلى عيونهم حيث الرضا عن النفس ، والأحلام السعيدة ، والتوافق الداخلي .. لست من هذا النوع من الكتاب ولن أكون أبدا ، لأن طبيعتي تدفع بي إلى الطائفة الثانية من الكتاب ، الذين يبدو اختيارهم مزعجا لهم وللناس ، فهم يختارون أن يكون سبيلهم إلى الكتابة هو العقل والمنطق وليس الوجدان ، سواء كان وجدانهم أو كان وجدان القراء ، وهم يعتقدون أن واجب الكاتب أن يقود وليس أن يقاد ، وأن ينبه وليس أن يخدر ، وأن يوضح ويحذر ، وينقل الحقيقة كما يراها ، بعيونه وليس من خلال عيون الآخرين ..

ترى هل يصدقني القارئ إذا ذكرت له أن الاختيار الأول سهل يسير ، وأن مكونات فنجان القهوة العربي المضبوط ، معروفة ومتيسرة وليست سرا ، وأن الصعب حقا هو الاختيار الثاني ، لأنه مجهود جهيد ، للكاتب وللقارئ معا ، وأنتى أفضل أن يهجر النوم عيون القارئ وأن يؤرقه السهاد أمام الحقيقة ، عن تركه يحلم بالوهم ، وينام على خداع النفس ..

هذه مقدمة لا بد منها حتى يبدو منطقيا ما سأذكره للقارئ ، وهو أنني لم أنزعج أبدا للغضب ، ولا للرفض ، لأننى أتوقع ذلك فى كل ما أكتبه ، لكنى أنزعجت حقا لسيطرة ذلك لإرث على عقول بعض الكتاب ، وهو إرث نظرية المؤامرة فالكاتب الذى يحذر من خطر ، هو فى النهاية لدى البعض جاسوس مرسوم لجس النبض ، والكاتب الذى ينبه لما يحدث ، هو عميل للقوى الأعظم التى بيدها مقاليد حركة التاريخ ، والكاتب الذى يذكر الحقيقة هو انهزامى خائن ، والذين يكتبون هذا يستحقون الشفاق حقا ، لأنهم مثل البوريون فى التاريخ الفرنسى لم يقرأوا شيئا ، ولم يتعلموا شيئا ، ولست أدري إلى متى بعد كل ما حدث ، وبرغم كل ما حدث ، لا يفيق الواحد منا أمام حقائق ما حدث وما يحدث ، وأمام لغة

العصر ، التى هضمت كل لغات الماضى ، إلا لغتنا الجميلة ، التى يحل فيها الجنس والطباق وفتون البديع ، محل لغة الكمبيوتر ، التى يعرفها الدارسون له ، وهى لغة الثنائيات ، صواب وخطأ ، واحد وصفر ، صحيح وغير صحيح ..

ونبدأ بمؤتمر السلام ..

ونتساءل ما هو هدف اسرائيل من هذا المؤتمر .. قبل الإجابة ، وحتى لا ندخل فى مناهات الأرض والسلام وغيرها ، نردد مقولة ابن البلد المصرى (هات من الآخر) ..

مؤتمر السلام ، إن تحقق فيه السلام ، هو فرصة لإسرائيل النهائية ، والأخرة ، للخروج من المؤتمر بوحدة من اثنتين .. إما أن تخرج منه كما دخلته ، دولة منبوذة ، دخيلة مرفوضة ، مثلها مثل الجسم الغريب الذى يرفضه جسم المنطقة الحى ، أو مصل الورم السرطانى الذى يجدر بالمصاب به أن يحاصره ، ويمنع استشرائه فى الجسد ، أو أن تخرج من المؤتمر وهى دولة من دول المنطقة ، لها مالها ، وعليها ما عليها ، وبينها وبين دول المنطقة أقوى الروابط والأواصر والعلاقات ، تجارية وثقافية وسياسية ..

البديل الأول يمثل بالنسبة لإسرائيل حكماً بالاعدام فى المدى الطويل ، فهى فى النهاية دولة الملايين الثلاثة ، وسط محيط سكانى عربى يتجاوز المائة مليون ، ويدخل سباق الأرناب باستمتاع وتألق فريدين ، وقد تنجح إسرائيل بوسائل القوة المتاحة حالياً فى العيش فى أمان لسنوات تقصر أو تطول ، لكنها فى النهاية لا بد وأن تصطدم بظوفان الإبادة أو الذوبان .. البديل الثانى هو الضمان الوحيد للوجود الاسرائيلى فى المدى القصير

والطويل معا ، وهو ليس بديلا ، بل هو قضية رئيسية ومحورية ..
باقى الأمور والقضايا ، مهما بدت معقدة وصعبة ، لا تزيد عن كونها
تفصيلات لا قيمة لها أمام القضية الرئيسية ، ذلك لأن التفصيلات تتعلق
بالحجم ، وبصراعات المدى القصير المنظور ، فى حين أن القضية الرئيسية
تتعلق بالوجود ..

هل هناك شك فى ذلك ..

وهل يتصور واحد منا أن تفكر إسرائيل بأسلوب آخر ..
وهل ، وهذا هو الأهم ، يتخيل واحد منا ، وأقصد بنا أطراف الحوار
العربى فى مؤتمر السلام ، سلوكا إسرائيليا مغايرا ، أو منهجا إسرائيليا
مختلفا ..

لست أشك فى أن الإجابة سوف تكون بالنفى ..

والسؤال الأهم ..

هل نحن على استعداد لذلك ..

والسؤال الأكثر أهمية ..

هل من المزعج أن تناقش ذلك ، أو على الأقل أن نعرفه ، ونتعرف
على محتواه ..

وهل هى جريمة إذا قلنا أن من يعرف ذلك (والكل يعرف) ، ويوافق
على ذلك (والله أعلم بالنوايا) ، عليه أن يحدد من البداية موقفه من
المؤتمر يقبل به أو يرفض ، يذهب إليه أو لا يذهب ..

هل هذا كثير أو مزعج أو مخيف ..

الحقيقة أن هذا كله ، بدا لى كذلك أنا أراجع ردود الفعل حول ما
كتبت .. البعض يفضلها ساخنة ويستريح إلى الحديث بلغتين لغة أمام
أجهزة الإعلام ، وهى لغة موجهة إلى شعوب المنطقة ، ولغة أخرى على
مائدة المفاوضات وهى لغة لا بد وأن تكون مختلفة والبعض الآخر يفضل

نظام التقسيط المريح ، والتقسيط قد يكون في عرف الدبلوماسية حنكة ومهارة و(شطارة) ، لكنه لن يغنى أبدا عن دفع الثمن ، وفوقه فوائد التأخير ..

أليس مزعجا حقا أن تكون البديهيّات مدخلا إلى الغضب والحزن والالتهام ..

الحقيقة أن هذا ليس المصدر الوحيد لحزن كاتب هذه السطور ، لأن حزنا آخر ، من نوع آخر يجثم على الصدر ولا بد أن يجد سبيله إلى التعبير ..

ومن حقى أن أحزن ..

ومن حق جيلي كله أن يفعل ذلك ، فأنا من أنصار السلام العادل الدائم في المنطقة ، والسلام لا يدعو إلى الحزن أبدا ، لكن الذي يدعو للحزن حقا هو ضياع نصف قرن بأكمله ، على يد الساسة العرب الذين قادوا المنطقة طوال هذه الفترة ، أو على الأقل في أغلبها والذين وصلوا بنا في النهاية إلى ماوصلنا إليه ..

طوال نصف قرن تقريبا ، وهدف الاستراتيجية العربية هو القضاء على دولة اسرائيل ..

الذي يهرب من ذلك يغالط ، والذي ينكره يكذب ، والذي يتحدث عن أن العرب في العصر الحديث لم يكونوا أنصار حرب بل كانوا أنصار سلام ، يخدع كل عربي في المنطقة كلها خداعا مكشوفاً لا سند له .. نحن لم نعرف الحديث عن السلام إلا بعد هزيمة ١٩٦٧ ، وتحت وطأة الهزيمة القاسية ، وعندما عرفناه تحدثنا عنه بمنطق الهدنة المؤقتة ، وليس بمنطق السلام الدائم ، والسادات وحده هو الذي خرج على الدنيا كلها

بمنطق مخالف لم يقبل به سوى الشعب المصرى وأنكره العرب على طول الساحة وعرضها ..

لنقل أننا كنا أنصار حرب ولنضف إلى ذلك أنها كانت حربا عادلة في سبيل الأرض والحق والعدل ، فليس هذا عيبا ، ولكنه اعتراف بواقع ما حدث ..

ولنقل في المقابل أن استراتيجية اسرائيل كانت في أقصاها التوسع ، وفي أدناها تأكيد حق الوجود للدولة ، وفرض هذا الواقع على شعوب المنطقة .

ولنذكر في نهاية هذين القولين ، أن المؤتمر الدولى للسلام ليس له إلا معنى واحد ، وهو الفشل الكامل للاستراتيجية العربية التى استمرت على مدى يقرب من نصف قرن ، والنجاح الكامل في المقابل للاستراتيجية الاسرائيلية ولو في حدودها الدنيا ..

ليس هذا بكاء على الأطلال ، ولكنه تذكرة ، وهو ليس دعوة إلى رفض مؤتمر السلام ولكنه دعوة لبعض الحزن على الزمن الضائع ، فقليل من الحزن يصلح المستقبل ، والذين قادونا في هذا الاتجاه الخاطئ على هذا المدى الزمنى الطويل ، في حاجة منا اليوم لأكثر من اللوم ..

الكارثة أن الزمن الذى ضاع سدى ، ولفظ (سدى) هنا لفظ دقيق ، هو الزمن نفسه الذى انتقلت فيه أوروبا من مستوى الخرائب ، إلى مستوى العمران الذى لا سابقة له في التاريخ ..

في صيف أحد السنوات كنت في أرقى منطقة في الدانمرك ، واسمها (فينن) ، وهى منطقة سياحية شاطئية ، كل ما فيها باهر ومتقدم ورائع وجميل ، وهمس في أذنى صديق دانمركى قائلا ، هل تعرف متى دخلت الكهرباء هذه المنطقة ورددت بالنفى وأسرع قائلا ، في عام ١٩٥٥ . عندما بدأنا الصراع العربى الاسرائيلى ، كانت ألمانيا خرائب ،

وكانت اليابان ماتزال تعيش أبعاد الهزيمة المرة ، وكانت أوروبا لا تعرف في هذا الوقت أجهزة التلفزيون ولا الكمبيوتر ولا الأقمار الصناعية ولا أشعة الليزر ..

كانت المسافة بيننا وبينهم قريبة ، وممكنة وخلال فترة الصراع التي ضاعت فيها مواردنا ، وسقط فيها شبابنا ، وانهار فيها اقتصادنا ، كانوا ينعمون بالسلام ، ويشيدون بالمدن والطرق ، ويعيشون الديمقراطية ويتفنون في إعلاء قيمة المواطن ورفع كرامة الإنسان وتحسين الخدمات المقدمة له .

خلال نصف القرن نفسه ، رتعت الدكتاتورية في عالمنا العربي كله تحت شعارات الحرب والتحرير ومواجهة العدو ، وحتى القدر المحدود من الليبرالية والسياسية ، والحرية الاقتصادية ، أهدرناه تحت شعارات شتى ، وأصبح الحوار المتبادل بين (المعسكر) في عالمنا العربي ، وبين مؤلفي الأغاني هو الحوار الأشهر ، فهؤلاء يديرون الانقلابات ، وهؤلاء يساندونهم بالأغاني والأناشيد ومن حقنا أن نسأل أنفسنا الآن في لحظة المواجهة مع النفس ..

هل قادنا هؤلاء لهدف غير ممكن .

هل تعاملوا معنا على مدى هذه السنوات الطوال ، بأسلوب أن السياسة هي فن الحلم ولس فن الممكن ، وهي إمكانية الغناء وليست إمكانية الاستمرار والتطور والتنمية .

مرة أخرى ، كاتب هذه السطور من أنصار السلام ، لكنه يعتقد أن من أضاعوا أيا منا وأحلامنا مواردنا سدى لا يجب أن نتسامح معهم ولو أصبحوا ذكري ..

لا بد من مراجعة ما حدث طوال نصف القرن الماضي ، ولو على مهل ، ولا بد من استيعاب دروسه ولو في هدوء ، وأنا أفهم عاطفيا أن يغترض

البعض على مؤتمر السلام ، من منطق الصدمة في مواجهة الواقع ، وبسبب التأثير بالإعلام الذى ساد المنطقة كلها طوال السنوات الطويلة الماضية ، لكنى لا أفهم أن يرتفع صوت السياسة الذين يقودون رأى العام بالتغيمات نفسها ، وأن ينطلقوا من المنطلقات نفسها بعد ما حدث كله .. الذين قادونا إلى هذا المأزق (وأقصد بالمأزق هنا ضياع الموارد في سبيل تحقيق المستحيل) استند في هذا السعى إلى شعارات التاريخ وانطلقوا من منعطفه ..

رفعوا رايات صلاح الدين ، وشعارات القومية العربية ، ونسوا أن التاريخ لا يصنع حاضرا ولا مستقبلا .

أوروبا لا تتوحد بإسادة إحياء للامبراطورية الرومانية القديمة ، لكنها تتوحد بدافع المصلحة ، ويهدف التكامل والتنمية ، والذي استدعى التاريخ يوما وهو موسوليني ، انتهى وانتهت معه إيطاليا ، تماما كما انتهت أحلامنا العربية في أزمة الخليج وعلى موائد المفاوضات ..

العالم القادم ، وأقولها وسأقولها للمرة الألف ، هو عالم الجغرافيا ، عالم الحسابات والأرقام والمصالح ، وليس عالم العواطف والعواصف ، والأشجان ، والأغاني والأناشيد ، والذين يهربون من التاريخ إلى التاريخ يرتكبون الجريمة نفسها ، ويركبون الحصان نفسه الجامح الذى يلقي براكبه عند أول منعطف ..

الوحدة الإسلامية أو الخلافة الإسلامية ليست هى الحل ، والمستقبل الذى سنصنعه ولأبنائنا لا بد وأن يخضع لحساب جديد ، بالورقة والقلم هذه المرة .. بالورقة والقلم وليس بالسيف والأشعار ..

ولا بد من البكاء على اللبن المسكوب ..

حتى لا ينسكب مرة أخرى فالسلام هذه المرة ليس نزهة رثيئة ، بل

هو بالنسبة لى مثل الجراحة التى تستأصل وربما خبيثا ، هو أسلوبنا فى التفكير ، وبعدها سوف نتعامل مع الحضارة بلغتها ، ومع عالم اليوم بمفردات قاموسه ، الواضحة ، المحددة ، الحاسمة ، العلمية ، والجراحة تؤلم ، لكنها فى النهاية ضرورة ، والتعامل مع السياسة على أنها فن إدارة المصالح ، يختلف تماما عن تعاملنا السابق ، الذى انحصر فى دائرة خداع النفس ، وبقدر ما كانت هزيمة ١٩٦٧ صدمة لأسلوبنا فى الحكم ، فليكن مؤتمر السلام صدمة لأسلوبنا فى التفكير ، وليكن السلام الممكن والمرتب ، والذى سيحدث ، مدخلا إلى الديمقراطية ، وحقوق الإنسان ، والتنمية ، ولنتذكر حقيقة تاريخية غابت عنا لسنوات طوال ، وهى أن الحرب ، هى التعبير العنيف عن منتهى الضعف ، وأن السلام هو لغة الأقوياء ، وأنا فى مصر أصحاب تجربة واضحة ، فقد عبرنا عن ضعفنا أكثر من مرة وخسرنا الكثير ، وعبرنا عن قوتنا مرة ، فربحنا الكثير ، والمؤلم للنفس حقا أن من يرفعون شعارات الحرب فى العالم اليوم ، وهو عالم السلام ، هم صدى صوت الحرب الذى حصدنا معه الحصرم ، ودفعنا بسببه أحلام جيل بأكمله ، ويبدو أن البعض يعز عليه أن يكون هناك غد أو أمل أو مستقبل ، وما أتعب الوطن الذى لا يعرف سوى التاريخ ، ويعز عليه أن يعيش الحاضر أو أن يتعامل معه ، فيصبح مثل التاريخ تماما ، أثرا بعد عين .

أزمة العقل

فى ندوة بجامعة برلين الحرة ، دار الحديث حول أزمة العقل العربى بصفة عامة ، وكان منطقيا أن يدور حديث كاتب هذه السطور ، وأن ينشغل ذهنه بأزمة العقل المصرى ، وأن تحدث مقارنة فى العقل الباطن بين العقل المصرى أو العربى أو الشرقى إن جاز التعبير وبين العقل الأوروبى .

المقصود هنا لمزيد من التحديد ، وهو أسلوب التفكير ومنهجه .. والبدهى أن نلجأ فى هذا المقال إلى التبسيط والوضوح وتناول الأمثلة القريبة إلى الأذهان ، فليس المجال متسعا ولا ملائما لبحث علمى دقيق ، وتعقيدات لفظية وفكرية لا مبرر لها ولا مناسبة .

هذا هو السؤال المنطقى الأول ، الذى يبرر الحديث ، وإجابة كاتب هذه السطور بالإيجاب ، بل بالقول بأنها أزمة حادة ، لابد من التصدى لها بالحوار ومحاولة الحل .. دون القارئ إن أراد التثبت من ذلك أن يقارن بين السعى الجماعى الأوروبى للمستقبل ، والزحف الجماعى الشرقى لاستدعاء الماضى ، فإن لم يعد ، وهو لن يعود بالقطع سارت الجحافل ولو على مستوى الفكر للخلف . وسعت جاهدة للعودة للوراء ، ولم يعد المستقبل بالنسبة لها أملا ، بقدر ما يصبح الماضى بالنسبة لها حلما ، إن عز عليها الرجوع إليه ، صاغته شعرا ، ونسجته حلما ، وسعت إليه حيننا باللفظ المعسول وأحيانا بالعنف المجهد الجهد .

هذا ملمح من ملامح الأزمة ، ولعله أكثر ملامحها وضوحا ، ونحن

لا نبرئ مناهج التعليم ولا برامج الاعلام مما حدث ومحدث ، فلسبب لا أدريه ، خلط البعض بين الإسلام والتاريخ الإسلامى ، دون إدراك لحقيقة يسيرة المنال ، تتمثل فى أن الفرق شاسع بين الاثنين ، فالأول دين عظيم ، والثانى تاريخ بشر يخطئون ويصيبون ، وأنت لا تجد فى الأول إلا ما تنحنى له إجلالا وتعظيما ، وأنت سوف تجد بغير شك فى الثانى ما يجعل نفسك تطير شعاعا من هول ما اقترفه البعض وهم كثر باسم الاسلام وتحت مظلة أو مظنة الحكم به ، ولك أن تقول فيه ما تشاء عن يقين باختلاف الساحة ، ولك أن تأمن فى قولك أو نقدك أو اعتراضك ، فما علاقة الواثق والأمين مثلا بالإسلام سوى أن القدر ساقها لحكم المسلمين فأصبح شذوذها أساطير ، وما علاقة الوليد بن يزيد الأموى بروح الاسلام وجوهره وهو الذى تباهى بإلحاده وخلده شعرا ، وتمادى فى مجونه إلى درجة رشق المصحف بالسهام ، حتى انتهى الأمر بمصرعه على يد ابن عمه ، خوفا على هيبة الأسرة الأموية ، وأملا فى استمرار حكمها ، وما علاقة دين العدل والرحمة بالسيف والنطع المائلين أمام الخليفة ورهن اشارته ، إن رضى استقر السيف فى غمده ، وإن غضب ولو لسبب لا علاقة له بمن ساقه القدر إليه ، طار الرأس ، وجمع النطع (وهو بساط من الجلد) ما تيسر من الاشلاء والدماء .

هذا واقع ما حدث فى بعض عصور تاريخ الدولة الاسلامية ، وعدا شذرات وامضة فى خلافة الراشدين وخلافة عمر بن عبد العزيز الأموى وخلافة المهتدى العباسى ، يصطبغ التاريخ بصبغة العصور الوسطى ، ويحمل معه آثامها وأوزارها ولا يختلف كثيرا عن طبيعة تلك العصور فى غير بلاد المسلمين ، فالاستبداد هو الاستبداد ، والرقاب هنا وهناك معلقة برأى الحاكم وموكولة إلى اختياره بين العدل والاستبداد ، وهو اختيار كان يرجح الاستبداد فيه فى أغلب الأحوال ، أما أموال الدولة كلها فهى رهن

اشارته ، وما نقرأ عنه ونعجب به من إغداق الخليفة على الشعراء والمادحين والقائلين قولا حسنا ، له وجهه الآخر وهو السفاهة في الإنفاق . والبلاهة في تبديد أموال المسلمين ، والخروج على قواعد الدين في إنفاقها في غير وجهها الشرعى الصحيح .

لست أشك في أن ما مررت عليه خفيفا ، يبدو في وجدان القارئ حتى الآن ثقيلًا غاية الثقل . ومعه حق ، فالمشكلة ليست في كون الحقيقة مفزعة ، وهى كذلك ، لكنها كامنة أيضا في ذلك الخلط العجيب بين العقيدة والتاريخ ، بين الدين والبشر ، بين رسالة السماء ، وأخطاء المسلمين ، وهى كامنة كذلك في ذلك التوقير ، غير المبرر غالبا ، لذكرى الأجداد ، وهو توقير له مظهر الدفاع (العائلى) بيد أنه توقير لا يصادف محله في كل الأحوال ، وللقارئ أن يقارن ذلك برؤية الأوروبيين لأجدادهم من حكام العصور الوسطى ، الذين استبدوا باسم الدين ، وخرجوا على الأعراف والأخلاق تحت راية الاستبداد ، فنالوا طاعة رعيتهم قهرا ، ونالوا احتقار واستنكار أجيال تقبل اليوم بالحضارة وحقوق الإنسان ، وتشيح بوجهها عن ماضيها خجلا وتعففا وازدراء .. الفرق هنا كامن في أنهم يعلمون ويتعلمون الحقائق ، ونعلم نحن ونتعلم صفحات بيضاء منتقاة ، ووقائع أجيد اختيارها ، بحيث لا تعكس سوى ما هو جميل ونبيلى ، وقد بلغ بنا الزيف أن نلوى عنق الحقائق ، وأن نروى الأحداث كما نريدها أن تكون وليس كما كانت .

هل يدلنى القارئ على مسلسل تليفزيونى واحد ، من مسلسلات التاريخ ، تعرض لفساد حاكم أو استبداد خليفة أو والٍ ، أو سفاهته أو مجونه أو شذوذه أو عشقه لسفك الدماء ؟..

لا شىء من هذا أبدا ، رغم أنف التاريخ ، ورغم أنف الحقائق ، فكل عصر يوتوبيا (مدينة فاضلة) ، وكل سلوك نبيل ، وكل تصرف مثالى ،

والكارثة أن هذا ليس فقط ما يبته الاعلام ، بل ما تحتويه برامج تدريس التاريخ في المدارس ، وأقول الكارثة ، لأن هذا كله لا يقود إلا إلى نتيجة حتمية ، وهى رفض الحاضر ، والتوجه للماضى ، فمادام الحاضر مزيجاً من الخير والشر ، ومادام الماضى خيراً كله ، وسلاماً كله ، وعدلاً كله ، فما الداعى إذن للقبول بحكامنا هؤلاء . وقوانيننا تلك ، وحضارتنا هذه .

الطريف حقاً أن بعض القصص التى تلقى إلينا من (الفرازة) ، والتى يتصور أصحابها أنها موعظة بليغة ، وأن الحكمة والسلوك الطيب يملأ ثناياها ، لا تصمد طويلاً أمام التمهيط العقلى ، وتصل بمن يستخدم عقله إلى نتيجة عكسية تماماً ، بيد أنه من الواضح أننا هجرنا العقل منذ زمن ، أو فى سبيلنا إلى هجره وإهماله ..

دون القارئ قصة لا بد أنه يسمعها أكثر من مرة ، ومازلت أتذكر آخر مرة سمعتها فيها من إذاعة مصرية ، يوم لقاء السيد الرئيس بالكتاب فى معرض الكتاب فى يناير الماضى ، نحو الساعة العاشرة صباحاً ، حيث أدت مفتاح المذياع وأنا فى طريقى للقاء ، فإذا ببرنامج من برامج التراث يحكى قصة فقيه أو عالم دينى ، أرسل إليه محمد على باشا منحة مالية ، وأرسل مثلها إلى باقى الفقهاء ، لكنه رفضها ، ولما ذهب محمد على لزيارتهم فوجئ بالفقيه الذى رفض المنحة بمد قدمه وجهه فى فسأله عن السبب ، فأجابه الفقيه أن من لا يمد يده ، يسهل عليه أن يمد قدمه .

القصة سمعتها قبل ذلك منسوبة إلى أحد خلفاء العصر العباسى ، وسمعتها مرة أخرى منسوبة إلى ابراهيم باشا ابن محمد على ، ولا يهم أيضاً اسم الفقيه ، ولا يهم أيضاً اسم الحاكم ، فالأهم هو الموقف ، والأكثر أهمية هو مراجعة هذه القصة ومناقشتها بالمنطق ، وهو ما حدث معى ، حيث أغلقت مفتاح الراديو وأخذت أتأمل مضمون القصة .

أفهم أن يرفض الفقيه منحة الحاكم ، فهذا حقه ، لكنى لا أفهم أن يمد

قدمه في وجه الحاكم مهما كان الحاكم ، لأن هذا باختصار سوء أدب ، وقلة ذوق ، وتصرف يستحق عليه الحساب أو العقاب ، ولا يستحق عليه المدح أو التمجيد ، ثم ما هي الحكمة التي يسعى إليه الاعلام من عرض هذه القصة ، وما هو القصد ، وهل من الحكمة ومن نبيل القصد أن نعلم الجمهور كيف يسيء التعامل مع حاكمه أو رئيسه ، ليس فقط على مستوى الدولة ، بل حتى على مستوى العمل .

وإذا كانت القصة السابقة تتعرض لتاريخ قريب ، فإن القصص التي تتعرض لفترات أسبق من التاريخ تبدو أكثر سطحية ويبدو حجم المبالغة فيها هائلا ، ويبدو الكذب أيضا واضحا دون لبس .

الحاكم دائما عادل ، بل غاية في العدل ، زاهد ، بل غاية في الزهد ، عابد ، بل هو إمام المتقين ، وهو مستمع رائع لموعظة الفقيه ، مستوعب لا مثيل له لفتوى المفتي ، دموعه تسيل دائما على خديه ، وسلوكه هو الطهارة ذاتها ، وهدفه ، ولا هدف غيره هو القرب من الله والتسكك بحبل الدين المتين .

لا جوارى ولا خمور ولا غلمان ولا قيان ولا سيف ولا نطع ولا تبذير ولا اضطهاد للمختلفين معه .

متى حدث هذا وأين وعلى مدى كم عام وما هي نسبة هذا إلى مجمل تاريخ طويل شغل بكل ما تجنبته المسلسلات والبرامج .

ومن إذن الذي جلد مالك وابن حنبل ، وسجن أبا حنيفة ، وروع الشافعي والأوزاعي وصلب الحلاج وقطع أوصال ابن المقفع وأحرق السهروردي .

فليعفى القارئ من ذكر الحقائق ، وليكن عذري أن هذا يخرج بنا عن الخط الأساسي لحديث اليوم ، حيث نتحدث عن محنة العقل في بلادنا ، وكيف أن أول مظاهر هذا المحنة يتمثل في العودة للخلف والردة

الحضارية ، والسعى الحثيث إلى هدم العصر والامساك بتلابيب ماضٍ
: تخيلناه أولا ، ثم سعينا إلى خيالنا دون إدراك لحظ هذا الخيال من الوهم ،
وهو حظ لو نعلم ونتعلم عظيم ..

والعيب أيضا في منهج التفكير ..

فنحن نبدأ دائما بالكل ، ثم تنتقل إلى الجزئيات ، ونحن نهوى المطلق
ثم ننصرف بعد ذلك إلى التفصيلات ، بينما العقل الأوروبي يتبنى منهجا
معاكسا تماما ، حين يبدأ بالجزء وينتهى إلى الكل .

نحن نبدأ مثلا بالايان ، ثم تنتقل إلى جزئيات القضية (قضية
الايان) ، فنجد أن لا محل للإعراب بالنسبة لخلافاتنا العقائدية ،
ولا مجال للشك كسبب لليقين ، ولأننا نبدأ باليقين ذاته .

العقل الأوروبي على العكس من ذلك تماما ، فهو يبدأ بالجزئيات ،
وينتهى إلى الكل بعد ذلك يبدأ بالشك وينتهى باليقين ، يبدأ بالحرية
المطلقة للفكر والاعتقاد وينتهى إلى الايمان بالاقتناع العقلي والقلبي معا .
هذا المنهج ليس مقصورا فقط على قضية الايمان مثلا ، لأنه لو اقتصر
عليها لكان الأمر وكان محلا للقبول ، لكنه يصبغ حياتنا الفكرية كلها ،
فنحن أهل نتائج ولسنا أهل أسباب ، وإذا استعرنا التشبيهات العامة ،
وهي تشبيهات بليغة ، لقلنا إننا أنصار منهج (هات من الآخر) ، ولسنا
أبدا أنصار منهج (هات من الأول) ..

منذ أيام قرأت لكاتبة في إحدى الصحف اليومية واسعة الانتشار ،
حديثا عن حوادث الاغتصاب ، سردت فيه عددا من الحوادث نقلتها عن
الصحف اليومية ، وكانت المصادفة أنها جميعا في حي مصر الجديدة
الراقى ، ثم عرضت في نهاية عرضها للحوادث ، تعقيبها على ما حدث ،

وصاغته في صورة تساؤل عن السبب في عدم إعدام المعتصبين (علنا) ،
وفي ميدان عام من ميادين مصر الجديدة ، -ويبدو أنها فركت يديها فرحا
عندما توصلت إلى هذه النتيجة حيث أردفت قائلة ما معناه أن كل شيء
يصبح بعد ذلك على ما يرام .

الكاتبة توقفت أمام الجرم والعقاب الذي تصورته ، وأعتقد أن هذا
منهج الكثيرين في مواجهة أمثال هذه المشكلات ، رغم أن الترتيب
المنطقي لمثل هذه المناقشة يجب أن يبدأ بسؤال عن سبب تكرار هذه
الظواهر ، وسوف تأتي الإجابة واضحة ، ومتمثلة في مشكلة جنسية حادة
يعانيها شباب أيامنا هذه ، حيث إمكانية الزواج شبه مستحيلة ، وإمكانية
الحصول على مسكن ملائم أكثر استحالة .

السؤال المنطقي التالي لابد أن يكون عن سبل علاج هذه الأسباب ،
وبعد هذا فقط يمكن الحديث عن الجريمة وعن العقاب ، وأكد أجزم أن هذا
هو منهج معالجة مشكلة كهذه في أي بلد متقدم .
جميع مشكلاتنا تعالج على هذا النحو ، بدءا بالارهاب السياسى الدينى
ومرورا بالفتن الطائفية وانتهاء بادمان السموم البيضاء .

وتبقى الازدواجية :

وهي آفة قديمة ، بل أخشى أن تكون متغلغلة في نخاعنا منذ أمد بعيد ،
فتحن نتعامل في كثير من الأحيان مع الظواهر كشخصيتين منفصلتين
تماما ، ولم يصل إلى أسماعنا بعد مفهوم أن المنطق لا يتجزأ . وأوضح
الأمثلة على ذلك . شباب الجماعات الظلامية وهي جماعات تنتشر في
الكليات العملية ، مثل الطب والهندسة ، وتفرز أحيانا ظواهر لا يملك
المرء أمامها سوى الابتسام والتعجب أحيانا والحزن دائما .
طالب السنة الخامسة في كلية الطب في جامعة أسيوط ، الذى كان

يذهب إلى المشرحة راكبا ناقة . طالبة كلية الطب (أيضا) التي تسأل
وهي في السنة النهائية عن حرمة تشريح جثة (الميت) الذكر ، وعن حل
أو حرمة أن تخلع ملابسها أمام (كلب) ذكر .. شباب الجماعات وأغلبهم
طلبة جامعات ، الذين حرموا بيع القرع والباذنجان أو شرائها في
سما لوط بحجة أن القرع يحشى وأن الباذنجان يحشى ، وأن الحشو رمز
جنسى يثير لواعج النساء ، وأخرى بهن أن يمتنعن عن التعامل معه ، أخذ
بالأحوط ..

إلى هذا المدى تصل الازدواجية ..

الطالب أو الطالبة يتعلمان علوم الهندسة والطب ، بعقل علمي منهجي
منطقي ، ويتعاملان مع ظواهر الدين والحياة بغياب لهذا كله ، وبشخصية
أخرى لا علاقة لها بالشخصية الأولى من قريب أو بعيد ..

الشيء بالشيء يذكر ، فأكثر ما يثير انتباهي ، ويلفت نظري ،
ويجعلني أضرب أخماسا في أسداس ، يتمثل في تلك (الحقيقة) المفزعة ،
التي توحى بوجود ارتباط مؤكد ، بين انشاء جامعة إقليمية ، ونشر
التطرف والارهاب والتعصب .

يظل الاقليم أو المحافظة ، هادئا ، حتى يتم افتتاح جامعة في الاقليم ،
فيبدأ التطرف ، ويشتعل الارهاب ، وتنتشر الفتن .

منطق عجيب وعكسي ، فالمفروض أن يكون إنشاء الجامعة حربا على
هذا كله ، ولكن ما يحدث في بلادنا هو العكس تماما ، ولا تفسير لذلك
سوى بازدواجية الشخصية ، وباصرار بعض الشباب على أن يتعلموا
 ويفهموا بعقولهم ، ثم يتركوا هذا كله على باب الجامعة ، والمؤكد أن
ازدواجية الشخصية عيب قديم ، فقد لاحظته مفكر وفيلسوف لبناني هو
الأستاذ حسين مروة (الذي لقي مصرعه على يد المتطرفين في لبنان)

حيث ذكر في بحث له عن (جابر بن حيان) أنه شعر وهو يدرس تراث العالم العظيم ، أنه أمام شخصيتين متناقضتين تماما ، فهو في مجال البحث العلمي عقلاني ومنطقي وموضوعي ، وهو نفسه عندما ينتقل إلى مجال الفكر الديني ، يصبح منهجه خاليا من هذا كله ، فهو يتمسك بأشد التفسيرات سطحية وضحالة وغيبية ، وهو ممسك بتلابيب الخرافات وشتات الشعوذة .

والحديث عن الازدواجية لا بد وأن يمر بكلمة (لكن) ، ولا بد أن يمر بتعبير (وآه من لكن هذه) ، وهو تعبير أحسب أنني أول من استخدمه في كتاب (حوار حول العلمانية) ، ثم شاع بعد ذلك ، وسبب شيوعه فيما أعتقد أنه يمثل وصفا دقيقا لظاهرة الازدواجية ليس فقط في الفعل بل في القول أيضا .

حدثني صديق عاش في الجزائر فترة من حياته ، وعاصر أحداث الخليج أثناء اقامته فيها ، وعن أنه التقى مع أشخاص كثيرين ، خلال الأزمة ، بعضهم حصل على أرقى الشهادات العالية من الجامعات الأوروبية ، وجميعهم كانوا يبدأون الحديث عن الأزمة بداية منطقية تماما ، وعقلانية إلى آخر مدى ، فهم يتحدثون عن الشرعية الدولية ، ويعلنون رفضهم القاطع لغزو الكويت بالقوة المسلحة ، ويعيدون في هذا ويزيدون ، ثم ينطقون الكلمة اللعينة (ولكن) وبعد (لكن) هذه يبدأ حديث آخر ، لا يمت للحديث الأول بصلة ، ولا للمنطق باتصال ، وهو حديث ينتهي بمضمون عكسي تماما ، حيث يكتشف المستمع في نهاية النصف الثاني من الحديث أن الكويت بنت ستين في سبعين ، وأنها تستحق ما حدث لها ، وأن صدام معه حق ، وأن الغزو مشروع ، وأن القضاء على دولة الكويت واجب وطني وقومي وإنساني .. فليدلي القارئ على مكان آخر في العالم ،

، يفكر فيه الناس بهذا الأسلوب ، ويتعاشون بهذا المنهج ويسلكون في حياتهم سبيلين لا رابطة بينهما ولا صلة .
الحديث عن أزمة العقل العربي طويل ، وهمه ثقيل ، وهو حديث يستحق المناقشة ، ويحتاج إلى مزيد من الحوار وما عرضناه يشمل بعض مظاهر الأزمة ، ولا بد من حديث آخر ، نعد القارئ به ، وإن كنا نعتذر للقراء مسبقا على ما نسييه لهم من ضيق أو قلق أو انزعاج ، ونخص بالذكر من يستهونهم القول بأن كل شيء على ما يرام ، وأنه ليس في الامكان أحسن مما كان ، وما هو كائن ، وما سيكون ..

هذا بلاغ للناس

كل شيء في العالم يتغير ، والحرائط السياسية اليوم تختلف عنها في
الأمس ، وغدا يوم جديد سوف يختلف كثيرا عن اليوم ، ومنذ عامين لم
يكن أحد يصدق أن ألمانيا الشرقية سوف تختفى وأن شطرى ألمانيا سوف
يتحدان ومنذ شهر واحد لم يكن أحد يصدق أن الاتحاد السوفيتي نفسه
سوف يختفى ، وأن أكبر جمهورياته وهي روسيا سوف تطلب رسميا
الاتضمام لحلف (الأطلنطي) ، وأن باقى الجمهوريات المستقلة سوف
تتبعها في ذلك ، وأن الماركسية كلها سوف تصبح تاريخا ، والمشكلة أننا
نتصور في مصر أننا خارج خريطة العالم ، وأنه يتغير ونحن ثابتون ، وأن
صراعاته وتحالفاته وراياته كلها تتبدل ، في حين أن راياتنا وتحالفاتنا
وصراعاتنا أزلية لا تعديل فيها ولا تغيير .

فلنفاجئ القارئ بالقول بأن حجم التغيير في قوى منطقة الشرق
الأوسط وصراعاته ، لا يقل شراسة أو ضراوة أو حجما عما يحدث في عالم
الشمال ، فالصراع الحاضرى الذى ظل زمنا طويلا ، قائما بين مصر
والبلاد العربية في جانب ، وإسرائيل في جانب آخر ييشر بالانتهاء في
المدى الزمنى المنظور ويتحول إلى اتجاه آخر لم يحسب له أحد حسابا من
قبل ، فالصراع القادم سوف يكون مع أقصى الشرق ، وبالتحديد مع
الجمهورية الإيرانية الإسلامية ، وهو صراع واضح الملامح تماما بين قوى
الحضارة وقوى الردة الحضارية ، أما الصراع المسلح فسوف يتجه إلى
الجنوب حيث مصادر المياه ، وليس إلى الشرق أو الغرب وإذا كان

جورباتشوف قد أعاد (تفنيط) أوراق الكوتشينة في عالم الشمال ، فإن صدام حسين قد فعل الشيء نفسه في عالمنا الشرق الأوسط ، وليس علينا الآن سوى حصاد نتائج ما حدث .

لقد انقشع الآن غبار المعارك تماما ، وأصبح واضحا للجميع أن وجود صدام حسين على رأس العراق القوي قبل حرب الخليج ، كان صمام أمان في المنطقة ، وكان قوة توازن في مواجهة إيران وبخروج العراق من ساحة التوازنات الإقليمية ، أصبحت مصر هي حائط الصد الوحيدة ، في مواجهة القوة الايرانية العملاقة بالمقارنة مع الامارات الخليجية ، التي سيطر عليها الهلع ، ومعها حق ، والمفاجأة الحقيقية في هذا الصراع أن إيران قد تخلت عن منطق الدفاع ، وتسلمت زمام المبادرة للهجوم على مصر ، واستطاعت أن تخترق نظام البشير في السودان من خلال سيطرة الجبهة الإسلامية عليه ، لكي تهدد حدود مصر الجنوبية .

الذي لا يصدق عليه أن يتابع ما حدث في زيارة رافسنجاني للسودان الشقيق ، وكيف تجمع مئات الألوف من المطحونين للهتاف له ، وللمباركة ثورته ، وللهتاف أيضا ضد إعداء الإسلام (يقصدون مصر) من أنصار الاستسلام (يقصدون السلام) ، ولا تسل عن الحضارة ولا عن حقوق الانسان ، فالذي لا يجد ما يأكله على استعداد لأن يضحي بهذا كله ، والذي يعاني من المجاعة ليس على استعداد لسماع مبادئ فولتير وروسو وبيكون ومونتسكيو ، وقد لوح رافسنجاني بالمال والبترول والسلاح ، وهذا انتقل الصراع المتوقع بين مصر بما تمثله ، وإيران بما تمثله ، نقلة هائلة ، لأنه لم يعد حديث تاريخ (الوحدة العربية أو الوحدة الاسلامية) ، بل تحول إلى حديث جغرافيا ، بكل ما تمثله الجغرافيا من تأثير وثقل ، فمصر لا تتحمل امتداد أصبح الصورة الايرانية إلى حدودها الجنوبية .

لعل القارئ الآن منزعج كل الانزعاج ، لما يحمله هذا الحديث من
تصورات تصطدم بما استقر في ذهنه ، فقد تعودنا أن ترتبط كلمة الصراع
باسرائيل وألا تنصرف إلى غيرها ، وقد تعودنا أن ترتبط كلمة
(الشقيق) بالحديث عن السودان ، وأن ترتبط كلمات التعاون والأخوة
بالحديث عن الدول الاسلامية غير العربية ، ونحن نستأذن القارئ في
عرض عناصر معادلة الصراع الجديدة عليه ، ومن خلالها يمكنه أن يستنتج
ما يشاء .

هذه حقائق الموقف الجديد ..

١ - وقوع السودان تحت حكم الجبهة الاسلامية بقيادة حسن الترابي
وتحوله إلى مستقر للأصوليين والارهابيين ، تحت شعارات الثورة
الإسلامية .

٢ - انتقال التعاون الإيراني السوداني إلى مستوى جديد يتمثل في
الدعم بالفكر والمال والبتروول والسلاح ، وليس هناك ما هو أشد جاذبية
لأنصار تصدير الثورة الإسلامية في إيران ، من سقوط مصر ، زعيمة العالم
الاسلامي السني ، في قبضة أفكارهم المتخلفة .

٣ - تكريس انفصال الجنوب السوداني من خلال دعم معسكر
الشمال السوداني بالسلاح ، ومن خلال دفع الشمال إلى الاصرار على
تطبيق الشريعة ، وهو المدخل المؤكد للانفصال ، والغريب أن أدبيات
الجبهة الاسلامية في السودان تتحدث عن انفصال الجنوب بقدر هائل من
الارتياح ، وتباركه باعتباره إزاحة لعبء ثقیل عن كاهل السودان ،
وتتعمد صب الزيت على النار بالحديث عن (أسلمة) الجنوب .

الذي يجب أن يتعرف عليه القارئ هنا ، أن انفصال جنوب السودان
ليس هما سودانيا صرفا ، بل هو هم مصري في الأساس ، ففي جنوب

السودان يقع مشروع قناة جونجلي ، الذي يوفر ١٨ مليار متر مكعب من المياه سنويا توزع مناصفة (بناء على اتفاقية موقعة) بين مصر والسودان ، أى أن نصيب مصر من عائد هذا المشروع هو ٩ مليارات متر مكعب تحصل عليها سنويا .

إن معنى هذا ببساطة أن مشروع قناة جونجلي هو مشروع القرن بالنسبة لمصر ، ويكفى أن تذكر أن السد العالي الذى تنظر إليه على أنه أكبر مشروع انشائي فى تاريخ مصر ، لا يوفر لمصر سوى سبعة مليارات سنويا وفقا لاتفاقية السد العالي بين مصر والسودان ، وهى الاتفاقية غير العادلة ، التى منحت مصر ٧ مليارات ومنحت السودان ١٤ مليارات (؟) . مشروع قناة جونجلي إذن هو أخطر مشروع تنموى ، مستقبلى فى التاريخ المصرى الحديث . والعائد منه وفق أية حسابات يتجاوز عائد أى قطاع إنتاجى أو خدمى فى مصر ، وسواء كان عائد البترول أو السياحة أو تحويلات المصريين من الخارج ، والفاقد من تعطيله خلال السنوات العشرين الأخيرة يتجاوز حجم مديونية مصر ، واستمرار تصاعد مشكلة الجنوب يهدد باستمرار توقفه ، فى حين أن انفصال الجنوب يهدد بإلغائه بالكامل ..

- ٤ - وصول جبهة الانتقاد الإسلامية إلى مقاعد الحكم فى الجزائر ، وهو مؤشر خطير يهدد حدود مصر الغربية ، خاصة إذ أضفنا إليه ما يحيط بالنظام الليبى من تهديدات جدية من الولايات المتحدة وأوروبا الغربية ، ومعلوم طبعاً أن ليبيا هى الفاصل الجغرافى الطبيعى بين مصر والجزائر ، ومعنى هذا أن حدود مصر الغربية ملتصقة بنظام مهدد . (بالشدة والفتحة على الدال) يليه مباشرة نظام مهدد (بالكسرة والشدة على الدال) .
- ٥ - دعم بعض دول المشرق العربى للجبهة الإسلامية فى السودان . وجبهة الانتقاد فى الجزائر على الرغم من موافقها فى حرب الخليج ،

والثابت يقينا أن هذا الدعم كان قائما قبل حرب الخليج ، لكن المثير للانتباه حقا هو استمراره بعدها ، ولا داعى للخوض كثيرا في هذه الجزئية ، حتى لا نخرج عن الخط الأساسى للحديث .

٦ - البدء الفعلى فى مباحثات السلام بين الدول العربية وإسرائيل الأمر الذى يشير إلى اتجاه الصراع العربى الاسرائيلى إلى الاضمحلال وإلى الانتهاء بتحقيق السلام العادل الشامل . وبرغم أن ذلك فى تقديرنا سوف يستغرق وقتا طويلا ، لكنه أمر لا مفر منه فى نهاية المطاف ، ولاشك أن ذلك يسهم فى دعم السلام المتحقق بين مصر وإسرائيل فى المدى الطويل ، لكنه فى المدى القصير يسهم فى تأمين الحدود الشرقية ، ويدفع إلى النظر إليها على أنها حدود السلام (العازل) ، الذى يؤمن الجبهة الشرقية من أية أخطار محتملة .

٧ - بدء التحرشات الفعلية بين السودان ومصر ، من خلال الحديث عن انشاء سدود سودانية على نهر النيل داخل السودان ، وقد بدأ ذلك بصورة جدية بعد زيارة رافسنجانى للسودان ، وأنا شخصا لم أفهم تصريح وزير الرى المصرى بعد لقائه بوزير الرى السودانى ، عن حق السودان المطلق فى انشاء السدود على مجرى النيل ، مادامت تتم داخل السودان ، ولا تؤثر على حصة مصر من مياه النيل .

هذا حديث مهندسين وليس حديث ساسة ، فمن قال إن انشاء سد على نهر النيل فى السودان ، أو حتى فى أوغندا هو مجرد مشروع وطنى ، ومن قال إن ما يوفره أى مشروع داخل أى قطر هو حق مكتسب للقطر الذى يتم فيه المشروع وحده .. بهذا المقياس فإن ما يوفره السد العالى يعتبر حقا للمصريين وحدهم .. وبهذا المقياس أيضا فإن ما توفره قناة جونجلي يعتبر حقا للسودانيين وحدهم .. إن انشاء سد على نهر النيل فى أية دولة من الدول المطلة عليه هو مشروع اقليمى وليس مشروعا وطنيا

وهو أمر لا يمكن السماح به دون موافقة دول المصب عليه ، ودون المشاركة في عائدته ، ولهذا حديث طويل نرجئه أيضا حتى لا نخرج مرة ثانية عن الموضوع .

باختصار شديد ، أصبحت حدود مصر الجغرافية في حاجة لقراءة جديدة .

- شمال يطل على البحر المتوسط حيث أوروبا على الضفة الأخرى منشغلة ببناء عالمها الجديد .

- شرق يحده البحر الأحمر ، والسلام العازل مع إسرائيل .

- جنوب يتبلور فيه خطر محقق .

- غرب يتشكل فيه خطر محتمل ، يتنامى بخطى متسارعة .

وهكذا يتصرف الإيرانيون ..

فهم أصحاب فلسفة واضحة ومحددة . تمكن صياغتها على النحو التالي ..

- مشاركة مصر في أمن الخليج ، سوف تقابلها مشاركة ايران في أمن البحر الأحمر .

- مشاركة مصر في الأمن الخليجي تحت راية القومية العربية ، سوف يقابلها مشاركة ايران في دعم النظام السوداني وجبهة الانقاذ الجزائرية والجماعات الاسلامية تحت راية الثورة الاسلامية .

والأخطر من ذلك يتمثل في الرسالة الأخيرة لزيارة رافسنجاني للسودان والتي تزامنت مع أحداث ليبيا والجزائر ، وهي رسالة موجزة لكنها واضحة كل الوضوح .

نص الرسالة (نحن لا نكتفى هذه المرة بموقف الدفاع أو رد الفعل ،

بل ننتقل الآن إلى موقف جديد ، هو موقف الهجوم ، والحصار جنوبا وغربا .. نحن أمامكم ، والبحر خلفكم . فماذا أنتم فاعلون ؟) .

ولابد من مراجعة الموقف العربي ..

فهو يكمل جوانب الصورة ، فليس صحيحا أن العالم العربي ، كما كنا نتغنى دائما ، منشغل بهوم مشتركة وموحدة ، فالثابت الآن أن الهوم تفرعت واختلفت أولوياتها ، وأنها (أى الهوم) قسمت العالم العربي إلى ثلاث كتل واضحة ومحددة .

- كتلة الهم الاسرائيلي ، وهى كتلة دول المواجهة مع اسرائيل . وتشمل سوريا والأردن ولبنان وفلسطين والهم الأول لهذه الدول هو مواجهة الخطر الاسرائيلي .

- كتلة الهم الايراني ، وتشمل دول الخليج والمملكة العربية السعودية والهم الأول لهذه الدول هو مواجهة خطر انكشاف الجبهة الشرقية أمام الخطر الايراني بعد زوال التوازن بغياب قوة العراق العسكرية عن الساحة ، وعدم وجود (معدات) اقليمية قادرة على مواجهة أحلام السيطرة والسطوة والهيمنة .

- كتلة الهم الإرهابي المتستر بشعارات الدين الاسلامي ، وتشمل الدول العربية الأفريقية ، مع حساسية خاصة لدول الشمال التي تشمل مصر ودول المغرب الغرب ، والهم الأول لهذه الدول هو مواجهة هذا الخطر بعد تصاعده في الجزائر والسودان ، وداخل هذه الدول ذاتها .

وهكذا تحدد الصراع ..

وهو صراع يراهن عليه كاتب هذه السطور .
وهو أيضا صراع يزعج الكثيرين ممن يتصورون أن عالم الشمال هو

عالم التغيير وإننا أهل الثبات في كل شيء ، فصراعاتنا أبدية ، وعدواتنا أبدية وصداقاتنا أبدية ، وكل هذا أضغاث أحلام ، فالصراع العربي الاسرائيلي في طريقه للتآكل منذ معاهدة السلام بين اسرائيل ومصر ، وهو يتسارع في تآكله بعد عقد مؤتمر السلام ، والصراع المصري الايراني هو الصراع القادم بغير شك ، والصراع هنا كما ذكرنا صراع حضارى ، أما الصراعات المسلحة ، فمكائنها في الجنوب حيث مصادر المياه ، وإذا لم ندرك هذا من الآن . وإذا لم نسع بكل السبل لتأمين منابع مياه النيل ومساره ، فسوف نخطئ خطأ جسيما ولسنا في هذا مخترعين أو مبتدعين ، فقد أدركه قبل ذلك محمد على والحديو اسماعيل وكان معها كل الحق .

وتبقى بعض التساؤلات ..

وهي تساؤلات بالغة الأهمية ..

أولها عن موقف القوة العظمى مما حدث ويحدث ، وهل هي غائبة عنه أم أنها مشاركة فيه ، وأعتقد أن إجابة السؤال واضحة .
وثانيها عن الدور الغريب والشاذ الذى لعبته وما تزال تلعبه بعض الدول الخليجية في مساندة التيارات السياسية الارهابية ، المستترة خلف شعارات الدين ، برغم مواقف هذه التيارات في أزمة الخليج ، وإذا كان القارئ قد لاحظ أننى أتلكأ كثيرا عند عهد محمد على والحديوى اسماعيل ، لاعتقادى بأن في تاريخهم دروسا لا بد من استيعابها لتفسير ما يحدث اليوم . فإنه من المؤكد أن بعض الدول تتلكأ أكثر عند هذه الفترة ، ولا تتسنى حساباتها معها ، وتحاول تصفيتها اليوم بأسلوب مختلف ، وهو أمر يبعث على الأسى إن كان صحيحا ، وأغلب الظن أنه كذلك .

وثالثها عن سبب عدم تغيير مؤشر البوصلة في السياسة المصرية

العربية ، فالثابت أن الاتجاه غربا قد أصبح ضرورة ، وأن الاهتمام بدول المغرب العربي قد أصبح لازما ولمصر من رصيدها الثقافي والحضارى والفكرى والفنى ما يؤهلها لأداء دور مميز ومطلوب فى هذه المرحلة ، وإذا كان أهل المغرب العربى (فى تونس والمغرب على سبيل المثال) ، يشكون من جهل المصريين بانجازاتهم الفكرية والحضارية ، نتيجة توجه أنظار المصريين إلى المشرق العربى ، فقد آن الأوان لتصحيح هذا الخطأ ، استنادا إلى رصيد الحب فى نفوس هذه الشعوب لمصر وللمصريين وهو رصيد هائل بكل المقاييس .

ورابعها يتمثل فى التساؤل عن سر هذا الحياء غير المبرر والحساسيات المبالغ فيها ، والتى تحجم مشاركة مصر فى الحياة السياسية السودانية . فى السودان حزب اتحادى هو أحد أقوى الأحزاب السودانية التقليدية .. وفى مصر نحو ثلاثة ملايين سودانى يشعرون أنهم فى بلادهم . والمعارضة السودانية موجودة فى مصر ، والسلطات المصرية تعاومها بتحفظ شديد .

والجسور بين مصر وجنوب السودان قائمة ومن الممكن تميمتها . والقوى السياسية العربية وغير العربية تلعب دورا فى السودان ، أما مصر فتكتفى فى أغلب الأحيان بموقف المراقب ، وقد آن الأوان لتغيير هذه النظرة .

وخامسها يتمثل فى التساؤل عن السر فى عدم مراجعة سياسة المواجهة مع التيارات الارهابية الدينية ، بدءا بالاعلام وانتهاء بالتعليم ، ومرورا بالممارسة السياسية اليومية ، ولا بد أن يكون هذا مجالا لمقال آخر مستقل ..

وسادسها يتمثل فى تساؤل مطروح اليوم ، بعد انتهاء أزمة الخليج

وتكشف غبار المعركة عن واقع جديد ، عن الموقف الصحيح مما يحدث للعراق اليوم .

إن كاتب هذه السطور كان من أشد الناس هجوما على صدام حسين وعلى موقفه من الكويت خلال الأزمة الأخيرة ، والعراق اليوم يدفع ثمن جريمته الشنعاء ، لكن انهيار العراق الشامل ليس في مصلحة أحد ، وليس بالتحديد في مصلحة مصر ، ولا في مصلحة دول الخليج ، بل إن وجود صدام حسين الآن ، برغم كل مساوته وأخطائه ، أهون بكثير من البديل المتاح حاليا ، وهو قيام حكم شيعي في العراق أو في جنوبه .

إن الحيلولة دون الانهيار الشامل للعراق ، والمحافظة على قدر من تماسكه في مواجهة إيران ، ضرورة لكل نظم المنطقة بما فيها دول الخليج ، وهو ضرورة أيضا لمصر ، ولا مفر أمام السياسة المصرية لأخذ زمام المبادرة في الصراع الجديد ، من اغلاق ملف حرب الخليج ، وفتح صفحة جديدة ، ومن مساندة المعارضة السودانية ومن توثيق الروابط السياسية والثقافية مع تونس والمغرب ، وبعض هذا الدواء مستحب ، وبعضه مر ، لكنه في النهاية ضرورة سياسية ، إذا كنا نفهم السياسة بمنطق الحساب وليس بمنطق الوجدان والعواطف .

أقول قولي هذا وأنا أعلم أن ما أكتبه يفتح على أبوابا كان أولى بي أن أسدها لكنني أدرك أن سبيل العقل يصطدم دائما بالوجدان ، وهو قدر على أية حال .

ونعود إلى بداية المقال ..

فقد قلنا في بدايته إن كل شيء في العالم يتغير ، ونقول الآن إن كل شيء في الشرق الأوسط يتغير أيضا ، والذي لا يصدق ذلك عليه أن

يراقب ويتأمل .. فمن يصدق أن العراق قد انتهى كقوة عسكرية وكدور
سياسي مؤثر عن المنطقة كلها .
ومن يصدق أن الجمهورية الإيرانية الإسلامية قد بدأت تعيد إلى
الأذهان ذكريات التتار في زمن غابر .
ومن يصدق أن العسكرية المصرية مطالبة اليوم بالنظر إلى الجنوب ،
وفتح خرائطه ، وهو ما لم تفعله منذ أيام الخديو إسماعيل .
ومن يصدق أن دائرة حصار قوى الردة الحضارية تكاد تطبق على مصر
جنوبا وغربا .
ومن يصدق أن أحدا لا يناقش ذلك ، ولا يتحدث عنه ، ولا يتطوع
بتحليل مفرداته وكأنه يحدث في جمهوريات البلطيق .
هذا هو الأمر المحزن حقا ، وهذا هو مالا أصدقه ، لكنه واقع ..
من حيث يصدق هذا كله ؟ ..
على أية حال ، هذا بلاغ للناس .

قصير جميل والله المستعان

هذا مقال اضطررت أن أختصر نصفه على الأقل ، تجنباً للقليل والقال ، واحتراماً منا لمن لم يحترمونا ، وتترها من جانبنا لصرح عال ، والقارئ الفطن سوف يدرك علة الاختصار ، ومضمون ما أختصرناه ، حين ينتهى من قراءة المقال ..

ونبدأ بمقدمة ..

ففى طبعة فاخرة من سلسلة (قضايا إسلامية معاصرة) ، أصدرت الأمانة العامة للجنة (العليا) للدعوة الإسلامية (بالأزهر الشريف) ، كتاباً من خمسمائة صفحة من الحجم المتوسط ، ثمنه ثلاثة جنيهات فقط ، وعنوانه (حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب) من تأليف الأستاذ (الدكتور) يحيى هاشم حسن فرغلى ، (العميد) السابق لإحدى كليات أصول الدين والدعوة بالأزهر الشريف ، والرئيس حالياً لقسم الدراسات الإسلامية بجامعة الإمارات العربية المتحدة ..

باسم الأزهر الشريف إذن صدر الكتاب ..

وتحت إشراف (أعلى) لجان الدعوة تمت مراجعته ونشره ..
ويشمن يقل كثيراً عن التكلفة تم بيعه وتسويقه لحتى (نعم
الفائدة) ..

وقد تصورت نتيجة لما سبق ، أنتى سوف أقضى بضع ساعات مع فكر مضى ، وعلم واسع ، وتدين عميق ، وهذا كله يسعد ويمتع ، مهما بلغت

شقة الخلاف في الرأي ، واعترف - كما سيرى القارئ - أنني أخطأت
الظن .

الكاتب الذي لم يقرأ ..

لقد ذكرني الكاتب في أكثر من موضع ، وشرفتني بالإشارة إلى اسمي
بلقب (العلماني الشهير) ، ويؤسفني أنني لن أستطيع رد التحية بمثلا ،
ومخاطبة الكاتب بلقب (الإسلامي الشهير) ،،، لسبب لا يتعلق به ، بقدر
ما يتعلق بالإسلام ، دين العقل والعلم وأمانة النقل وتزاهة النقد وشرف
الكلمة وموضوعية التناول ..

يقول الكاتب (ص ٣٠٧) بعد استعراض لاضطهاد المسلمين في
ألمانيا وبلغاريا ما نصه (وهلا قرأ ذلك الدكتور فرج فودة الذي يعاير
الاتجاه إلى الإسلام بخطأ ارتكبه ابن عمر بن الخطاب ، إذ أخذ يعتب
قاتل أبيه عبد الرحمن بن ملجم قبل أن ينقذ فيه القصاص ؟) وفوق
الكلمة الأخيرة يوجد رقم (٣) ، الذي توضحه المذكرة التفسيرية
بعبارة (الحقيقة الغائبة - د . فرج فودة) ، دون ذكر رقم الصفحة ..
ومعذرة للشيخ إذا قلنا له مايلي :

أولا : إن الذي قتل عمر بن الخطاب ليس هو عبد الرحمن بن ملجم ،
بل هو فيروز غلام المغيرة بن شعبة ، وكنيته (أبو لؤلؤة) ، وهذا معلوم
ليس فقط لمن قرأ التاريخ ، بل أيضا لمن سمع عنه ، ومعنى هذا ببساطة
أنه يستحيل على مثل أن يقع في هذا الخطأ ، لا في كتاب الحقيقة الغائبة ولا
في غيره ..

ثانيا : إن عبد الرحمن بن ملجم هو قاتل الإمام علي ، بعد مقتل عمر
ابن الخطاب بنحو سبعة عشر عاما كاملة ، وأظن أن هذا معلوم للجميع
ياشيخنا الجليل ، وأحرى أن يكون معلوما لي ولك ..

ثالثا : إن ابن عمر لم يعذب قاتل أبيه يا شيخنا الجليل ، لسبب لا أظن أنك تجهله ، وهو أنه لم يقبض عليه حيا ، حيث تحدثنا كتب التاريخ أنه خلال محاولة الإمساك به قتل سبعة ثم انتحر بخنجره .

رابعا : إن قاتل الإمام على ونقصد به عبد الرحمن بن ملجم ، هو الذى قبض عليه حيا ، وهو الذى عذب رغم نهى الإمام (على) عن ذلك قبيل وفاته ، والذى عذبه لم يكن ابن عمر يا شيخنا الجليل ، بل كان عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب ، وقد عذبه كما تذكر كتب التاريخ يقطع يديه ثم قطع رجله ، ثم سمل عينيه بحديد محمى ، ثم قطع لسانه قبل أن يقتله .. خامسا : إن تبريرك ما حدث ، وهو خطأ لا يغتفر بمقاييس الإسلام ، الذى ينهى عن المثلة ولو بالكلب العقور ، بتجاوزات حدثت فى ألبانيا وبلغاريا ، أمر يبعث حقا على الحزن ، فالإسلام يعلو ولا يعلو أحد عليه يا شيخنا الجليل ، ودعك يا شيخنا من شهرة ذبح العلمانيين وتفنيدهم آرائهم ، وتخيل معى أن شخصا سرق متجرا فى القاهرة ، فإذا بأحد العلماء يبرر ذلك بقوله :

وماذا فى ذلك ؟ أنهم سرقوا بنكا فى نيويورك ، أيمكنك أن تقبل هذا التبرير بضمير مستريح ، أم أنك ستقف معنا وتتساءل ، أى منطق عجيب هذا ؟ وأى قياس ؟ ..

سادسا : من الذى أوهمك يا شيخنا الجليل أننا كنا (نعاير) الاتجاه إلى الإسلام حين ذكرنا قصة عبد الرحمن بن ملجم ؟ لست معى أولا يا شيخنا فى أن لفظ (المعايرة) لا يليق بحوار العلماء ثم ألم يكن من حق القارئ عليك أن تقرأ ما كتبناه جيدا ، وتفهم قصدنا منه حتى لا يشطح بك الخيال إلى دروب (المعايرة) ؟ لقد ذكرنا القصة لكى تعرض على القارئ سلوك عبد الرحمن بن ملجم عند تعذيبه ، وكيف أنه لم يتأوه ، ثم كيف انتفض حين حاولوا قطع لسانه ، فلما سألوه ، قطعنا

يديك ورجليك وسملنا عينيك فلم تعترض ، ما بالك تفعل عند قطع لسانك ، كانت إجابته « لا أريد أن يفتر لسانى لحظة واحدة عن ذكر الرحمن قبل أن أموت » .

هذا ما تعجبنا له ، وما ذكرناه وعلقنا عليه ، بأن ابن ملجم كان نموذجاً للإيغال فى الدين بغير رفق ، وسوء الفهم وسوء التأويل ، إلى الدرجة التى قتل معها على بن أبى طالب ، وهو يتصور نفسه من غلاة الصالحين ، وما أكثر ما نشهد فى زماننا هذا أمثال هذه النماذج ، التى تستحق النقد والرفض والتنديد .. درس كهذا يا شيخنا الجليل كان أولى بك أن تهنتنا عليه ، وتؤيدنا فيه ، بدلا من اتهامنا بالمعايرة .

سابعاً : وهذا هو الأهم ، فما نقلته عنا لم يرد فى كتابنا ، وإذا كنت تحسن الظن بنا حقاً ، وتربى فينا قدراً من الشهرة ، أفلم يكن من قبيل حسن الظن أن تحسن النقل ، وأن توثقه ، وألا تخلط بين واقعيتين ذكرناهما ولا علاقة بينهما ، الأولى فى صفحة ٦٨ عن تعذيب ابن جعفر لابن ملجم ، والثانية فى صفحة ٧٠ و صفحة ٧١ عن قتل عبيد الله بن عمر لثلاثة ظن أنهم شاركوا فى قتل أبيه ، أليس عجيباً أن تدمج القصتين فى قصة واحدة ، وتقيسهما على غير قياس ، وتتصور (المعايرة) على غير أساس ..

هل هذا محض مصادفة ؟

ربما التمس القارئ للشيخ قدراً من حسن الظن فى المثال السابق ، بيد أننا نقدم إليه هذه المرة نموذجاً لا يحتمل خطأ القصد ، حيث يذكر الكاتب فى صفحتى ٣١٦ ، ٣١٧ ما نصه : (ويقول العلماني الشهير ، فى تقديرنا أن نجاح هؤلاء الخلفاء ، وهو يعنى هنا حسب سياق كلامه ، معاوية رضى الله عنه ، وعبد الملك بن مروان ، والوليد بن عبد الملك ، وهشام بن عبد الملك ، الذين يحسبهم الخلفاء الأربعة من الدولة الأموية الذين

يستحقون لقب رجل الدولة ، يقول إن نجاح هؤلاء الخلفاء الأربعة !! قد ارتبط ارتباطا وثيقا بفصلهم بين الدين والدولة عند قيامهم بأمانة الحكم ..
مرحى مرحى ، ها قد جاء واحد منهم ليعلنها صريحة أن « أمانة الحكم » لا يتحقق لها النجاح إلا بانفصال عن الدين ، أى أمانة تلك ؟ أى أمانة حكم يعنى ؟ أى نجاح يعنى ؟ أى شرف ؟ وأى دولة ؟ وأى نجاح يعنيه الكاتب على حين أن واحدا من هؤلاء الأربعة « الوليد بن عبد الملك » يقول عنه العلماني الشهير فيما تسقطه من أخبار « انه قد أشتهر بالمجون ، وبالشراب ، وباللواط ، وصدق أو لا تصدق يرشق المصحف بالسهم ، وكان إلى جانب ذلك شاعرا مطبوعا بحسن اختيار ألفاظه ورويه وإن بعضا من شعره وبعضا من قصصه لا نستطيع روايته لوقاحة ألفاظه ، وأنه في تلوطه راود أخاه عن نفسه » .

هكذا قالوها وقله الحمد صريحة ..

تلك هي الدولة الناجحة التي يريدونها ، ذلك هو النجاح ، ذلك هو رجل الدولة الذي لا يكون كذلك إلا بالبعد عن الدين !!!
تلك هي دولتهم ، ولكنها لا تكون دولة الإسلام بحال ..
إلى هنا تنتهي الفقرة التي نقلناها حرفيا عن الكاتب ، والتي حاول تأكيد صحتها بإشارة في المذكرة التفسيرية نصها (انظر الحقيقة الغائبة ص ٨٩ ، ٨٦ ، ٨٧) ..

فليستعد القارئ معنا لسماع الرد ، وليهيئ وجدانه لما هو أكثر من التعجب ، وأشد من الأسف ..

أولا : يذكر شيخنا الجليل أنني كتبت عن (الوليد بن عبد الملك) أنه (أشتهر بالمجون وبالشراب واللواط ... الخ) والذي يقرأ ذلك لا يتأبه الشك في صحة النقل ، فالاسم واضح ، والأقواس موجودة ، وأرقام الصفحات مذكورة ، والكاتب يربط بين هذا القول في حق الوليد بن

عبد الملك وبين ما ذكرناه من مدح فيه باعتباره واحدا من أعظم خلفاء بني أمية ..

فليسمح لنا الشيخ الجليل أن تتحداه بقولنا إتنا لم نكتب حرفا واحدا مما ذكره في حق (الوليد بن عبد الملك) ..

وليسمح لنا أيضا بأن نوضح له معلومة لا تخفى على المبتدئين في قراءة التاريخ ، وهي أن هناك خليفتين أمويين ، اسم كل منهما الوليد ، أولهما الوليد بن عبد الملك ، الذي مدحناه في إحدى الصفحات ، وثانيهما الوليد ابن يزيد ، الذي هاجمناه في صفحة أخرى ، وإتنا فرعنا حقا حين اكتشفنا أنه يؤمن بالحكمة الشهيرة ، وهي أن (كله عند العرب .. وليد) ، وأن فضيلته لا يعرف أن الذي يفصل بين الخليفتين ، أربعة من الخلفاء بالتعام والكمال ، هم سليمان بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن عبد الملك ، وهشام بن عبد الملك ، وإنه في تقديرنا قصد عامدا أن يخلط بين الاثنين ، وتم وضوح الأسماء ، وتسلسل السرد واختلاف الصفحات ، حتى يبدو كاتب هذه السطور في موضع الساذج الجاهل الذي يصف حاكما بأنه عظيم ، ثم يتحدث عن رشقة للمصاحف بالسهم ولواطته ، ولو رجع فضيلته ، إلى الفقرة التي نقلها ، ونسبها (بمعرفته) إلى الوليد بن عبد الملك ، لوجدنا مسبوقة في نفس الصفحة (ص ٨٦) بعبارة (وتنتقل من حديث يزيد إلى حديث ولده ، الوليد بن يزيد ، الذي ..) ثم تأتي العبارة التي ذكرها الشيخ الجليل ..

هل يعزرنى القارئ إذن إذا تصورت أن الأمر يتعدى المصادقة إلى القصد ؟ .

ثانيا : كان الوليد بن عبد الملك خليفة عظيما بغير شك ، فهو مؤسس الجامع الأموي في دمشق ، والمسجد الأقصى في القدس ، وهو موطن أركان الدولة الأموية بعد أبيه ، بينما كان الوليد بن يزيد فاسقا ماجنا ، تشهد

على ذلك ليس صفحات التاريخ فقط ، بل حادثة مصرعه ، على يد ابن عمه يزيد بن الوليد (وهو بالمصادفة ابن الوليد ابن عبد الملك) ، في محاولة منه لإيقاف مجونه وزندقته وفسقه ..

معنى هذا أننا لم نخطئ هنا ولا هناك ، وأن الذى أخطأ هو الذى وصل بين هذا وذاك ، متصوراً أن الغاية وهى الهجوم علينا ، تبرر الوسيلة وهى فساد النقل ، ولو عرف الشيخ طبيعتنا المتسامحة ، لأدرك أن الهجوم علينا لا يستحق كل هذا العناء ..

ثالثاً : ما الذى يغرى كاتباً له مكانته العلمية والدينية ، بذلك الموقف الذى امتلأت به صفحات الكتاب ، والذى هاجم فيه ليس كاتب هذه السطور فقط ، بل رموزاً أدبية وفكرية شائعة ..

لقد هاجم الشيخ على مدار صفحات الكتاب ، الأستاذ نجيب محفوظ ، والدكتور زكى نجيب محمود ، والدكتور فؤاد زكريا ، وصورهم وتصورهم أعداء للإسلام ، وشياطين تتذرع بالعلمانية لهدم الدين الحنيف .

أفهم أن يحدث هذا من كاتب مبتدئ ، ومن دار نشر ، من تلك الدور التى نعرفها وتغصب أنفسنا على قراءة ما تنتجه ، أما أن يحدث ذلك من كاتب وقور ، ودون دليل مذكور ، وبعد مراجعة علماء أفاضل ، فهذا يبعث على العجب حقاً .

ويبقى أغرب ما قرأناه ..

وقد أرجأناه إلى نهاية المقال ، فقد هينى للشيخ الفاضل أن موقفه الصحيح ، يجب أن يكون حيث لا تكون ، وحيث الرفض لكل ما نكتب ، حتى لو كان ما ذكرناه حقاً معروفاً ، وحقيقة مشهورة ، وموقفاً موثقاً لا لبس فيه ولا غموض ، وقد أدى به ذلك ، وهو متكرر على مدى

صفحات الكتاب ، إلى مواقف لا يحسد عليها أبدا ، تذكر واحدا منها للقراء .

كاتب هذه السطور أنتقد الحجاج بن يوسف الثقفى ، سفاح بنى أمية الشهير ، وقاتل الصالحين ، وراشق الكعبة بالمنجنيق ، وهنا عز على الشيخ الجليل ألا يتخذ موقفا منى ومنه ، فماذا يظنه القارئ قد فعل . لقد أنهال الشيخ الجليل على الحجاج بن يوسف الثقفى بالمدح ، وتفنن فى الحديث عن صلاحه وتقواه ووورعه وزهده ، وصدق أو لا تصدق أيها القارئ ، فقد تصور الشيخ أننا مادمنا قد هاجمنا الحجاج ، فلا بد أنه أحد خلفاء المسلمين ، ولأنه لا يعرف ما يعرفه عامة القراء ، وليس العلماء ، من أن الحجاج كان واليا وقائدا للجيش ، فى عهد عبد الملك بن مروان وولده الوليد ، فقد أندفع يحكى القصص عن صلاح الرعية وغنى الناس فى (خلافته) .

فليقرأ القارئ معنا ما ننقله حرفيا من كتاب الشيخ العظيم ، العميد السابق لكلية أصول الدين ، (ص ١١٧) حيث يقول (ولما مات الحجاج بن يوسف الثقفى خلف مصحفا وسيفا وعشرة دراهم فضة ، فلا يجد مستحقا يدفعها إليه ، لأن الناس كلهم كانوا قد أصبحوا فى خلافته - أغنياء) .

مرحى مرحى يا شيخنا العزيز .

هذا إذن هو النموذج الرائع للحكم الإسلامى الذى تلقىه فى وجوهنا . هذه هى الحجة المفحمة التى يواجهنا بها أنصار الحكم الدينى ودعاة الخلافة الإسلامية .

الحجاج بن يوسف الثقفى إذن هو الحل ، والنموذج ، والمثال ، والقدوة ، وفضائله هى النموذج لدولة الإسلام التى يدعون إليها أمثالنا من الخطاة العصاة .

واللهم رحمتك ..

فماذا ينتظر متى هذا العالم الجليل ، ومن غيرى ممن رشقهم بسهام قوله العنيف ، وسخريته اللاذعة ، ورائع حججه ، وعميق علمه .
لنا الله يا سيدى ، فقد علمنا الإسلام أن نحترم العلماء ، وإن أخطأوا في حقنا ، وأن نبسط لهم جناح المودة والحب ، حتى لو كان خطؤهم أوضح من قرص الشمس ، وأن تعتب عليهم في رفق وتدلهم على الصواب في لين ، وترشدهم إلى صحيح القول وحكيمة في أناة وصبر ومحبة .
هذا هو فصل القول فيما شجر بيتنا من خلاف فكرى ، أربأً بنفسى أن أرفعه إلى ساحات القضاء ، رغم أن جريمة القذف ثابتة الأركان ، بل أنها تتجاوز ذلك إلى التحريض على قتل أصحاب الأقلام الشريفة ، العفيفة ، تحت مظنة أنهم (محاربون لله ورسوله) .

مثلى يا شيخنا الكريم ، لا يسمح لنفسه أبداً بأن يأتى بفضيلتك إلى ساحات المحاكم ، فأنت أكرم علينا من ذلك ، وأصدقائك يا شيخنا الكبير علمونا أن تتمثل بالصبر الجميل ، وأن تدعوا الله لمن يخطئ في حقنا بالمغفرة ، وقد أستجبنا لهم يا أستاذنا الفاضل لأن دعوتهم النبيلة تجد صدى في نفوسنا الخيرة ، فصبر جميل ، والله المستعان .

ويبقى نداء ..

إلى الشيخ الجليل ، شيخ الأزهر الشريف ، الذى أناشده أن يصدر أوامره بمراجعة الكتاب في ضوء ما ذكرت ، وسوف يكشف أن ما ذكرته صحيح ، وأن حجم الأخطاء الواردة في الكتاب ، أضعاف أضعاف ما ذكرت ، تاريخاً وفقهاً ولغةً وتوثيقاً ، وسوف يعز عليه ، كما يعز علينا ، أن تصدر مثل هذه الكتب تحت مظلة هذا الصرح العلمى العتيد الشامخ ،

صاحب التاريخ المشرف ، وسوف يكشف أن الأزهر يمثل هذه الكتب ، يدخل معركة لا مبرر لها ولا طائل ، فمعركته الحقيقية مع التخلف ، ومع الارهاب ، ومع الأعداء الحقيقيين للإسلام ، وليس منهم طه حسين ونجيب محفوظ وزكى نجيب محمود وفؤاد زكريا وكاتب هذه السطور .. وإذا كان جهد الأزهر قد توجه في الفترة الأخيرة إلى مصادرة بعض الكتب ، فإننا لا ندعوه إلى مثل ذلك بالنسبة لهذا الكتاب ، لأننا نرفض أسلوب المصادرة من أساسه ، وما أحرى الأزهر أن يصرف جهده لمراجعة ما يصدر عنه ، وإلى سحبه من الأسواق لتصحيحه وإعادة طبعه خاليا من الأخطاء الجسيمة ، حرصا على سمعته العلمية ، أما بالنسبة لنا فالأمر سواء ، فقد قالوا وقلنا ، ولا مجال للمقارنة بين عدد من قرأوا الكتاب ، وعدد قراء هذا المقال ..

لغة الحضارة

للحضارة لغة ، لا تعرف المحسنات البديعية ، وتخلو من الجناس والطباق ، وهي لغة علمية ، موضوعية ، لا علاقة لها بأسلوبنا في التعامل مع لغتنا الجميلة للأسف الشديد ..

في اليمن الشقيق ، المشهور بقصر قامة أبنائه ، يطلقون على أفراد القوات الخاصة اسم (العماليق) ، وفي القطر الليبي الشقيق يطلقون على البيت الأبيض اسم (البيت غير الأبيض) . ويطلقون على كامب ديفيد اسم (اسطبل داود) ، وفي جميع البلاد العربية كان شائعا أن توصف اسرائيل بدولة (العصابات الصهيونية) ..

هذا هو أسلوبنا في حسم المعارك ، والنزاعات ، والمشاكل ، نحسمها بالمصطلحات اللغوية ، في حين يحسمها غيرنا باحتلال الأرض ، أو بفرض الإرادة ، أو بالانتصار العسكري ، وكلها أساليب تنشئ واقعا جديدا ، في حين أن أساليبنا تنشئ نثرا مجيدا ، وشعرا أجود ، وفرصة رائعة للخطب المنبرية ، العنترية ، البليغة ..

منذ ربع قرن كان حالنا أسوأ ، فأنا مازلت أتذكر ما كان يردده إعلامنا المصري بعد حرب ١٩٥٦ ، حيث كان يصف دول العدوان الثلاثي ببريطانيا (الفاجرة) وفرنسا (العاهرة) وإسرائيل (مخلب القط) .. في بلاد العالم المتقدم يندر أن تجد أغنية تتغنى بالوطن ، وحبه ، وعشق أرضه ، واستعداد المواطنين للتضحية من أجله ، على حين في بلادنا الجميلة ، ألف أغنية تتحدث عن حب الوطن . والطريف أن الوطن يتقدم

في البلاد التي لا تغني له ، ويتخلف في البلاد التي يغني أبنائها عشقا
للوطن ، ويدوبون فيه حبا ووجدا وصباة ..
نحن نغني وهم يعملون ، ونحن نحب وهم يبدعون ، وهذا هو جوهر
المأساة ..

في حديث مع أصدقاء ، يمثلون صفوة المجتمع ، اكتشفت أن عددا لا
بأس به منهم قد أودع نقوده في شركات توظيف الأموال ، وأحدهم باع
شقة يملكها طمعا في أن تصبح الشقة شقتين . وأكثرهم يحاول أن يلقي
باللائمة على الدولة ، وهذا ظلم بين ، فالمسؤول الأول حقا هو الطمع ، وهو
(حسن النية) ، وهذا هو التعبير المذهب عن الواقع والحقيقة ، وأنا
مستعد أن أتحدى لو نشرت صور الإخوة الثلاثة ، الريان ، في أى مكان
في العالم ، أن يدفع لهم مجنون مليا واحدا ، وأنا أتابع الآن المسلسل
الجديد ، وهو مسلسل السعد .

وغدا مسلسل جديد .. هو مسلسل (الشريف) ، الذى ماتزال تصلني
خطابات من المودعين في شركاته ، بعضها يثير الانزعاج ، وبعضها يثير
الألم الشديد ، وسوف أكتب عن ذلك بالتأكيد ، فليس هناك ما هو أقسى
من أن تطحنك الحاجة ، في حين أن نقودك في يد الآخرين ، وفي علم
الغيب ، لا تدري هل ستحصل عليها أم لا ، ولا تعرف يقينا هل أنت
ضحية (نصب من الشركات) أم ضحية (طمع) من سيادتك . أم
ضحية (تخاذل) من المسؤولين ، أم ضحية هذا كله ، وقد عاصرت بداية
هذه الشركات وهى بداية تؤكد عنوان هذا المقال ومضمونه ، فالثابت أن
هذه الشركات جميعا قد تحدثت مع الناس باللغة التي يستجيبون لها . وهى
لغة لا علاقة لها بالحضارة من قريب أو بعيد ..

أتذكر قصة طريقة حدثت منذ نحو عشر سنوات ، فقد طلب منى
صديق يمتلك مشروعا للإنتاج البيض ، أن أقدم له بعرض لدراسة

الجدوى الاقتصادية للتوسع في المشروع . وقد أجهدت نفسي مع العاملين في مكنتي . في صياغة العرض بالأسلوب العلمي المتعارف عليه ، فقد شمل العرض محتويات الدراسة ، والفترة الزمنية اللازمة لها ، والفريق البحثي القائم بها ، وتفصيلات الدراسات الفنية والإدارية والاقتصادية والتمويلية والتسويقية ، إلى آخر هذه المفردات (العلمية) ، وفي نهاية العرض أرفقت عرضا ماليا منفصلا ، وتوقيتا زمنيا لتمويل الدراسة ، بحيث يتم دفع الأقساط مع الحصول على النتائج ..

أكثر من أسبوعين ونحن نعد محتويات الدراسة وتناقش تفصيلاتها ، ونعرضها على المستثمر ، الذي بدا لي منبها بما تفعله ، وفي كل لقاء معه ، أحظى بعدد لا بأس به من القبلات ، ويأتي الخادم مع سخونة الحوار بالشاي والقهوة والقطاير ، وأشعر أننا على وشك الاتفاق ، لولا شيء لم أتبيته ، وتبيته فيما بعد ، وهو يتمثل باختصار في أن ما أعرضه على المستثمر الصديق ، متوافق مع عقله تماما ، لكن وجدانه في اتجاه آخر ، بل تبين لي أيضا أنني كلما أوغلت في (العلم) ، أوغل هو في (الشك) ، وتصور أنني نصاب (قراري) ، وفي أحد اللقاءات حضر شخص لا أعرفه ، يرتدى جلبابا وعباءة وقدموه لي بأنه الشيخ (فلان) ، وهو مقاول غير متخصص ، يتحدث عن الشركة أكثر بكثير مما يتحدث عن غيرها ، وقد لاحظت أنه منشغل بالنظر إلى ساعته ثم فوجئت به يهب واقفا ويؤذن لصلاة الظهر ، على حين أن عيون المستثمرين تتابعه بشغف وإعجاب ، ووقفنا جميعا وراءه وهو يؤمنا للصلاة ، ولم أربط بين وجوده وبين المشروع ، إلى أن فوجئت بعد ذلك باعتذار المستثمر عن الدراسة ، لأن الشيخ فلان سوف يتولى الأمر من الألف إلى الياء ..

بقية القصة عرفتها فيما بعد ، حين التقيت بالمستثمر الصديق ، في

معرض للدواجن في (يوترنخت) بهولندا ، فإذا به يهتف بي (أنت
فين) ، ثم جلس يحكى لى كيف (نصب) الرجل عليهم ، وكيف
(لهف) منهم أكثر من مائة ألف جنيه ، وهو مبلغ كبير بحسابات تلك
الأيام ، وكيف تحولت العلاقة بينها إلى قضايا تتداولها المحاكم ، وكيف
انتهى الأمر به إلى إعطاء المشروع بأكمله للشركة الأجنبية لاستكمال
بنظام تسليم المفتاح ، وهو ما يعنى فى تقديرى خسارة تتجاوز نصف مليون
جنيه كان يمكن تلافيها لو تم اتباع الأسس العلمية السليمة ، وهو أمر
كان فى مقدور مكتبى أن يفعله ، كما كان فى مقدور كثير من المكاتب
المصرية ، أن تفعله ، ولم أستطع أن أمنع نفس من سؤاله عن علاقته
بالمقاول ..

- ألم تتعاقد معه ..
- للأسف لا .. كنت أثق فيه ..
- ألم يأخذ منك النقود بإيصالات ..
- للأسف لا ، كانت ثقتنا فيه كاملة ..
- هل كانت للرجل خبرة سابقة بمثل هذه المشروعات ..
- ولا غيرها .
- أين تعرفت على الرجل ..
- فى مسجد (كذا) ، وقد بهرنى صلاحه ..
- والدراسة التى قدمتها لك ..
- كنا نعرضها عليه ، وكان رأيه فيها لا يسر ، وكان تقديرى أن الأمر
أبسط بكثير مما ذكرتم ..

- ولماذا لم تلجأ إلينا بعد كل ما حدث ..
- خجلت أولا ، وأصابنى الإحباط والإحساس بعدم الثقة فى كل

شيء ، فقررت أن أسلم الجمل بما حمل للشركة الأجنبية ، مهما كان الثمن ..

الشاهد هنا أن لغة الحضارة ، وأقصد بها لغة العلم والحسابات ، ليست واردة في ذهن صديقنا المستثمر ، وليست متصلة بوجوده من قريب أو بعيد ، وهذا ما لم يعترف به أبدا ، وربما لن يعترف به أبدا ، ولعل أطمئن القارئ إلى أن حديث المقال لا علاقة له بالدعاية الشخصية ، لأن النشاط الذي أشرت إليه لم يعد قائما ، ولهذا لا أجد حرجا في أن أذكر أننا عندما تقدمنا للمستثمر ، كانت لنا خبرة بخمسة مشروعات سابقة في المجال نفسه ، وخمس عشرة مشروعا بعدها .. وأن العرض المادي كان منخفضا للغاية ، حتى بمقاييس تلك الأيام ، وأن القصة السابقة تكررت كثيرا بصور مختلفة ، وقد كنت أفسر للعاملين معي سر ذلك كله بأننا نتحدث لغة مختلفة ، وأن موقفنا شبيه بمن يتحدث إلى الشعب الأسباني مثلا باللغة اليابانية ، ومازلت أتذكر أن أحد المستثمرين رفض أحد العروض لسبب لا يتخيله القارئ ، وهو أن الخطاب المرفق بالعرض ، لم يكن متوجا بعبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) ..

في هذا المناخ تقدمت شركات توظيف الأموال ، وتحدثت للمجتمع باللغة التي يفهمها ، وقبلها ، وفعلت بمن تعاون معها ما فعله صاحبنا المقاتل بصاحبنا المستثمر ولم يفهم المجتمع خلال هذا المد الروحاني أن الإسلام هو الكمبيوتر ، وهو استخدام العقل . وهو احترام العلم ، وهو إعطاء العيش لحبازه ، وليس لمن يُلتهمه بعد البسمة والحوقة والتعوذ ، وأن عناصر الإنتاج الثلاثة المعروفة ، وهي رأس المال والعمل والإدارة ، قد أضيف لها عنصر رابع ، وربما أصبح أهم العناصر ، وهو التكنولوجيا ، وأن هذا العنصر ليس مرتبطا بعقيدة ، وليس قاصرا على اعتقاد ، وأن العناصر الثلاثة القديمة ، قد أصبح أهمها عنصر الإدارة ، وهو عنصر

شديد التعقيد ، وقد بلغ من أهميته وخطورته وتخصصه ، أنه أصبح منفصلا الآن عن الملكية ، فأصحاب (جنرال موتورز) مثلا لا يديرونها ، وأوناسيس مثلا لم يكن يدير مشروعاته ، بل يلجأ كما يلجأ غيره ، إلى المديرين المتخصصين ، الذين أصبحوا عملة صعبة ، وبعضهم يحصل على أجره بالملايين في كل عام . وتتخاطفه الشركات بالإغراء المادى ، ولعل القارئ يعجب إذا علم أنني في كتاب (قبل السقوط) الذى صدر عام ١٩٨٤ ، قد حذرت من شركات توظيف الأموال ، حيث أسميتها بالتيار (الثروى) نسبة إلى الثروة ، وبعدها مباشرة بدأت في شن حملة عليها كانت مثار دهشة الجميع ، بل أن بعضهم اتهمنى وقتها بالعداء للإسلام (هكذا) ، وكأن هؤلاء المتاجرين بالدين هم وجه الإسلام الصحيح ، وكأن ما كانوا يفعلونه هو التعبير المشرق عن قيم الإسلام الرفيعة ، وقد كان السؤال البديهي الذى طرح نفسه على ، وقادنى إلى هذا الموقف ، متمثلا في موقف هذه الشركات من الإدارة ، حيث كنت أسأل نفسى دائما ، هل يملك إخوة الريان مثلا الكفاءة الإدارية اللازمة لإدارة استثمارات تتجاوز مليارين من الجنيهات ، وكانت الإجابة المنطقية بالنفى ، وقد زادنى تأكدا قصة طريفة حدثت في منزل أحد الأصدقاء ، حيث التقيت بحاسب الشركة المشار إليها ، وكانا (المحاسب والصدى) يأخذان على موقفى من الشركة ، ولتأكيد وجهة نظرهما اندفع المحاسب ليقص على قصة عاصرها ، حيث ذكر لى وهو يؤكد قصته بالأيمان الموثقة ، أنه دخل على أحمد الريان ، فوجده يطلب من أبنائه (وهم أطفال صغار) أن يتوجهوا إلى الله بالدعاء ، أن يرتفع سعر الدولار ..

- والله العظيم يا دكتور ، كانوا يتوجهون إلى الله بالدعاء (يارب الدولار يزيد يارب) ، وصاحب قصته ينطق لفظ الجلالة بأسلوب منطق الصغار ، وقد اندهش وأنا أرد عليه قائلا ..

- يا نهار أسود .. هل تريد أن تقنعني أنه يدير أرصدته في البورصة بأسلوب (يارب الدولار يزيد يارب) ..
وهنا اندفع الصديق قائلاً في لهجة كلها تأنيب ..
- يا سلام عليك يا أخى ، الرجل مؤمن وهو يتوجه إلى الله بالدعاء ، ويتوسل إليه بالأطفال ، أحباب الله ..
لست أشك في أن المحاسب كان صادقاً ، وأن الصديق كان صادقاً ، لكنها اللغة غير المشتركة ، فأنا أفهم أن التعامل مع الأرصدة في البورصة ، يكون بالحسابات ، وبتقدير الاحتمالات ، وباستخدام الخبراء المتخصصين ، وبدراسة حركة الأرصدة ، وبتقييم الأوضاع الاقتصادية للدول المصدرة للعملة الرئيسية ، ولا أفهم إطلاقاً أن تدار مئات الملايين بأسلوب (يارب الدولار يزيد يارب) ، فالرب عادل ، ولكل مجتهد نصيب ، ولكل مهمل وجاهل جزاء ، ولكل نصاب عقاب وإن طال الزمن ..

جهل لغة الحضارة هو الذى قاد المودعين إلى شركات توظيف الأموال ، وجهل لغة الحضارة هو الذى قاد الشركات إلى مصيرها المحتوم ، وجهل لغة الحضارة هو الذى قادنا جميعاً إلى صراع عسكرى استمر نصف قرن ، خرجنا منه إلى نقطة البدء ، ونحن أسوأ حالاً بكثير ، وقبلنا بعده ، وسنقبل ما لم يكن أحد يتصور أننا سنقبل به فى يوم من الأيام ..

فلندرك جميعاً أننا أمام اختيار واضح بين لغتنا الجميلة ، ولا أقصد بها اللغة العربية بالطبع ، بل أقصد أسلوب الحياة ، وبين لغة الحضارة ، وأن مساحة الاختيار تطبق يوماً بعد يوم ، بسبب إنجاز حضارى رائع ، هو تقدم وسائل الاتصال ، التى تنقلنا إلى العالم ، وتنقل العالم إلينا ، وبسبب هذا التقدم ستتوحد لغة العالم كله . وستحدث لغة الحضارة ، سواء شئنا

أم أيينا ، وإذا كنا خلال ربع قرن قد انتقلنا من الحديث عن (مخلب القط) إلى الحديث عن (دولة) العصابات ، ثم إلى الحديث عن السلام العادل ، ثم إلى الجلوس مع الاسرائيليين على مائدة المفاوضات ، فلا بد أن تنتقل غدا من مرحلة انتظار (البركة) التي ستهبط على المشروعات ، إلى مرحلة العلم والدراسة ، ثم إلى مرحلة إدراك أن التقدم رهن بسبيلين لا ثالث لهما ، وهما الإدارة والتكنولوجيا ..

لقد انتهى عصر الجبابة الذين يخرون (ساجدينا) ، أمام رضيعنا إذا بلغ (الفطاما) ، وأجبرتنا الأيام احترام حقائق العصر ، وقد بدأنا بالسياسة ، ولا بد أن تنتهى بالفكر ، وإن كان العكس هو الأقرب إلى المنطق ..

غدا يوم جديد بغير شك ، يسمح فيه المناخ بطبع رائعة نجيب محفوظ (أولاد حارتنا) ، ويلغى فيه مجلس الشعب ذلك القانون الذى يسمح للمؤسسة الدينية برقابة الكتب ، ويدرك الجميع أن الرد على الفكر لا يكون إلا بالفكر ، وأن بوسعنا أن نرد على الكتاب الذى لا يعجبنا ، بشماني كتب ، وليس بشماني سنوات وراء القضبان ، وأنا واثق أن حديثي هذا قد يصدم البعض ، لكنى متأكد فى الوقت ذاته أنه سيكون حديثا لا معنى له فى المستقبل ، لأنه سوف يكون بديهية من البديهيات ..

غدا يوم جديد ، لو أعلن فيه مغامر عن شركة لتوظيف الأموال تحوطها البركة .. وتباركها السماء فسوف يكون مصيره شبيها بمصير شجرة الدر على يد المواطنين هذه المرة ، وساعتها نستطيع أن ندعى بأننا أدركنا العصر ، وتحديثنا بلغته ، وتعاملنا بمفرداته ، وهو أمر عسير الآن ، لكنه سيكون يسيرا غدا ..

سطور أخيرة ..

تطاردني تساؤلات وخطابات تطلب مني المساهمة بالرأى فى الحوار السائد حول أزمة البطالة فى مصر ، وهى أزمة علاقتها وثيقة باستقرار الحياة السياسية ، وعلاقتها أوثق بمجال تخصصى الدقيق وهو الاقتصاد ، وفى إيجاز وتبسيط أذكر وجهة نظرى التى أخشى أن تكون ثقيلة على عقل القارئ أو على وجدانه ..

خبراء اقتصاديات التنمية ، فى دولنا (النامية) ، يواجهون خطرين مزعجين ، أولهما التضخم ، ونقصد به الزيادات المتتالية والمتسارعة فى الأسعار ، وثانيهما البطالة ، ومشكلة هؤلاء الخبراء أنهم لا يستطيعون حل المشكلتين معا ، بل أن نجاحهم فى حل إحدى المشكلتين ، يترتب عليه مباشرة تفاقم المشكلة الأخرى ، لأن تاريخ الاقتصاد لا يعرف فى إطار السوق الحرة إلا نوعين من السياسات ، النوع الأول يمكن أن نسميه بالسياسات الانكماشية ، والنوع الثانى يمكن أن نسميه بالسياسات التضخمية ..

السياسات الانكماشية (وهذا ما تفعله مصر منذ عام ١٩٨٢ وحتى الآن) . هى سياسات تواجه أساسا مشكلة ارتفاع الأسعار المستمر ، وتتلخص ببساطة فى تقليل الطلب على السلع والخدمات والاستثمار ، عن طريق التحكم فى كميات النقود المتداولة فى السوق (ولاداعى للمحديث عما يسميه الاقتصاديون أشباه النقود) ، فتكون النتيجة أن يصبح فى يد (الناس) نقود أقل يترتب عليها إتفاق أقل ، فتتخفض الأسعار أو بمعنى أدق يقل معدل ارتفاعها ..

أساليب الحد من كميات النقود وأشابها عديدة ، منها تشجيع الادخار

برفع أسعار الفائدة ، فيقبل الناس على الادخار بدلا من الاستهلاك أو الاستثمار ، والحد من طبع النقود الورقية ، وتحديد سقف ائتمانية ، أى تقليل حجم القروض بحيث لا تتجاوز نسبة معينة ..

الاستهلاك هنا سيقبل . والاستثمار أيضا ، ومعنى هذا انخفاض الطلب ، الذى يؤدي إلى انخفاض الأسعار ..

هذا ما حدث فى مصر باختصار خلال نحو عشر سنوات ، وكانت نتيجته ممتازة فيما يخص معدلات ارتفاع الأسعار ، فالمؤكد أن معدل التضخم انخفض عنه فى النصف الأخير من السبعينات ، والمؤكد أن سعر صرف الدولار بالجنيه المصرى قد مال للثبات منذ فترة ليست بالقليلة ، والمؤكد أيضا أن معدلات الادخار قد تزايدت (خاصة بالجنيه المصرى) ..

الوجه الآخر السيئ لهذه السياسة يتمثل فى ارتفاع مستويات البطالة بسبب انخفاض الاستثمار ، وزيادة الراكد من السلع ، وزيادة حالات إشهار الإفلاس ..

ونعود الآن إلى السياسات العكسية ، والتى نسميها بالسياسات التضخمية ، والتى تأخذ بها كثير من البلدان النامية ، وأشهر الأمثلة عليها أغلب دول أمريكا اللاتينية خاصة الأرجنتين والبرازيل ، والسياسات فى هذه الحالة عكسية ، حيث يتم تشجيع الاستثمار بالتحكم فى أسعار الفائدة ، والتوسع فى الإقراض ، وتشجيع الانفاق على السلع والخدمات ، وتكون النتيجة رواج استثماريا ، وعلاجا لمشكلة البطالة ، لكن الوجه الآخر السيئ لهذه السياسة يتمثل فى ارتفاع مستويات التضخم (حتى أن الأسعار ترتفع فى الأرجنتين خلال ساعات اليوم الواحد) ، وأيضا انخفاض وتدهور قيمة العملة ..

بعض الدول تسعى إلى تحقيق التوازن بين السياستين ، ومثال ذلك تركيا وإسرائيل ، وأظن أن هذا ما سيسعى إليه مجلس الوزراء خلال بحثه لهذه المشكلة ، وهو اختيار مر ، لكنه في تقديري قد أصبح ضرورة ملحة .. ترى هل استطعت تبسيط الأمر ، وهل انزعاجي من الحديث عن القضايا الاقتصادية ، كان له ما يبرره ، أم أنه تخوف لا مبرر له ، الله أعلم ، والقراء أقدر على الحكم ..

من فضلك .. لا تقرأ هذا المقال ..

هذا مقال أتمنى أن يقرأه القارئ ثم ينساه . ويحاسبني عليه بعد عام أو عامين ، وهو مقال مكتوب بأسلوب (الكلمات المتقاطعة) ، حيث يضع القارئ حرفاً بجانب حرف ، ولا تكتمل الكلمة ، ولا يتضح المعنى ، إلا بعد جمع الحروف كلها معا ، وبدهى أن المقدمات المنطقية ، تقود الى نتائج منطقية ، بيد أن النتائج هذه المرة تبدو عبثية تماما ، وإن كانت مقدماتها صحيحة ومنطقية ..

الطريف أن البعض يتصور أن الكاتب فقط هو الذى يؤثر فى الناس بما يكتبه ولا يتصور أن يحدث العكس ، فيتأثر الكاتب نفسه بما كتب ، وهذا ما حدث لى ، فقد كتبت فى مجلة أكتوبر مقالا مشيراً عنوانه (هذا بلاغ للناس) أثار ردود فعل واسعة ، كان أقساها وأقصاها رد فعل الاذاعة السودانية ، والصحافة السودانية ، ثم خطر لى أن أقرأه بعد نشره ، فإذا به يؤثر فى ، وكأننى لست كاتبه ، وإذا بتداعيات مزعجة تتسارع إلى ذهنى ، وإذا بالحيرة تتناوب وتطرح على تساؤلا مزعجا ، هل أكتب هذا أو أكتمه ؟ هل أنشره أو أحتفظ به ؟ وأخيرا قررت أن أكتب وأنشر ، وللقارئ أن يقبل أو يرفض ، وله أن يضحك هازئاً أو يصدق مندهشاً ، ولو كتب أحد منذ خمس سنوات يتنبأ بما سيحدث للاتحاد السوفيتى لرماه الناس بالجنون ، ولو كتب أحد منذ عامين أن صدام حسين سوف يتحدى العالم ، وسوف يتحداه العالم ، لاتهمه الناس بالخرف ، لكن ماذا نفعل وعالمنا مجنون ؟ ماذا نفعل ومستقبل البشرية لا يسهم العقلاء وحدهم فى

صنعه ، بل يشارك معهم ، بنصيب واضح ، أصحاب العاهات النفسية ، والأمراض العقلية ، والخيالات المرضية ؟
عموما ، ما سأكتبه الآن هو سيناريو لنبوء مستقبلية محتملة ، تقود الحسابات إليها ، وقد تصح وقد لا تصح ، لكنها مثيرة في كل الأحوال ، مزعجة إلى أقصى حد .

وندخل في الموضوع ..

ونبدأ من حيث انتهينا في مقالنا السابق الاشارة إليه ، حيث تصورنا الصراع القادم في المنطقة ، وهو صراع بدأ بالفعل كما أوردنا في المقال ، والجديد في الصورة ان هذا الصراع الذي نعتقد بوجوده ، ليس إلا جانبا من جوانب الصورة ، التي لا تكتمل إلا بصراع كوني أو أسمى محتمل ، سمة ما شئت لكن تأمل معنا كيف يمكن أن يحدث ؟ ولماذا ؟..
السيناريو المحتمل يتكون من جزئين منفصلين ، أولهما خاص بإيران ، وثانيهما خاص بالولايات المتحدة الأمريكية ، وهو ينتهي كعادة السيناريوهات ، بنهاية درامية تجمع بين جزئي الصورة ، وهي نهاية لا تقل في غرابتها عن نهاية الأفلام المصرية القديمة ، التي يهمس فيها الأب في أذن ابنه (أنا عايز اعترف لك بسر .. أنا مش أبوك .. أنا أمك) .

ونبدأ بالسيناريو الإيراني ..

ونوجزه في نقاط سريعة .

١ - إيران قدمت أوراق اعتمادها دوليا ، كزعيمة لنظرية عالمية أومية جديدة ، هي نظرية (الثورة الاسلامية) .

٢ - إيران سجلت نفسها في سجل المصدرين لهذه الثورة ، وقد وجدت سوقا رائجة لبضاعتها ، تمثلت في عديد من المستوردين على طول

الساحة العالمية وعرضها ، بدءاً بأحزاب (الله) في لبنان ، ومروراً بحزب التحرير المنتشر في المغرب العربي ، وثورة الانقاذ في الجزائر ، ونظام الحكم الحالي في السودان ، والجماعات الاسلامية في العالم العربي كله ، والشيعية في دول الخليج وجنوب الاتحاد السوفيتي وبعض الدول الاسلامية الآسيوية .

٣ - تشير المؤشرات إلى احتمال اتساع السوق لهذه البضاعة ، واحتمال تزايد أعداد المستوردين في كثير من أقطار العالم العربي ، حيث تمثل بديلاً لكثير من الأنظمة العسكرية ، ومن المتوقع مع نهاية هذا القرن ، أن تسجل بعض الدول اسماءها رسمياً في سجل المستوردين .

٤ - لعبت إيران دوراً تجاوز إطارها الاقليمي واتسع المجال الحيوي لنشاطها خارج هذا الاطار بل خارج القارة الآسيوية ، وطالت يدها الغاشمة كل أحداث المنطقة في السنوات الأخيرة .

ففي لبنان ، تصدت لقرارات مؤتمر الطائف ، حيث لم تخضع الأحزاب الموالية لها في الجنوب لسيطرة الجيش اللبناني ، وأعطت بهذا مبرراً للتواجد الاسرائيلي في الجنوب اللبناني .

وفي الضفة الغربية المحتلة ، تصدت منظمة (حماس) التي تنعم بالدعم الايراني المباشر لمنظمة التحرير ، وأغرب ما نقلته وكالات الأنباء في هذا الصدد ما حدث في (طولكرم) حين دعت منظمة فتح لمحاضرة في سينما (الأندلس) يحاضر فيها فيصل الحسيني وحنان عشراوي ، وقد هاجم أنصار حماس المجتمعين بالسلاح الأبيض ، وأفسلوا المحاضرة ، وسقط قتيل إضافة إلى عشرات الجرحى ، ولو نقلت وكالات الأنباء الحادث مجرداً دون أسماء ، لتصور القارئ أن المهاجمين هم أعضاء جماعة كاهانا ، لكن ماذا نفعل لمنظمة (حماس) ، التي نجحت ضمن ما نجحت فيه ، في تقسيم الصف الفلسطيني لأول مرة على أساس طائفي ، حيث سمعنا عن

منظمة (حمام) التي تتبنى النضال الفلسطيني (المسيحي) ، وهو مما يعطى الاحتلال أقوى الحجج .

وفي أعقاب أزمة الخليج ، نجحت ايران في تقليص إعلان دمشق ، ودفعت أنصار هذا الاعلان إلى تبادل العتاب والغضب ، ثم الاستسلام للأمر الواقع ، وهو تقليص الاتفاق ، وتجريده من محتواه ، تلافيا للغضب الايراني ، الذي يلهب أعصاب الامارات الخليجية .

وفي السودان بدأ الحديث عن فصل الجنوب ، أو أسلمة أبنائه ، مع بدء في تسليح الجيش الشمالى ، وفي تجييش المنظمات الارهابية الأصولية على مستوى العالم العربى ، والذي لا يصدق عليه أن يراجع جوازات سفر الارهابيين الأصوليين في العالم العربى الآن ، ثم تقدم الصراع خطوة أخرى بالحديث عن بناء سدود سوادنية على مجرى النيل ، لجر مصر إلى صراع حقيقى ، يستعرض فيه الإيرانيون قدرتهم على التأثير في المنطقة .

وفي جبهة الانقاذ ، يحظى الزعماء والأعضاء بالدعم الايراني ، إلى الدرجة التي دفعت إلى قطع العلاقات بين البلدين ، مع تداول أحاديث مزعجة ، عن علاقة الحرس الثورى بالمليشيات المسلحة لجبهة الانقاذ ، وهو حديث قد تتضح تفاصيله خلال الشهور القادمة .

وفي دول المغرب العربى ، حيث التيارات الشعبانية ، ناعمة الملمس ، حلوة الحديث ، سمحة الظاهر ، بينما يتحرك أسفلها أعضاء حزب التحرير الاسلامى ، وهم جزء من نسيجها ، ويمثلون أعنف فصائلها ، ويرتبطون مباشرة بايران ، وقد شاهدت ذلك وتعرفت عليه خلال زيارتي للقطر التونسى الشقيق ، حيث كان الظاهر حزب النهضة ، والباطن حزب التحرير .

إن معنى هذا أن الدور الايراني قد أصبح دورا (أميا) ، وتعاضم حتى

تجاوز حدود الدولة والمجال الحيوى والقارة كلها ، إلى قارة أخرى يبدو تأثيره فيها أكثر وضوحا رغم ابتعاد المسافات .

٥ - دون دخول في تفاصيل حرب الخليج ، نذكر أن الرابع الأكبر فيها هو ايران ، ونذكر ملاحظة عرضية ، ربما كان لها أهميتها ، وهى أن الولايات المتحدة الأمريكية هى التى أدارت هذه الحرب .

تخطمت الآلة العسكرية العراقية ، وهى المصدر الرئيسى للأطماع الايرانية ، وأصبحت الساحة مكشوفة أمام ايران حتى حدود مصر ، ولا نستثنى إلا إسرائيل ، لأنها صديق وثيق لايران ، ورغم كل الضجيج والعجيج ، على الأقل على مستوى المصالح ، والذي لا يصدق عليه أن يراجع ملف فضيحة صفقة (الكونترا) الشهيرة فى عهد ريجان .

أكثر من ذلك أصبح محتملا أن يحكم الجنوب العراقى نظام حكم شيعى ، وهو مطلب شعبى للجنوب ، أو على الأقل أن يصبح لهذا التيار السياسى الدينى صوت عال فى توليفة النظام الديموقراطى العراقى ، إن شهد مثل هذا النظام النور .

٦ - اعتمدت الأمم المتحدة تعويضات لإيران عن الحرب العراقية الايرانية تصل إلى نحو مائة مليار دولار .

الطريف إن هذا حدث كنتيجة لحرب الخليج ، ومثل لا يفهم ما هى العلاقة بين حرب الخليج والحرب العراقية الايرانية إلا بمنطق المصادفات السعيدة ، ولا أظن أن أحدا يمكنه أن يفسر الأحداث بمنطق الانتقام من صدام حسين ، لأن مصائر الشعوب لا يمكن أن تخضع لأسلوب (كيد النساء) أو منطق (التار البايث) ، والأصح أن نقول إن هذا القرار له دلالة ، وإنه صدر تحقيقا لمصالح دولية ، وأنه استهدف نتائج على المدى البعيد .

٧ - الدول العربية الخليجية فى موقف عصيب فى مواجهة هذا الغول

الايرائى المحتمل ، ونمو هذا الغول ، واتساع تأثيره ، هو الضمان الأكيد لمسارعة هذه الدول للتزود من ترسانة السلاح الأمريكى حتى الأسنان ، خاصة أنها قادرة على الدفع ، وخاصة أيضا وهذا هو الأهم ، أن القيود المفروضة على تصدير السلاح انطلاقا من المحافظة على الأمن الاسرائيلى ، فى سبيلها للانتهاء مع نهاية هذا الصراع ، الذى تبدو معالم نهايته واضحة فى نهاية طريق بدأ بالفعل ، وساهم فيه الخليج العربى بممثل فى المفاوضات ..

٨ - وسط هذا السيناريو تضىء (اللبنة الحمراء) معلنة عن حدث عالمى هائل ، وهو استقلال الجمهوريات السوفيتية الإسلامية ، وبدء مسيرتها للبحث عن (هوية) ، والعجيب حقا أن يحدث هذا الانفصال قبل أى اتفاق على نزع السلاح النووى من ترسانة هذه الدول . فلنساهم فى توضيح الصورة أكثر للقراء ، حين نذكر حقيقتين ، الأولى أن الإسلام دين الأغلبية وأن المذهب الشيعى واسع الانتشار ، وأن اللغة الفارسية والثقافة الفارسية تمتدان كجيوب واضحة داخل الجمهوريات السوفيتية المجاورة للجمهورية الايرانية ، والثانية هى (مجرد احصائية) لعدد الرؤوس النووية التى تملكها بعض هذه الجمهوريات .

- جمهورية فرجيزستان فيها (٧٥) رأسا نوويا ..
- جمهورية طاجيكستان فيها (٧٥) رأسا نوويا (وقد اتخذت قرارا بالتحول إلى الأبجدية الفارسية) ..

- جمهورية كازاخستان فيها (١٨٠٠) رأس نووى ..
- جمهورية أوزبكستان فيها (١٠٥) رؤوس نووية ..
- جمهورية أذربيجان فيها (٣٠٠) رأس نووى (مذهبها الدينى هو المذهب الشيعى) .

وللقارئ أن يصدق أن هذا الانفصال المخطط ، دون تخطيط مسبق

بنزع السلاح النووى ، وهذه الثروة الهائلة من الرؤوس النووية والعلماء والفنيين ، مجرد مصادفة غير سعيدة .

٩ - الخبثاء (ولسنا منهم) يقولون إن هذا تسبب مقصود ، وأن إيران التي عاشت كما ذكرنا على (التصدير) ، سوف تصبح المستورد الرئيسى والوحيد لجزء من هذه الثروة ، ليس فقط على مستوى الرؤوس النووية ولكن أيضا على مستوى (الامكانية) ، حيث يوجد آلاف العلماء ، يحصلون على مرتبات تصل بسعر السوق السوداء اليوم إلى أقل من عشرة دولارات شهريا ، أى نحو ثلاثين جنيها مصريا ، ولا يستطيع أحد أن يدعى أنهم ينتمون إلى طائفة الرهبان أو القديسين .

١٠ - لازمة أخرى نراها ضرورية ، وهى التأكيد على أنه لم يوجد فى التاريخ الحديث ، نظام يمتلك هذا القدر من العداء فى نفوس العالم الغربى ، والمحور الأول فى هذا العداء ينطلق من تبنى النظام الايرانى للارهاب فى أسوأ صوره ، ومثال ذلك خطف الرهائن من المدنيين ، مع كل ما أحاط بعمليات الاختطاف من تركيز اعلامى ، وقبلها أزمة الرهائن الدبلوماسيين فى السفارة الأمريكية ، ومرورا باعدام المعارضين ، والمخالفين فى العقيدة ، إضافة إلى العداء التاريخى التقليدى بين الحضارة الغربية ، بمفاهيمها المدنية والعلمانية والليبرالية ، وبين نظم الحكم الدينية ، الشيوقراطية ، الاستبدادية .

لعل القارئ الآن يتساءل ، ومع حق ، ماذا يريد الكاتب أن يقول بالتحديد ؟ ونحن نرجو من القارئ أن يصبر قليلا ، وأن ينسى ما ذكرناه الآن حول السيناريو الايرانى ، وأن يقبل بذهنه على السيناريو الآخر ، وهو السيناريو الأمريكى .

وهذا هو السيناريو الأمريكى ..

- وننقله إلى القارئ ، بمنتهى الإيجاز ، كما فعلنا مع السيناريو الإيرانى .
- ١ - العالم قد انتهى من حرب عالمية حقيقية ، انتصر فيها طرف على طرف انتصارا نهائيا (سبق أن شرحنا هذا التصور فى عدة مقالات) .
 - ٢ - يحدث الآن ما يحدث فى نهاية كل حرب عالمية ، وهو ما يتمثل فى :

- إعادة تشكيل خريطة العالم .
- أن يصبح أعداء أمس أصدقاء ، وهو ما يحدث الآن .
- أن يصبح حلفاء أمس أطرافا فى صراع جديد ، وهذا ما نهتم به ونركز عليه فى هذا التحليل ..

- ٣ - السياسة الدولية الآن أمام أحد الاختيارين .
- اختيار واضح الآن ، وهو انفراد الولايات المتحدة الأمريكية بزعامة العالم ، وهو اختيار مشكوك فى استمراره طويلا ، لأن الاختيار الثانى يبدو أكثر احتمالا .

- اختيار ثان ، وهو ظهور ثلاث قوى عالمية هائلة ، تدخل فى صراع جديد بينها ، وهو صراع اقتصادى فى الأساس .
- أطراف الصراع الثلاثة هى الولايات المتحدة الأمريكية ، واليابان ومعها نمور الشرق الأقصى ، وأوروبا الموحدة .

- ٤ - الاختيار الثانى يبدو مخيفا للولايات المتحدة من زاوية اقتصادية بحتة ، بل إنه فى ظل الأوضاع الاقتصادية القائمة يهدد مكانة الولايات المتحدة ضمن القوى الرئيسية لأسباب متعددة ، أولها سبب تجارى بحت فصادرات الشرق الأقصى تمثل ١٠ ٪ من التجارة الدولية ، وصادرات

أوروبا الموحدة تمثل ١٧ ٪ من التجارة الدولية ، بينما لا تزيد مساهمة الولايات المتحدة عن ٩ ٪ .

- ٥ - يبدو المستقبل أكثر سوءا بالنسبة للولايات المتحدة في ظل العجز الهائل في الميزانية ، والديون الهائلة ، وارتفاع نسبة البطالة باستمرار .
- ٦ - يزيد الأزمة تعقيدا أن توقف الصراع العالمى بين الشرق والغرب ، يهدد أخطر الصناعات الأمريكية وهى صناعة آلة الحرب ، وصناعة سباق الفضاء ، وهى صناعات لا بد أن تتدهور في ظل تنامي صراع عالمى ، ليس له وجهه العسكرى ، ومضمونه اقتصادى بحت .
- ٧ - دون دخول في تفاصيل اقتصادية معقدة ، يمكن القول بأن جزءا من تماسك الاقتصاد الأمريكى يعود إلى سيادة الدولار الأمريكى على العملات العالمية وإن هذه المزية سوف تتعرض لخطر جسيم ، فلو تم السيناريو (الثلاثى) فإن هناك احتمالا كبيرا أن تحل العملة الأوروبية محل الدولار الأمريكى أو أن تناطحه رأسا برأس على الأقل .
- ٨ - النتيجة المنطقية لذلك ، أن السيناريو الثلاثى هو الخطر الأكبر الذى يهدد المصالح الأمريكية في المدى الطويل ، وأنه من الضرورى أن يتم حسم الصراع الحالى لصالح السيناريو الآخر ، وهو الهيمنة الأمريكية على الغرب ، وبالتالي على العالم ، والمبرر الوحيد لهذه الهيمنة هو استبدال الأهمية الاشتراكية التى انهارت بأهمية أخرى تتحقق فيها عدة مواصفات ، أولها أن تكون أهمية كونية ، أو لها امتداد جغرافى واسع ، وثانيها أن تمثل عداء حقيقيا للمصالح الغربية وللنظام الغربى الحضارى ، وثالثها أن يحظى العداء لهذه الأهمية بقبول شعبى عام في دول العالم المتقدم ، ورابعها أن تمثل تهديدا عسكريا حقيقيا لهذا العالم المتقدم ، ومعنى أكثر دقة أن تمتلك سلاحا نوويا قادرا على التدمير ، واستعدادا واضحا لاستخدامه ، وخامسها أن تتمتع هذه القوة باستقرار في العالم المتقدم ، وسادسها أن تكون

الاحتمالات لصالح تناميها وتوسعها وليس لصالح تأكلها أو انحصارها أو ضعفها ..

٩ - تجربة الخليج كانت لها مزية واضحة ، فقد أوضحت أن خطرا شديدا محدودية ، مثل صواريخ سكود المتخلفة تكنولوجيا ، والتي لا تحمل رؤوسا نووية ، يمكن أن تشكل خطرا على العالم كله ، ويترتب عليها كساد عالمي حقيقى ، وتستدعى توحيد دول العالم الغربى تحت مظلة الولايات المتحدة الأمريكية ، لمجرد وقوع مثل هذا السلاح غير المتطور بما فيه الكفاية فى يد سلطة ارهابية متخلفة .

١٠ - ظهور هذه القوة الأهمية المزعجة ، سوف يدفع آلة الحرب الأمريكية إلى الدوران ، والصناعات العسكرية الأمريكية إلى الانتعاش ، والاقتصاد الأمريكى الى الراج ، والهيمنة الأمريكية إلى السيادة ، وإذا تصادف كانت هذه القوة مؤثرة فى منطقة الشرق الأوسط ، حيث المصادر التمويلية الهائلة ، المستعدة لبذل الغالى والرخيص فى سبيل التماسك أمام هذه القوة النامية ، من خلال شراء أحدث انجازات التكنولوجيا العسكرية ، فإن إخراج هذه القوة إلى ساحة الصراع ، بالمواصفات السابقة ، يصبح قضية حياة أو موت بالنسبة للسياسة الأمريكية فى المدى الطويل .

وهكذا نصل إلى النتيجة ..

وهى نتيجة مزعجة ، نتركها لخيال القارئ ، ونطلب منه أن يحاسبنا عليها فيما بعد ، ونرجوه وهو يتأملها أن يلاحظ أنها تقدم تفسيراً لعدد من التساؤلات ، منها على سبيل المثال لا الحصر :

- لماذا هذا (الدلع) الجميل فى مواجهة الارهاب الايرانى ، فى مقابل الشراسة الواضحة فى مواجهة الجماهيرية الليبية ؟ ومنذ متى كانت

الولايات المتحدة تصنف الارهاب الى ارهاب مقبول وارهاب غير مقبول
أو إلى (دلح) وجد ؟..

- لماذا هذا الاصرار على بقاء حلف الأطلنطي وفي مواجهة من ؟..
الأسئلة كثيرة ، والسيناريو الذى نذكره يتطوع بتفسير بعضها أو
أغلبها ، وقد يصح السيناريو حتى نهايته ، وقد يتم إجهاضه إذا تغيرت
الظروف ، لكنه فى النهاية يقدم تفسيراً لبعض ما يحدث الآن ، وتحليلاً لما
يمكن أن يحدث ، وإن كنت أتمنى أن أكون مخطئاً من الألف للياء .
ما رأى القارئ ؟ ألم يكن معنى حق فى اختيار عنوان المقال ؟ ،
عموماً ، إذا كانت قرأت المقال ، فمن فضلك ، لا تقرأه مرة ثانية .

أنا لا أتحدث عن مصر

(١)

(كات بالو) فيلم من أفلام رعاة البقر ، عرضه التليفزيون مؤخرًا ، بطولة (جين فوندا ، ولي مارفن) والفيلم يبدأ بجين فوندا واسمها في الفيلم (كات بالو) وهي تنتظر الإعدام العلني ، وينتهي وهي تصعد إلى المشنقة حيث يتم إنقاذها بحيلة طريقة ، وفي البداية والنهاية تحتشد الجماهير وتتدافع في شوق ولهفة ، لمشاهدة تنفيذ الإعدام ، الذي يتم (على الطبيعة) أمام الجماهير الحاشدة من أجل تحقيق (الردع) .. (كات بالو) تصعد إلى المشنقة ، يحيط بها الحراس ، ثم يضع الجلاد الحبل حول عنقها ، منتظرًا إشارة من قائد الحرس ، والجماهير في غاية السعادة واللهفة على رؤية المشهد العظيم ..

كان هذا في القرن الثامن عشر ، عندما كانت المشاعر أقرب إلى البدائية منها الآن ، وأبعد عن الحضارة منها الآن ، وقد تخلت الولايات المتحدة عن هذا التقليد منذ أكثر من مائة عام ، وإذا سألت أمريكا عن السر في عدم علنية عقوبة الإعدام الآن كانت إجابته واحدة من عدة إجابات ..

- لأننا أصبحنا أكثر تحضرًا ..

- لأننا أصبحنا أقل بدائية ..

- لأن العلنية لم تقلل عدد الجرائم ونسبتها ..

- لأن العلنية لم تردع المجرمين ، وأغلب من عوقبوا سبق لهم مشاهدة العقاب العلنى ..

والإجابات كلها صحيحة ، وبعض الأمريكيين سوف تكون إجاباتهم مختلفة .. إنهم يرفضون عقوبة الإعدام أصلا ، فكيف يقبلون بعلانية عقوبة مرفوضة ؟

هذا عن الولايات المتحدة ..
وأنا لا أتحدث عن مصر ..

(٢)

في بلد عربي شقيق ، يتم الاعدام علنا بقطع الرأس .. وكذا يتم قطع اليد والجلد والرجم ..

فالعقوبات البدنية كلها علنية في الميادين العامة ..
أخبرني صديق أقام هناك فترة أن التصوير ممنوع في تلك الميادين ، سواء كان فوتوغرافيا وبالفديو ..
تعجبت لهذا الأمر ، لأن التصوير أعلن (أى أكثر إعلانا) وأردع (أى أكثر ردعا) ..

أخبرني صديقي أيضا أن التلفزيون لا يتقبل هذا ، رغم أنه أسرع سبل العلانية وأكفوها ..

كان صديق آخر من وزارة الداخلية حاضرا المحادثة ، فأخبرني أن (قوافل) النشالين المصريين تسافر إلى ذلك البلد في مواسم محددة ، حتى (تهتل) فرصة هذا التجمع ، وأنهم يمثلون مشكلة حقيقية لوزارة الداخلية في مصر ..

وهذه الظاهرة مازال مستمرة ، رغم قطع اليد علنا ، ورغم قطع يد بعض النشالين المصريين ، ورغم مشاهدة النشالين للعقوبة أكثر من مرة ..

- علنية العقوبة إذن لم تردع هؤلاء ..
- سمعنى صديقى وأنا أردد ذلك فقال ..
- إنها لم تردعهم هناك .. ربما إذن تردعهم فى مصر ..
- أجبتة قائلا ..
- أعفى من مناقشة ذلك فأنا لا أتحدث عن مصر ..

(٣)

- سألتنى ابنتى وعمرها ستة عشر عاما ، وهى عضو فى نادى الشمس ..
- هل صحيح أنهم سيعدمون تاجرا للمخدرات أمام النادى ؟
- قلت لها ..
- يطالبون بهذا ، ولكنى لا أظن ..
- ما هو السبب فى المطالبة ؟
- يقولون إنه للردع ..
- ردع من ؟
- ردع تجار المخدرات ..
- إذن سيجمعون تجار المخدرات ويعدمون التاجر أمامهم ؟
- لا أعتقد ذلك .. إنتم ستكونون جمهور المشاهدين ..
- إذن سيردعوننا ؟
- نعم
- لماذا ؟
- حتى لا تتاجروا فى المخدرات ..
- ومن قال إننا نتاجر .. أو سنتاجر ..
- ربما ..
- هذا غير وارد ..

- إذن يجب إنهاء هذه المناقشة ..
- لماذا ؟
- لأننى أرفض الحديث عن هذا الموضوع ..
- لقد عاهدت نفسى يا ابنتى ألا أتحدث عن مصر ..

(٤)

- سألنى صديقى ..
- هل قرأت بريد الأهرام ؟
- للأسف لم أقرأ ..
- هناك قارئة تطالب بتوزيع أجزاء جسد المحكوم عليه بالإعدام على من يحتاجون إلى (قطع غيار) ..
- لا أفهم ..
- مثلاً يأخذون كليتيه لمن يحتاج إليها ، وعينييه لمن يحتاج إلى ترقيع قرنية ، وكبدته لمن يحتاج إلى زرع كبد .. وهكذا ..
- فكرة عبقرية لكنها غير كاملة ..
- وماذا ينقصها ؟
- ينقصها بعض الإضافات البسيطة ..
- مثل ماذا ؟ ..
- خذ عندك .. هذا التاجر ضخّم الجسد ..
- نعم ..
- إذن فى جسده شحوم ..
- أكيد ..
- نستفيد بها فى صناعة الصابون ..
- كرة ..

- ويقطع جسده (ترانشات) ..
- لماذا ؟
- أمثال هذه القارئة كثيرات .. وسوف يجدن عشرات الاقتراحات ..
- مثل ماذا ؟ ..
- يمكن مثلا الاستفادة من هذه (الترانشات) في صيد أسماك القرش ، وبالتأكيد فإن اللحوم ليست المشكلة ، المشكلة الكبرى ستكون في (الكوارع) ..
- الكوارع ؟ .
- نعم ، الزند ، والأظافر ، وإن كان ممكنا الاستعانة بها مؤقتا في صناعة الجيلاتين ، وهو مطلوب صناعيا ..
- هذا اقتراح ممتاز ..
- ولابد من عرض هذا الاعدام في التليفزيون ، حتى تتحقق العلانية ، ويتحقق الردع ..
- قد يؤدي هذا بعض المشاعر ..
- يمكن التغلب على ذلك بالتدرج ..
- كيف ؟
- نبدأ بإعدام القطط والكلاب .. ثم الأدميين ..
- من المجرمين ؟
- هذه هي المرحلة النهائية .. لكن في البداية يمكن فتح الباب للتطوع ..
- ماذا تقصد ؟
- المسألة في هذه المرحلة ستكون تعليمية ، أو تدريبية ، والتطوع هنا يمكن أن يحل المشكلة ..
- أنت تهذر ..

- بل أتكلم بمنتهى الجدية ..
- المشاعر في مصر لا تقبل ذلك ..
- ومن قال لك إتنى أتحدث عن مصر ..
- أنا لا أتحدث عن مصر ..

(٥)

رجال الدين جميعا أعلنوا سعادتهم بعلنية العقوبة ..
بعضهم أفتى بأن هذا هو حكم الإسلام ..
أصطدم هذا بمعلوماتي عن الإسلام السميع الرحيم ، دين الرحمة
والانسانية .. معلوماتي تقول إن النص على علنية العقوبة لم يرد في القرآن
إلا في آية واحدة ، وفي عقوبة واحدة هي عقوبة الزناة ..
العقوبة التي وردت في الآية هي الجلد وليس الرجم الذي لم يرد في
القرآن .. والآية تقول (وليشهد عذابها طائفة من المؤمنين) ..
والطائفة في قواميس اللغة اثنان فأكثر ، وفي بعضها واحد فأكثر ..
العقوبة فقط في جلد الزناة ، والنص القرآني الخاص بالعلنية يتحقق
بوجود اثنين فقط .. أو أكثر ..
البعض يتوسع في مسألة العلنية ، ويجعلها شاملة لكل العقوبات ، وعلى
رأسها الاعدام ، وهي مسألة فيها نظر ..
ولو قبلنا ذلك ، وهو محل نقاش ، لقلنا إن النص يتحقق في عقوبة
الاعدام في مصر ، لأن من يحضرون الاعدام في سجن الاستئناف هم
الحراس ووكيل النيابة ، وكاتب النيابة وعشماوى ومساعدته ومأمور
السجن ومساعدته والواعظ أو القسيس والطبيب ، وهم يزيدون على
عشرة أفراد وهم أكثر من اثنين بكثير ..
قد يرد البعض بالاستناد إلى السنة الفعلية في حياة الرسول عليه

الصلاة والسلام . وهى سنة فى تقديرنا مرتبطة بأعراف عصر الرسول ، وينطبق عليها ما ينطبق على بعض أبواب السنة ، التى تنصرف إلى عصر الرسول ، ولا تنصرف إلى غيره من العصور ، مثل سنة الرسول فى الزى أو العلاج ..

لماذا الإصرار إذن على الربط بين الإسلام وهذا الشكل من أشكال الاستعراض العقابى ؟

أنا هنا أتحدث عن فهمى للإسلام ..
واجتهد فى حدود معلوماتى المتواضعة ..
ولا أتحدث عن مصر ..

(٦)

أنا شخصيا لم أذبح فى حياتى دجاجة ..
ولا أتحمل مشاهدة ذبح دجاجة ..
ولا أرى فى هذا متعة ..
أحد أصدقائى أقسم لى أننى لو ذبحت دجاجة ، فسوف يصبح ذبح الدجاج بالنسبة لى هواية ، وأنا أصدقه ..
التدريب على الذبح هنا هام ، لأنه يسقط الحاجز النفسى ..
وكذلك القتل ..
السماع عنه شئ ، ومشاهدته شئ آخر ..
المشاهدة تدريب ..
واحد الموانع التى تقف حائلا بين الإنسان والقتل هو أنه لا يتصور أن يرى إنسانا يموت أو يقتل ..
والمشاهدة نصف المسافة إلى الممكن ..
لا أقول هذا من عندى ..

لكنى أقوله من عند علماء النفس ..
القتل أسهل بكثير لدى من يشاهد القتل ..
هذا بالنسبة للكبار ..
أما الصغار فإن القتل قد يشجعهم ..
وهو أسهل السبل لتكوين الشخصية السيكوباتية ..
وأنا هنا أتحدث عن علم النفس ..
ولا أتحدث عن مصر ..

(٧)

بعد أن طالب المستشار جمال عبد الحليم ، وهو بالمناسبة صديق عزيز ،
بإعدام تاجر المخدرات أمام نادى الشمس ، هرع الآلاف فى يوم الجمعة
التالى إلى النادى ، وتصوروا أن الاعدام سيتم بالفعل هناك ..
هذه ظاهرة جديدة على الطبيعة المصرية ..
لكنها ظاهرة تستحق التأمل ..
جذور هذه الظاهرة كانت واضحة فى أحداث الأمن المركزى ، حيث
شاهدنا عنفا لا سابقة له ، والغريب أنه كان عنفا جماعيا ..
الطريف أن دور الكتاب والمفكرين ورجال الاعلام ، أن يبحثوا
أسباب هذه الظاهرة ، وسبل ترويض هذا العنف ومواجهته ..
لكن الذى حدث عكس ذلك على خط مستقيم ..
نحن الآن نشجع العنف ونرعاه ونخرج المارد من القمقم ، وهو إذا
خرج فلن يقف أمامه شىء ..
جريدة الأهرام أعلنت عن استفتاء ..
لم يكن الاستفتاء على نوع جديد من السلع ، ولا عن قوانين
الايجارات ولا فى تعديل الدستور ..

كان الاستفتاء عن (الاعدام في ميدان عام) ..
البعض يقول إنها الحرية ، وهو قول مردود عليه ..
فليس من الحرية مثلا أن يعلن عن استفتاء عن إباحة بيع الحشيش
مثلا ، كما يحدث في هولندا ، وهو استفتاء نتيجه معروفة ..

وبالمناسبة .. مساء الخير .. وأرجو ألا يفهمنى أحد خطأ ، فأنا أتحدث
عن الاعلام .. وعن دور رجال الاعلام ، وهل هو قيادة المجتمع ، أو
الانقياد له ؟ ولا أتحدث عن مصر .

(٨)

لا تظلموا المستشار جمال عبد الحليم ، فهو قاض شجاع ، وهو
شخصية عامة بكل المقاييس ، فهو فنان ، والذي يقترب منه لا بد أن
ينجذب إليه ، لأنه يحمل قدرا هائلا من الشاعر الإنسانية ، والحب ،
والمودة ، لكل من يعرفه ، وهو أيضا صاحب صالون أدبي له بصمته على
وجه مصر الثقافي والحضارى ، وهو لم يضمن حكمه ذلك الطلب ، ولم
يقصد الاعدام علنا أمام الجماهير ، بل قصد الاعدام في مكان مستور ، في
موقع الجريمة ، اندفاعا منه وانفعالا بالجريمة البشعة ، وكان من الممكن أن
تمر عباراته مر الكرام ، لولا أنها وجدت صدى وهوى لدى نفوس يمتعها
ذلك ، وتسعى لتبريره ولو على حساب المنطق ، وقد أساء أصحاب هذه
النفوس إليه ، فنسبوا إليه مالم يقله ، وأولوا ما ذكره لحساب مشاعرهم
القاسية ، وحملوه وزر مالم يفعل ، وذنّب مالم يقله ، وصنفوه في جانب
المدافعين عن العنف ، وهو أبعد ما يكون عنه ، والقسوة وهى ضد طبيعته
وسلوكة ، ولو كان الأمر بيدى لوجهته إليه الشكر ، لأنه كشف لنا
وجها آخر لمصر ، لا نعرفه ، ولا نقبل به ، ولو تحدثت عن هذا الوجه ،

وهاجمته ، لنال مصر التي أحبها من هذا الحديث رذاذ .. ولهذا .. لا أتحدث
عن مصر ..

(٩)

إذا كنتم جادين فعلا في تطبيق ذلك في مصر ، فأرجوكم ، أعطونا
مهلة ، حتى نرتب أمورنا ، وتغادر الوطن ، ونذهب إلى أى مكان في
العالم ، يحترم فيه الوطن آدمية المواطن ، وإنسانيته ، حتى لو كان مجرما ..
في العالم كله موجة ضد أحكام الاعدام ، ومن حقنا بالطبع أن نرفض
ذلك ، لأن طبيعتنا ترفض بعض الجرائم البشعة . مثل الاغتصاب ومثل
ترويج الهيرويين ..

الجديد في الأمر أننا نطالب بعقاب (بشع) وهو القتل العلني ولا نسأل
أنفسنا عن الفرق في هذه الحالة بيننا وبين المجرم ..
إذا كان الأمر متعلقا بالثأر من المجرم فالإعدام يكفى ..
وإذا كان الأمر متعلقا بالردع ، فالإعلان عن تنفيذ الاعدام يكفى ..
أما إذا كان الأمر يتعلق بما هو أكثر ، وهو الاستمتاع بمشاهدة القتل ،
وإذا كانت الدعوة للإعدام العلني قد وجدت هذا الهوى وهذا الصدى في
نفوس الكثيرين ، ومنهم كبار الكتاب ، فلا بد من وقفة ، ولا بد من
موقف ..

أما الوقفة فأقصد بها الاعتراض ، والتعجب ، والأسف ..

وأما الموقف فهو أن أقول لا ..

في وجه من قالوا نعم ..

في وجه من يستمتعون بالألم ..

وأنا هنا أتحدث عن نفسى ..

وباليقين .. لا أتحدث من مصر ..

يا قلبى لا تحزن

أصبح للارهاب دولة فهناك الصحف التى تدافع عنه ، وهناك الفلاسفة الذين يبررونه ، وهناك القوى الخارجية التى تدعمه ، وهناك بعض الدعاة الذين يقطعون نصف الطريق إليه ، وهناك التردد الذى يواجه به بعض رموز الاعلام المصرى الموقف ، والنتيجة يمكن اختصارها فى عنوان هذا المقال ، وهو (يا قلبى لا تحزن) ، فجرائم القتل مستمرة ، وجرائم النهب متواصلة ، وجرائم اثاره الفتن الطائفية متواترة ، والقتل الآن لم يعد للمواطنين الآمنين ، مع الاحتياط بالاختفاء بعيدا عن أعين الشرطة ، كما يفعل الإرهابيون فى كل مكان ، بل أصبح جديدا فى جديد كما تقول احدى المطربات .

الجديد الآن هو قتل رجال الشرطة أنفسهم ، ليس ردا على اعتداء ، بل بدءا باعتداء ، وفى مثل هذا لا مجال لحوار أو لأخذ وعطاء ، وإلا فقدنا جميعا نعمة الأمن ، وفقدنا قبل ذلك سلطة الدولة وهيبته ، وكرامتها ، وكل هذا سوف تنال منه نصيبا مهما تصور البعض منا أنهم بعيدون عنه أو غير مشاركين فيه .

واستشهد المقدم
أحمد علاء الراوى

ولو أنصفنا لقلنا أن الرصاص أصاب صدورنا جميعا ، فالرجل كان يؤدى واجبه ، ولم يكن بينه وبين الجناة ثأر ، وعندما أصابه الرصاص اعطانا درسا بليغا فى أداء الواجب ، فقد توجه بسيارته نحوهم وأصاب

(الموتوسيكل) الذى يحمل الجناة فسقط أحدهم فى التربة ، وتمكن
الاهالى من القبض عليه ، وبعدها سكن الجسد النبيل ، وصعدت الروح
إلى بارئها ، وأصاب اليتيم ميرا (٨ سنوات) ويسرا (٦ سنوات)
ومحمد (٦ شهور) ، وما تزال الطفلتان فى انتظار دخول الأب إلى منزله
ومعه فوانيس رمضان ، ولن تدرك واحدة منهن أن رمضان هذا العام ، وكل
رمضان قادم ، سوف يخلو من الفوانيس ، فقد انطفأت شعلة الحياة فى
جسد الأب ، وسوف يكبر محمد ، وسيسمع القصص عن بطولة والده ،
وعن استشهاده ، لكن هذا لن يغنى أبدا عن حنان الأب ، ورعايته ،
وسوف تذهب زوجة الشهيد وأمه إلى قاعة المحكمة ، ولست أدري كيف
ستتحمل مشاعرهن رؤية قاتل لم يعرف القتل ، ولم يقترب منه ، ولم
يشاهده إلا حين صدرت إليه التعليمات بالقتل ، وسوف يشاهدن موكب
المحامين الأفاضل ، الذين يهتبلون هذه الفرصة ، ليس للاعتذار عن
الجريمة ، أو طلب تخفيف الحكم ، بل لالقاء المرافعات الرنانة ، عن بطولة
القتلة ، وحقهم الشرعى فى القتل ، وفساد الدولة ، وكفرها وجاهليتها ،
وربما تجاوز بعضهم كما يحدث فى العادة ، فقال فى القتل ما قاله مالك فى
الخمر ، وساعتها ستشهد قاعة المحكمة وقائع الاغتيال الثانى للشهيد وهو
اغتيال هذه المرة يحميه القانون ويربح منه المحامون ، هم نفس الوجوه
التي نعرفها ونراها فى كل مرة والذين يعلنون عن أنفسهم بأنهم محامو
التيار الاسلامى ، ولست أعرف على وجه اليقين ما هو سر هذه التسمية ،
فالإسلام دين عظيم ، وهو أعظم من أن ينحصر فى تيار أو أن تنسبه جماعة
إلى نفسها ، والإسلام أبعد ما يكون عن مثل هذه البشاعة ، والتنظيم
الجبان الذى انتمى إليه القاتل يحمل اسما عجيبا هو (تنظيم تكفير
الكافر) ، وهو اسم يعكس البلاء الذى نعيشه ، حين يعطى الصبية
الجهلاء لأنفسهم حق التكفير ، وحق اصدار الأحكام ، وحق تنفيذها ،

ولعلمهم حاولوا الهرب من كراهة الاسلام ورفضه لتكفير المسلم ، فلاذوا
بشعار (تكفير الكافر) ، وهم آمنون مطمئنون ، فالدعاة في منايرنا
الاعلامية يكفرون المجتمع بطريقتهم وساجمون الدولة بأسلوبهم ، فهذه
مظاهر فسق ، وهذه ظواهر خلاعة ، وهذه آيات معصية ، وهذه علامات
كفر ، وهذه مصادر دخل آثمة ، والذي يقرأ لهم ويسمع ، يتصور أنهم
يقبضون مرتباتهم من دولة أخرى لها مصادر دخل مختلفة ، وأنهم ينالون
الشهرة من خلال وسائل إعلام أجنبية لا علاقة لها بدولة الكفر
والمعصية ، وأنهم ينتمون لوطن آخر غير مصر ، التي تنفق نحو نصف
مليار جنيه سنوياً على الأزهر الشريف وحده ، والتي تحتفى بالعلم
والعلماء ، والتي بلغ المسلمون فيها من التدين والاقتراب من الله واحترام
الأديان حداً لم تبلغه دولة في المنطقة المحيطة بنا كلها .

وسوف نسمع ما نكره

وأشد ما نكره هو ذلك القول ، الذي يقوله أنصار الارهاب ، دون
وجل أو خجل ، وهو أن هؤلاء المتطرفين ، أو الارهابيين ، شباب وديع
مؤمن طيب ، أجاد القصد ، وأخطأ الوسيلة ، وأصاب الهدف ، ولم يصب
السييل ، وهو قول سمعناه في كل مرة ، وفي مواجهة كل جريمة .

سمعناه حين قتل الارهابيون من تنظيم (التذير) ، مدير بنك
(إسلامي) في المنصورة ، ومعه ابنة الصغير البريء ، ومعه صديقه الذي
قاده حتفه إلى زيارته ، وآه لو نجح القتل في الهروب بالغنيمة ، وأطلقوا
بعدها رصاصة واحدة على مسئول في الدولة أو في أجهزتها ، إذن لشاهدنا
زفة المحامين من حديد ، وطنطنة بعض صحف المعارضة ، ودفاع بعض
الآثمين قلباً ووجداناً عن الآثمين يدا وعدواناً .

لا أقول هذا دون دليل ، فقد بدأ قتلة السادات (نضالهم) بسرقة

وقتل الصاغة الأقباط في نجع حمادى وشبرا الخيمة ، لكنهم اتبعوا آثامهم
ياثم أكبر ، يروق للمشاركين في الجريمة بالنصيب الأكبر ، وهم المدافعون
عن الارهاب باللسان والقلم ، فأصبحوا ابطالا ، ورموزا للجهاد ، وأمثلة
للمنضال .

شباب طيب إذن ، غاية في الأمر أنه يسرق .. شباب مؤمن بغير شك
لا يضره أبدا أنه يقتل .. شاب طاهر دون ريب لا يعيبه أنه يمزق الوطن
بالفتن .

أما المحامون الذين يبررون فعالهم تحت راية اداء الواجب ، فهم فتية
آمنوا برهم وشيوخ يدافعون عن دينهم ، ومواكب حق تنير الطريق
للقلة ، اللصوص ، المتعصبين .

لا يأسادة

فالارهاب لا ينبع من الصبية ، بقدر ما ينبع من (المعلمين) ، الذين
يزينونه سياسيا بعدم إدانته ، وإعلاميا بادانة المجتمع ، وفكريا بإهدار
الدستور والقانون ، والبحث عن شرعية بديلة .

والإرهاب يا سادة لا يواجه فقط بالشرطة ، ولا يحاسب فقط
بالقانون ، بل يواجه ويحاسب بالرأى العام الذى يجب أن يتكلم ضده ،
وأن يتشكل لمواجهته وابتحثوا في أساليب تكوين الرأى العام حتى تضعوا
أيديكم على مفتاح المشكلة .

ابتحثوا في الصحف القومية عن بعض المقالات الأسبوعية وبعض
الأعمدة اليومية وسوف تكتشفون العجب ، وأنا لست من دعاة المنع أو
المصادرة على الفكر ، فموقفى معروف من هذا ، لكنى من دعاة فتح
المنابر للآراء المختلفة ، أما أن تفتح الدولة منابرها لدعاة هدمها وتقصرها
عليهم ، وأن يتسع صدر الدولة المصرية المدنية ، لمن يدعون أسبوعيا

لشرعية دينية بديلة ، وأن يحتل (اللوبي) المناصر للارهاب مواقعه ،
ليس في بعض مواقع المعارضة وحدها ، بل في بعض المواقع الاعلامية
المؤثرة ، فهذه جريمة في حق مصر كلها ، سوف نحصدتها جميعا اربابا
واغتياالا ونهبيا وتمزيقا للوطن .

وأنا اتساءل

ما الذى ينتظره المجتمع حتى يصحو في حملة لمواجهة هذا الارهاب
الشرس .

ماذا بعد قتل رئيس الدولة السابق ؟ .

ماذا بعد قتل رئيس مجلس الشعب السابق ؟ .

ماذا بعد قتل ضباط وجنود الشرطة في أسبوط وعين شمس
والفيوم ؟ .

ماذا بعد سيطرة أنصار الإرهاب على بعض النقابات وبعض نوادى
أعضاء هيئة التدريس ؟ .

ماذا بعد الفتن الطائفية التى تتواتر وتتابع سنويا وموسميا ؟ .
هل تنتظر أن يدخلوا علينا البيوت ؟!

هل بلغ تأثيرنا بمحمد عوض فى المسرحية الشهيرة ، أن أصبحنا نردد
كلماته .

ينطلق الرصاص ونحن نفكر ونفكر .

تنتهك الحرمات ونحن نفكر ونفكر .

يقتل القادة ونحن نفكر ونفكر .

يغتال رجال الشرطة ونحن نفكر ونفكر .

ثم ينتهز البعض الفرصة ليوسعوا أنصار مواجهة الارهاب هجوما

ونقدا وتشكيكا في العقيدة ، وتكفيرا في الاعتقاد ، وتكتمل الصورة في النهاية بمصادرة كتبهم .

لم تعد الصورة في حاجة إلى رتوش أو تزويق أو تجميل .
الذين يواجهون الارهاب يحاكمون على آرائهم .
والكتب التي تتصدى للمجرمين تصدر .

ودخول التليفزيون محظور على رموز المواجهة للارهاب ، بل وعلى رموز مناصرة الدولة المدنية ، والدفاع عن الدستور والقانون .
حتى الأحزاب التي تتصدى للمواجهة ، تتعطل الموافقة عليها حتى يئأس أصحابها من الاستمرار ، وينضمون إلى الطابور الذي يفكر ويفكر ، ثم يقرر أن يغير أسلوبه ، فيندفع هادرا وثائرا ، لكي يفكر ويفكر .

وما أسوأ ما نفعله بأنفسنا

نعم ، فنحن أسرى الحكمة البليغة ، بيدي لا بيد عمرو .. أكتب هذا وقلبي يتمزق .

فالاعلام ليس في يد المتطرفين ، وقد نجح خلال أكثر من خمس عشرة سنة ، في أن يرسخ في الازدهان أن الشرعية المدنية ، التي تحتكم للدستور والقانون ، لم تعد صالحة ، وأن الأصلح للجميع هو الشرعية البديلة ، وقد تسلل هذا إلى العقول والقلوب ، وأصبح سنداً للارهاب ، ومبرراً له .
والتعليم ليس في يد الجماعات الارهابية ، ومع ذلك يجرؤ البعض على التخلي عن تحية العلم ، وعن الهتاف باسم مصر ، وبعض المدارس تحولت إلى معامل تفريخ للارهاب والارهابيين ، تحت سمع وبصر الدولة .
والقانون في مصر يمنع نوادي أعضاء هيئة التدريس من العمل

بالسياسة أو الدين ، وهى لا تعمل فى أحدهما فقط ، بل تعمل فى الاثنين معا ، وربما لا تهتم بغيرهما .

والقانون يمنع خطباء المساجد من التحريض السياسى ، وآلاف المساجد تخصصت فى ذلك وبعض أئمتها صبية لا يستطيع الواحد منهم أن ينطق جملة عربية صحيحة لكنه يجيد الحديث عن الكفر والجاهلية والاغتيال وسب الأعراض والتحريض على الدولة والمواطنين .

والنقابات المهنية لم تعد متفرغة لخدمة أبناء المهنة ، لأن هناك ما هو أهم ، وهو مساعدة ثوار أفغانستان وعقد المؤتمرات (لأسلمة العلوم) بعد أن اكتشفت أن العلوم هى الأخرى كافرة ، فالطب كافر ، والهندسة زنديقة والصيدلة فاسقة .

كل هذا يحدث ونحن منشغلون عنه .

هل يعرف القارئ لماذا .

لأننا ، ومعذرة ، مازلنا نفكر ونفكر ، وأرجو ألا يسألنى القارئ عن الحل لأننى منذ أكثر من سبع سنوات وأنا أكتب وأنشر مقالات وكتبا ، أطرح فيها حلولاً ومناهج للمواجهة والتصدى ، ويفعل غيرى المثل ولا أحد يسمع ، لأن الجميع منشغلون بشيء آخر .
هل تعرفون ما هو .

لا بد أن القارئ هنا سيجيب ، وسيبتسم .

ومعذرة للغضب

فأنا بالفعل غاضب ، وحزين ، وثائر ، وأظن أن الغضب والحزن والثورة لا تحتاج إلى شرح أو توضيح .

لقد دخل الحزن هذا الشهر الى بيت المقدم الشهيد ، وغدا سيدخل بيوتا غيره ، وأمامى الآن مجلدان أصدرتهما شركة (المحروسة) وهى

شركة متخصصة في جمع وتوثيق ما ينشر في الصحف عن موضوعات محددة ، وقد جمعت أحداث التطرف والارهاب والفتن الطائفية في عام ١٩٩٠ فشغلت نحو ألف صفحة ضمنها مجلدان كبيران ، وكنت أود أن يتاح هذا للقراء جميعا حتى يدرك الجميع ما نعيشه وما نقدم عليه ، وما يدفعني إلى سؤال كل صاحب ضمير حى .

ماذا سنقول لأولادنا تبريرا لما يحدث أمامنا وما يحدث منا .
هل سنقول لهم ، كان الصبية يقتلون باسم الإسلام فانشغلنا عن مواجهتهم باثبات أن الاسلام لا يبرر القتل .
سيضحكون ملء أشداقهم من غفلتنا وسيرددون ، وهل هذا يحتاج إلى اثبات .

هل سنقول لهم إن بعض الجبناء نجحوا في اشعال الفتن الطائفية فانشغلنا بالحديث عن سماحة الإسلام .

سيسخرون منا ، وسيسألون ، وهل سماحة الاسلام تحتاج إلى دليل .
هل سنقول لهم إن بعض الجهلة حاربوا العلم والوطنية والوحدة والفن والأدب والثقافة الانسانية الرفيعة ، وأتينا اكتشفنا أننا كنا نزرع الأرض لهم بمقالات أسبوعية في أكبر الصحف والمجلات ، وأتينا تصدينا ليس لهم بل لمن يتصدون لهم ، وصاغرنا كتبهم ، ومنعناهم من أجهزة الاعلام ، حتى لا نثير مشاعر القتلة فيقتلون أكثر ، وحتى لا نستفز اللصوص فيسرقون أكثر ، وحتى لا نثير المتعصبين فيثيرون الفتن أكثر وأكثر .

إن كان هذا يرضى أحدا ، فهو لا يرضى بالقطع ، كاتب هذه السطور .

وليعذرني القارئ للحزن والغضب والثورة مرة ثانية ، فللمرة الأولى أشعر بقدر من الضيق وربما اليأس بينما سؤال حزين يمزق صدرى ومشاعرى هو .

ماذا تنتظر للمواجهة .

والى متى لا تصبح قضية التصدى للارهاب أولى القضايا .
وكيف تتطوع جميعا بالتخلى عن أسلحتنا فى المواجهة طواعية وبمنتهى
المحبة والاشفاق والدبلوماسية ، وهذه كلها كلمات معسولة تخفى حقيقة
مشاعرنا ، التى ربما كانت الكراهية مقترنة بالتردد ، والرغبة فى التصدى
مقترنة بالتخاذل ، والسعى للمواجهة مقترنا بحسابات لا معنى لها
ولا فائدة منها .

فليسفر كل محب للوطن عن وجهه .

وليواجه كل قادر على المواجهة لأن هذا قدره .

وليدق كل صاحب ضمير ناقوس الخطر لأن هذا واجبه .

ولأعترف للقارئ بأننى كتبت عنوان المقال وأنا هادئ .

فلما خضت فيه انفعلت انفعالا لا أندم عليه ، ولهذا استسمح القارئ
فى الاعتراف بأننى الآن رافض للعنوان ، ولو قدر لى أن أكتب المقال من
جديد لوضعت عنوانا له (يا قلبى احزن) .

نعم .. يا قلبى احزن .

ويا قلم لا تتردد .

ويا شعب واجه .

ويا مصر كونى وطنا للمصريين ، كل المصريين وللشجعان غير
الترددىين ، وللمواجهين ، وللتنوير وللمتشورين ، وللحضارة
وللمتحضرين ، وللدستور وللقوانين ، ومعذرة لهذا الوضوح ، فلا مكان فى
المستقبل ، إن كان هناك مستقبل ، للخائفين أو للمتردددين ..

حوار حول الدولة المدنية

فرق كبير بين البحث والمحاضرة والمقال الصحفي ، فالأخير لا يحتمل الرجوع للمراجع ، والتوثيق بالمصادر ، وكاتب هذه السطور يحب لأخيه القارئ ما يحب لنفسه ، ولهذا يفضل أن يكون المقال خفيفا رشيقا ، ولا مانع أن يكون موضوعيا وعلميا ، والأفضل من هذا كله أن يكون مرتبطا بواقع حى ، وهذا متاح بالنسبة للعنوان الذى اخترناه ، وهو (الدولة المدنية) ، لأن قضية (مصر بين الدولة المدنية والدولة الدينية) ، كانت محور مناظرتين ساخنتين ، شارك فيها كاتب هذه السطور ، مدافعا عن الدولة المدنية ، الأولى كانت فى معرض الكتاب الدولى بالقاهرة ، وحضرها أكثر من عشرين ألفا ، والثانية كانت فى نادى المهندسين بالاسكندرية ، وحضرها نحو أربعة آلاف ، توزعوا على خمس قاعات ، احتوت على مكبرات الصوت وشاشات العرض ، وللأسف الشديد لم تحظ المناظرة الثانية بما حظيت به الأولى من تركيز اعلامى ، رغم إنها كانت أكثر سخونة ودسامة وثراء .

الذين اختاروا موقعهم تحت راية الدفاع عن الدولة الدينية ، كانوا فى المناظرة الأولى ، الشيخ الجليل محمد الغزالى الداعية الاسلامى المعروف ، والأستاذ مأمون الهضيبي المتحدث الرسمى باسم الإخوان المسلمين ، والدكتور محمد عمارة الكاتب الاسلامى الشهير ، أما فى المناظرة الثانية ، فقد كانا الدكتور محمد عمارة ، والأستاذ الدكتور محمد سليم العوا ، وهو كاتب إسلامى ومحاضر قدير .

على الجانب الآخر كان المدافعون عن الدولة المدنية في مناظرة القاهرة هم كاتب هذه السطور ، والدكتور محمد أحمد خلف الله الكاتب الاسلامى المعروف ، أما في مناظرة الاسكندرية فقد كانوا : كاتب هذه السطور والأستاذ الدكتور فؤاد زكريا أستاذ الفلسفة والمفكر الشهير .

استمرت المناظرة الأولى زهاء ثلاث ساعات ، بينما استمرت الثانية أكثر من أربع ساعات ونصف الساعة ، وتحكم الزحام في المناظرة الأولى ، إضافة إلى جدة أسلوب المناظرات ، وسخونة أنصار الدولة الدينية ، الذين تنادوا وتذاعوا وتدفقوا على معرض الكتاب ، وأشعلوا المشاعر بهتافات ساخنة ، زادها سخونة ما تواترت به الأنباء من الجزائر ، وهو ما انعكس على أداء أنصار الدولة الدينية ، وإن كان واضحاً أن المناظرة قد انتهت في مناخ معاكس تماماً ، فقد انعدم الهماس ، وذابت الحدة ، وسيطر الهدوء على الحاضرين ، وانصرف الجميع وهم يدركون ما لم يدركه البعض في البداية ، وهو أن أحداً لا يمتلك الصواب المطلق ، ولا الحق المطلق ، وأن لكل طرف حججه ومنطقه ، وأن مساحة الالتقاء أكبر بكثير من مساحة الخلاف ، وأن الاسلام ليس طرفاً في الحوار ، فهو لدى الفريقين في أعلى عليين ، بيد أن الرؤى التى تنطلق منه ، ولا تصطدم به ، تختلف وتتباين وتتعدد وتتجاوز وتؤكد ما اقتنع به الجميع : مناظرين وحاضرين ، وهو أن الحوار هو الحل .



هذا المناخ هو الذى سيطر على مناظرة الاسكندرية ، حيث كان واضحاً أن أغلب الحاضرين قد انتقلت اليهم أخبار المناظرة الأولى ، وشاهدوها من خلال شرائط الفيديو ، أو سمعوها من خلال شرائط الكاسيت ، أو قرأوها كاملة على صفحات مجلة أكتوبر ، ولهذا حضروا للانصات ، وأرهفوا اسماعهم لهذا وذاك ، ولم يخطر في بال أحد منهم أبداً

أن فريقا سوف يصرع الفريق الآخر بالضربة القاضية ، وانتقل هذا كله إلى المتناظرين ، فأفاضوا في شرح حججهم ، وأسعدوا الحاضرين بصراع فكري حقيقى ، فما يتصور الحضور أن أحد الفريقين قد أحرز هدفا في مرمى الطرف الآخر ، حتى يفاجأوا بالكرة قد ارتدت إلى مرمى الطرف المنافس ، ثم إذا بها تعود مسرعة ، ثم ترتد مرة ثانية في لمح البصر ، وهكذا حتى انتهت المناظرة في سلام ، وخرج الحاضرون وعلى وجوههم الابتسام ، بينما قبلات المجاملة تطرق بين المتناظرين ، كأنهم لم يكونوا أطراف حوار ساخن ، مشتعل منذ لحظات .

* * *

هذه صورة أردت ان أنقلها للقراء ، حتى لا ينزلق أحد منهم الى ما انزلق إليه جمهور الحاضرين قبل المناظرة الأولى ، من خلط لأوراق الفكر والدين ، أو صبغ لمنهج فكري بأنه صواب مطلق ، أو باطل مطلق ، ولعل أيسر سبيل للوقاية من ذلك ، هو طرح ما أكده الجالسون تحت شعار الدولة الدينية ، خلال المناظرتين ، من آراء متباينة ، لكنها تتفق جميعا على إنكار ورفض الدولة الدينية بالمنهج الشيوقراطى (منهج الحكم بالحق الإلهى) ، ورغم أن هذا المنهج يجد توثيقا فى أقوال بعض حكام المسلمين فى التاريخ الاسلامى ، فإن هذه آراء مسلمين ، وهى ليست حجة على الاسلام ، بقدر ما هى حجة على أصحابها ، وفى المقابل فقد اختلفت آراء الفريق المشار إليه فى التصورات التفصيلية لما يدعون اليه ، فبينما تساءل الشيخ الغزالى عن المقصود بالدولة الدينية ، وذكر أنه يفهم منها أنها الدولة الاسلامية ، دون خوض فى التفاصيل ، أعلن المستشار الهضيبى قبوله بالدولة المدنية كإطار مع تحفظ أكد عليه ، وهو تطبيق التشريعات الاسلامية ، بينما أطلق الدكتور محمد عمارة شعارا مدويا نصه (بديل الدولة الدينية هو الدولة اللادينية ، وبديل الدولة المدنية هو الدولة

العسكرية) ، وهو شعار يضع المستمع في حيرة ، فالنصف الأول منه يدعو أى عاقل إلى تجنب بديل الدولة الدينية ، لأنها في تقدير الدكتور عمارة دولة لا دينية ، أو دولة كافرة ، بينما النصف الثانى من الشعار يدفع المستمع إلى قبول الدولة المدنية ، لأن بديلها وهو الدولة العسكرية مرفوض ابتداء .

النتيجة إذن ، إذا أخذنا بهذا الشعار ، هو القبول بالدولة الدينية والدولة المدنية معا ، وهو ما أظن أن الدكتور عمارة لم يوضحه بالدرجة الكافية في المناظرة الأولى ، وكان من حظ الجميع أنه قد اتبعت له الفرصة لهذا التوضيح في المناظرة الثانية ، حيث أوضح أن الدولة الإسلامية في تقديره ، التي تحظى بقبوله وقبول الكثيرين من تياره السياسى ، هى الدولة (المدنية) حكما والدينية (تشريعا) وأظن أنه بهذا التوضيح تتكامل ملامح التصور لدى فريق الدولة الدينية ، وأظن أن الأستاذ فهمى هويدى قد أكد على هذه الفهم ، خلال عدة مقالات نشرها حول الموضوع في جريدة الأهرام .

* * *

من خلال هذا التصور يبدأ الخلاف الحقيقى بين الفريقين ، حيث يرى فريق الدولة المدنية ، الذى أشرف بالانتساب إليه ، أنه لا خلاف حول الدين ، وأن الخلاف يدور حول مفهوم الدولة ، وبالتحديد حول مرجعيتها ، التى لا بد أن تنحصر تحديدا في الدستور والقانون ، اللذين يضعهما البشر ، لصالح البشر ، وعلكان تغييرهما إذا تغيرت المصالح والظروف والحادثات ، وإذا كانت التشريعات الوضعية تتعرض للتفصيلات ، فإن الدستور يتعرض لما هو أهم في تقديرنا ، وأسبق في قائمة الأولويات ، وهو نظام الحكم ، الذى نحسب أن دعاة الدولة الدينية ، لم يقدموا فيه اجتهادا مقنعا ، ولم يحسموا خلافتهم حوله ، ولم

يستقروا بعد على مفهوم الشورى ، وهل هي ملزمة أو معلمة ؟ وحول
الديموقراطية ، وهل هي كفر بواح كما يدعى البعض ، أو أنها تعكس روح
الاسلام الحق ، كما يرى فريق آخر من التيار السياسى الاسلامى ، أو أن
لها وعليها كما يرى فريق ثالث ؟ وما هو البديل تحديدا حتى نتجاوز
حوله ، ونقبل به ، أو نرفضه ، ونقتنع به أو نعترض عليه ؟ وحول
الحاكم ، وهل يجب أن يكون قرشيا ، كما يؤكد البعض ، أو أنه يولى
الأصلح ، ولو كان عبدا رأسه زبيبة ؟ وحول أسلوب تولية الحاكم ، وهل
هو انتخاب أهل الحل والعقد كما حدث فى انتخاب أبى بكر الصديق رضى
الله عنه ، أو التولية بتوصية من الخليفة السابق فى خطاب يبايع عليه
المسلمون وهو مغلق ، كما حدث فى تولية عمر رضى الله عنه ، أو اختيار
مجموعة منتقاة يختارون بدورهم الخليفة ، كما حدث فى انتخاب الستة الذين
اختارهم عمر ، للخليفة عثمان رضى الله عنه ، أو بيعة بعض الأمصار كما
حدث فى خلافة الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، أو أن التولية
جائزة بحد السيف ، كما حدث فى تولية معاوية ، أو بالوراثة كما حدث فى
تولية يزيد بن معاوية ، أو أن هذه جميعا اختيارات ، لنا الأخذ بها جميعا ،
والاختيار منها حسب الظروف والملابسات ؟ وإذا كان هذا منطقا مقبولا
فأى هذه الاختيارات أوفق وأنسب ، أو أن هذه كلها كانت اجتهادات
فقهاء المسلمين لعصرهم ، ولهم أن يجتهدوا ، لعصرنا ، كما اجتهد
السابقون ؟ وإذا كان الأمر كذلك فأين ياترى هذا الاجتهاد ؟
تلك أمور لابد أن يجمع عليها الفريق المدافع عن الدولة الدينية ،
ولابد أن يكون واضحا لديهم ولدينا موقفهم من حرية الفكر ، ومن حرية
الاعتقاد ، وهل هذه الحريات مطلقة ؟ وإذا لم تكن فما هى القيود تحديدا ؟
وأى الآراء والاجتهادات هى الراجحة فى معاملة غير المسلمين ؟ وأياها
المرجوح ؟ وهل يا ترى تندرج هذه الأمور جميعا ضمن الجانب الدينى فى

الدولة الإسلامية وهو جانب التشريع ، أو في الجانب المدنى ، وهو جانب السلطة ؟.

أمثال هذه القضايا العامة محل خلاف وجدل شديدين من أنصار الدولة الدينية - أو الإسلامية - وهم لا يتعرضون لها إلا على سبيل الرأى الشخصى ، أما الرأى السياسى ، الذى يجمع عليه أنصار التيارات السياسية ، وبعضها يضم الآلاف المؤلفة ضمن فريقه أو جماعته ، فهو غائب عن الساحة ، ويدهى أن مثل هذه الآراء ، إن كانت فى صلب الجانب التشريعى وبالتالى (الدينى) كما يذكرون ، فلا بد أن تكون موثقة بالنص ، أو الاجماع ، أو القياس فى أقل القليل . كما لا بد أن تكون محددة ، وبدونها لا يستقيم الحديث عن الدولة ، سواء سميت بالدينية أو الإسلامية ، فليس معقولا أن مجرد تطبيق بعض التشريعات الجنائية ، هو الذى يصبغ الدولة بصبغة الدين أو يحجب عنها هذه الصفة ، خاصة أن مجال الاجتهاد واسع فى تلك القضايا التشريعية ، إضافة إلى أن المتاح منها حاليا ، لا يخرج عن نطاق اجتهادات فقهاء القرنين الثانى والثالث الهجريين لعصرهم ، وهى اجتهادات يتناقض بعضها مع العلم ، وبعضها الآخر مع العقل ، وبعضها الثالث مع ظروف العصر ومواءماته وأعرافه .

* * *

لا نريد الخوض التفصيلى فى هذه القضايا ، وإن كنا قد خضنا بالفعل فيما كتبنا وحاضرنا وناظرنا ، بيد أننا نلفت النظر إلى قضية ركزنا عليها ، وما نزال نركز ، وهى ضرورة أن يتوافر لدى أنصار الدولة الدينية برنامج سياسى تفصيلى ، ونجزم أن بذل الجهد فى هذا الاتجاه سوف يحسم كثيرا من الأمور ، ويزيل كثيرا من الأوهام حول الخلافات الجذرية العميقة ، وهى ليست كذلك بالقطع .

لقد تحاورنا فى الاسكندرية حول تطبيق الشريعة ، وكانت وجهة نظر

كاتب هذه السطور أن أحدا من أنصار الدولة المدنية لا يحجر على السعى لذلك بالأسلوب الديمقراطي والتشريعي المعروف ، بيد أن روح الاسلام تأبى البدء بالوجه العقابي ، فمن السهل ان نرجم الزناة أو أن نجلددهم في الميادين غدا ، لكن روح الاسلام تدعونا جميعا إلى البدء بسد الذرائع ، وفي هذا نلتقى ، فليس بخاف على أحد أن موانع الزواج كثيرة ، ومنها البطالة ، ومنها انخفاض مستوى الدخول ، ومنها وربما كان على رأسها أزمة الاسكان ، ومن أجل هذا نطالب بالبرنامج السياسى ، الذى سيتعرض بالحثم لحل مشكلة الإسكان المزمته ، وساعتها ، وهذا ما ذكرت ، سوف يكتشف الفريق الآخر فى الحوار ، أنه لا يوجد مبنى يؤسس على المذهب الشافعى ، أو مبنى يؤسس على مذهب ابن حنبل ، وان المباني لا تقام على قواعد الايمان ، ولكن على القواعد الخرسانية ، مع كل الاحترام للأئمة ، وللإيمان الذى موقعه القلب ، وساعتها أيضا سوف يكتشف الفريق الآخر أنه قريب من فريقنا ، وأنه لا خلاف بيننا على عكس ما يبدو فى الظاهر .

لا أريد أن أستطرد فى الحديث ، وأحسب أن القارئ فى حاجة إلى تأكيد منا على الحقائق التالية :

أولا :

إن الدولة المدنية لا تحتاج إلى تعريف بقدر ما تحتاج إلى وصف أو توصيف ، فمصر على سبيل المثال دولة مدنية ، ونحن نصفها بذلك لكونها تستند فى نظام الحكم وتفصيلاته ، إلى الدستور والقوانين (الوضعية) أى التى يضعها البشر لأنفسهم ، وتحقيقا لمصالحهم ، ويملكون تغييرها بتغير المصالح .

ثانيا :

إن المرجعية (المدنية) لا تتجاهل المرجعية الدينية ولا تقفز فوقها ، بل كثيرا ما تلتقى معها ، اذا تحقق الاجتهاد المستنير الذى يوائم بين النصوص الثابتة ومتغيرات العصر ، ومثال ذلك فى مصر ، قوانين الأحوال الشخصية التى لا يعترض أحد على مرجعيتها الدينية .

ثالثا :

إن الدولة الدينية ليست فى حاجة إلى تعريف ، بقدر ما هى فى حاجة إلى وصف أو توصيف. هى الأخرى ، فهى ليست وهما أو خيالا أو حلما بل تجربة تاريخية طويلة ، استمرت زهاء ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، ونحسب أن لا أحد يختلف حول أن العبرة بالخواتيم ، وأن ما انتهت إليه هذه التجربة ، كان وبالا على المسلمين ، بل نحسب أيضا أن هذه الدولة ينطبق عليها قول الشيخ الغزالي (إنها بعد فترة حكم الراشدين ، قد فقدت صفة الرشد) وما نظن أنها على مدى هذه السنوات الطوال ، عدا سنوات قليلة ونادرة ، كانت نموذجا يحتذى ، أو مثالا يستحب تكراره ، خاصة إذا قومناها من زاوية استبداد الحكم وحقوق الرعية وحقوق الانسان .

رابعا :

يبدو أن هذا التاريخ الطويل ، هو الذى دفع من تحاوروا معنا إلى الخروج بهذه القاعدة الاجتهادية (مدنية السلطة أو الحكم ، ودينية التشريع) ، لأنهم لو ذكروا عبارة (دينية السلطة أو الحكم) لتناقض هذا مع سلوك حكام المسلمين فى الأغلبية الغالبة من تاريخهم ، ولعل هذا يحصر الخلاف حول التشريع ، وهو خلاف لا نرى بأسا من الخوض فيه

في مجال آخر ، وحوار طويل ممتد ، بيد أننا نلقت النظر إلى أن هناك ما هو أهم ، وهو نظام الحكم (الأيديولوجية السياسية) والبرنامج السياسي لحل المشكلات ، وبها يتحدد شكل الدولة وأسلوب ادائها السياسي ، وتظل التشريعات بعد ذلك ضمن ما نسميه (التفصيلات) أو إن شئنا الدقة (تفصيلات التفصيلات) ..

نحن هنا نتمنى أن يكون التركيز على الأصول قبل الفروع ، وعلى الأسس قبل التفريعات .

خامسا :

ما نزال نعتقد أن بعض الأسئلة ما تزال حائرة ، وتحتاج إلى اجتهاد حول إجاباتها ، ومنها التساؤل حول تقويم التجارب المعاصرة للحكومات الإسلامية ، ومنها التساؤل أيضا حول نظام الحكم ، وهل هو اختيار الأغلبية أو أنه قضية اتفاق عام بين الجميع أغلبية وأقلية ؟ وهو ما نراه ونعتقد ، خاصة أن المسلمين وإن كانوا أغلبية في أغلب بلادنا فإنهم أقلية في بلاد أخرى ، ومازلنا نتذكر مقالا للأستاذ فهمي هويدي يرى فيه أسلمة الحكم عندما يكون المسلمون أغلبية ، وعلمانية الحكم عندما يكونون أقلية ، ونظن أن هذا المقياس المزدوج لا يصمد للتحليل المنطقي ، لأنه يحوى ضمنا الاعتراف بضممان علمانية الحكم لحقوق الأقليات ، وهو ما لا نظن أن اجتهادات فقهاء الدولة الدينية قد اتفقت حوله ، ومنها التساؤل أيضا عن طبيعة العصر ، وثقافته التي تكفلت وسائل الاتصال الحديثة بنشرها ، وهل تتسق هذه الثقافة وما تحمله من قيم حضارية ، أبرزها حقوق الإنسان والديموقراطية ، مع التصورات التي يقدمها أنصار الحل الديني ، التي لم تحقق حتى الآن في تقديرنا مواءمة حقيقية بين ما يدعون إليه ، وما تدعو إليه هذه القيم ، التي هي في تقديرنا

لا تختلف مع جوهر الاسلام ومقاصده ، نريد أنها تحتاج إلى اجتهاد مستنير ، نظن أن الساحة لم تتسع له بعد ، خاصة أننا لم نسمع بعد ، ما يشفى صدور قوم مؤمنين ، بالدين والوطن معا .

سادسا :

يبدو لنا من خلال ما سبق ، أن الفريق الذى نختلف معه قد شغل نفسه بالشعارات أكثر مما شغل نفسه بالاجتهاد ، وأنه يرهقنا برمى الكرة إلى ملعبنا مغلفة بشعارات عامة ، واتهامات مفرغة ، وسيوف إرهاب فكرى مشرعة ، ولن يغنيه هذا ابدا عن اجتهادات تفصيلية مستتيرة ، وعن اجتماع على كلمة سواء ، وعلى المجتهدين أن يبدأوا بصفوفهم ، ويجمعوا كلمة تياراتهم حول آرائهم ، بدلا من رمى خلافاتهم إلى ساحتنا ، ولعل القارئ يعذرنا إذا اعترفنا بأننا فى حيرة حقيقية ، حيث لا ندرى أى الأطراف أولى بالرد ؟ القلة القليلة التى تخرج علينا بمعسول الكلام ، ومتقدم القول ، أم الكثرة الكاثرة ممن يشرعون السيوف ويرهبون باتهامات التكفير المسبقة ، ويهدرون أمن الوطن والمواطنين ؟ ولعله يعذرنا أكثر إذا أدرك ما ندركه ، وهو أن الطرفين ركبوا السهل ، ولم يرهقوا أنفسهم بالتفصيلات ، وهو ما نحزن له ونفزع ، وندعو الله أن يوفقهم للخروج منه ، حتى نتفق على كلمة سواء .

فصل الخطاب أذن أن يوحد الفريق المناهض لنا صفوفه ، وأن يجمع كلمته على تصور محدد ، وأن يجتهد بما يملكه عليه واجبه نحو دينه ووطنه ، وأن يحدد لنا تفصيلات ما يدعو إليه ، حتى يحاورنا على بينة ، وأن يحدد لنا أيضا تفصيلات ما يختلف حوله فى الدولة المدنية ، حتى نحاوره على بينة ، وأن يدرك فى النهاية حقيقة لا مجال للطعن فيها أو إنكارها ، وهى أن هذا الحوار ذاته ، ثمرة من ثمار الدولة المدنية ..

لهذه الأسباب يتهمون ليبيا

هل صحيح أن الولايات المتحدة تتعقب القوى العربية (القومية)
واحدة إثر واحدة ، وقد بدأت بالعراق . وهاهى ذى تتهم ليبيا ،
وتحاصرها استكمالا لمخطط مسبق مدروس ؟

هل صحيح أنها حرب (صليبية) ضد العالم الاسلامى ؟
هل صحيح أن مجلس الأمن أصبح العوبة فى يد القوى الكبرى وعلى
رأسها الولايات المتحدة ، وأنه ينفذ أوامرها دون مناقشة . ودون أدلة .
ودون أسباب ؟

هل صحيح أن اتهام ليبيا بتفجير الطائرتين ، مجرد (فبركة) أجهزة
إعلام وأجهزة استخبارات ، وأنه لا يوجد دليل حقيقى على هذا الاتهام ؟
هل صحيح أن رأى العام العربى شريك فى المؤامرة بالصمت والتأييد
المشبه ، انسياقا وراء رأى قياداته ، وأجهزة إعلامه دون دليل مستند
إليه ؟

وكيف ياترى تشكل هذا الرأى العام بحيث أصبح كله ضد ليبيا . ومع
اتخاذ أعنف الاجراءات ضدها ، وهو أمر لم يحدث فى حرب الخليج ، حيث
كان لصدام حسين أنصار وللحرب أعداء ، وللحصار معارضون حتى لحظة
بدء الحرب ؟

جميع هذه الأسئلة مشروعة ، ونقطة البدء هى الإجابة عنها أن نضع
القارئ العربى أمام مذكرات الاتهام التفصيلية ، كما قدمت للرأى العام

العربي والعالمي ، وبعد ذلك سوف تكون اجابة القارئ عن الأسئلة واضحة وكاملة وموضوعية ..

لابد أن يتعرف القارئ المصرى والعربى على تفاصيل ثلاث وثائق الأولى هى نص قرارات هيئة المحلفين الفيدرالية العليا بالولايات المتحدة الأمريكية والثانية هى تفاصيل المؤتمر الصحفى الذى عقده النائب العام الأمريكى (بار) والثالثة هى مذكرة الأسئلة والاجابات التى وجهت لريتشارد بوتشر المتحدث باسم الخارجية الأمريكية حول اتهامات لوكيربى يوم ١٤ نوفمبر ١٩٩١ . ولحسن الحظ فقد صدر أخيرا كتاب اسمه (تفجير الطائرة الأمريكية) للكاتب مدحت فؤاد ، أصدره المكتب العربى للمعارف .وهو يشمل تفاصيل هذه الوثائق الثلاث ..

فلنعتذر أولا للقارئ لأن دورنا هنا سوف يقتصر على النقل الدقيق الأمين لهذه الوثائق الواردة فى الكتاب . وسوف يكتشف القارئ معنا أن هذا هو أقصر الطرق للاجابة عن الأسئلة السابقة ، وعن غيرها من الأسئلة التى كانت ، وماتزال حائرة ، ولعله يتساءل عن علة تقصير أجهزة الاعلام العربية هى نقل هذه الوثائق إلى رأى العام العربى ، ولو من باب العلم بالشئ ..

ترجمة اتهام هيئة المحلفين الفيدرالية العليا

إليكم نص الاتهام الذى سلمته إلينا هيئة المحلفين الفيدرالية الأمريكية العليا فى ١٤ نوفمبر حول تورط اثنين من عملاء المخابرات الليبية فى تفجير طائرة بأن امريكان رحلة رقم ١٠٣ فوق لوكربى باسكتدلندا (فى ديسمبر ١٩٨٨) .

محكمة الولايات المتحدة
الجزئية التابعة لمقاطعة كولومبيا
الاسم الحقيقي والأسماء المستعارة
أحمد خليفة عبد الصمد / الأمين خليفة فهمة / الأمين فهمة /
السيد / الأمين .

الالتهام :

* خرق القوانين رقم (مكررة) .
* تدمير طائرة مدنية وتدمير مركبة تستخدم في التجارة الخارجية ،
باستخدام وسائل تفجير بغرض قتل رعايا الولايات المتحدة الأمريكية
بالمساعدة والتحريض .

الالتهام

توجه هيئة المحلفين العليا الاتهامات التالية :

أولا : مقدمة :

نصوص هذه التهمة سارية المفعول في كل الأوقات ما لم ينص على
غير ذلك :

- ١ - تقع الجماهيرية الليبية العربية الاشتراكية العظمى (التي يشار إليها هنا بلفظ ليبيا) على ساحل البحر المتوسط لشمال أفريقيا .
- ٢ - منظمة الجوهرة الأمنية والتي يشار إليها هنا بالاختصار (جى اس أو) هي وكالة المخابرات الليبية .
- ٣ - تنقسم (جى اس أو) إلى إدارات وأقسام مختلفة بما فيها الإدارة التقنية (أو الفنية) .

٤ - تضم مسئوليات الادارة الفنية مساعدة الإدارات الأخرى داخل (جى أس أو) فى تطوير المعدات التكنولوجية وتمد علميات (جى أس أو) داخل وخارج ليبيا بالمساعدة التكنولوجية اللازمة .

٥ - منذ ١٩٨٤ - ١٩٨٥ شغل سيد رشيد كيشة (يشار اليه باسم سيد رشيد) منصب مساعد مدير الادارة ، وقد طلب من شركة سويسرية . مستر ايه بولير أن تقوم بتطوير عدادات زمنية لليبيين .

٦ - منذ تاريخ ١٩٨٥ إلى حوالى الأول من يناير ١٩٨٧ شغل سيد رشيد منصب مدير إدارة العمليات فى منظمة (جى أس أو) .

٧ - انقسمت إدارة العمليات إلى عدة أقسام تضم قسم أمن الخطوط الجوية .

٨ - كان قسم أمن الخطوط الجوية مسئولاً عن المهام التالية .
(أ) تقديم وتوفير الأمن المادى بشركة الخطوط الجوية الليبية العربية (التى سنشير إليها بالاختصار أأ) بما فيها أمن الطائرات والركاب فى الرحلات الداخلية والخارجية .

(ب) الاشراف على تغطية مواقع عمل ضباط عمليات المخابرات التابعة لـ جى أس أو كموظفين فى شركة الخطوط الجوية الليبية فى دول مختلفة ومنها جمهورية مالطا .

٩ - خلال الوقت الذى شغل فيه سيد رشيد منصب مدير إدارة العمليات كان عبد الباسط على المجراحي رئيس قسم أمن الخطوط الجوية .

١٠ - شغل عز الدين الهنشارى (الذى سنشير اليه باسم الهنشارى) عدة مناصب يشار إليها فى هذا النص ، وهى : وزير النقل الليبى . وزير العدل ، الأمين العام للجنة العدل الشعبية فى ليبيا ، مدير ومساعد مدير ادارة الأمن المركزى فى منظمة جى أس أو .

- ١١ - منذ بداية ١٩٨٥ حتى ١٩٨٦ تلقى المنشارى أو استقبال عدد عشرين عدادا زمنيا ميقاتيا لصالح جى اس أو وكانت هذه العدادات من موديل ام . اس . قى - ١٣ ولها القدرة على بدء تشغيل جهاز تفجير وقامت بتصنيع هذه الأجهزة شركة ميسترايه بولير السويسرية .
- ١٢ - وشركة « ميستر ايه بولير » المحدودة لأجهزة الاتصالات تقع فى زيورخ بسويسرا ولها علاقات عمل قوية مع عناصر العسكرية الليبية وجى اس أو كشركة مصنعة وموردة للمعدات التكنولوجية .
- ١٣ - قامت شركة (ايه . بى . اتش) بتأجير مكتب فى زيورخ من الباطن من شركة « ميستر ايه بولير » .
- ١٤ - اشترك بدرى حسن - وهو أحد المواطنين الليبيين - مع عبد الباسط فى نشاطات شركة (ايه بى اتش) فى زيورخ .
- ١٥ - قامت منظمة الجوهرة فى أوقات مختلفة من عام ١٩٨٨ بإصدار نوع من العبوات الناسفة يحتوى على المادة (أر . دى . اكس) ، (بى . اى . قى . ان) وكبسولة انفجار كهربائية وقتيل تفجير وعداد ميقاتى من نوع ام اس قى - ١٣ له المقدرة على بدء الانفجار فى وقت تال محدد سلفا وقد أمدت (جى اس أو) عددا من عملائها بهذه العبوات الناسفة للقيام بعمليات إرهابية خارج ليبيا ومنها جمهورية السنغال .
- ١٦ - كانت الخطوط الجوية الليبية العربية هى الخطوط الجوية الوطنية للليبيا ، وقامت جى اس أو باستخدامها لتسهيل أعمالها الإرهابية .
- ١٧ - كانت خطوط طيران مالطا - وهى الخطوط الوطنية لجمهورية مالطا - هى وكيل المعاملات لخطوط الطيران الليبية من وإلى مطار لوكا بمالطا ، وعلى ذلك تقوم خطوط الطيران الليبية باستخدام بطاقات الأمتعة المميزة لشركة طيران مالطا .

١٨ - كان أحد ممثلى خطوط الطيران الليبية يقوم بمساعدة موظفى طيران مالطا فى ترتيب أوضاع المسافرين والأمتعة على متن طائرات الخطوط الليبية .

١٩ - تم استخدام المتهم الأمين فهيمه - وهو أحد رعايا ليبيا .. فى عدة مناصب للتغطية لصالح عمليات (جى اس أو) ومنها مدير محطة الخطوط الليبية وممثلها فى مطار لوكا بمالطا .

٢٠ - كان من حق المتهم الأمين خليفة استخدام البطاقات المميزة لشركة طيران مالطا ، والحق فى تنظيم الركاب بالأمتعة على طائرات الخطوط الجوية .

٢١ - قامت منظمة جى اس أو باستخدام المتهم عبد الباسط المجراحي - وهو ليبي - فى عدة مناصب منها رئيس قسم أمن الخطوط الجوية وقسم العمليات ، وعلى ذلك كان ملما بإجراءات أمن الخطوط الجوية .

٢٢ - فى يوم ٢١ ديسمبر عام ١٩٨٨ بين الساعة ٨٥٠ و ٩٥٠ (بتوقيت أوروبا المركزى) كانت طائرة الخطوط الجوية الليبية رحلة رقم (ال . ١٤٧) المتوجهة إلى طرابلس - والتي كان على متنها المتهم عبد الباسط - فى أرض مطار لوكا بمالطا ، بينما كانت طائرة خطوط طيران مالطا رحلة رقم كى ام « ١٨٠ » المتوجهة إلى فرانكفورت بألمانيا موجودة أيضا فى أرض المطار بين الساعة ٨١٥ و ٩١٥ (بتوقيت أوروبا المركزى) .

٢٣ - فى ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ وصلت شركة طيران مالطا كى ام « ١٨٠ » إلى مطار فرانكفورت بألمانيا فى حوالى الساعة ١٢٥٠ (بتوقيت أوروبا المركزى) تقريبا قادمة من مطار لوكا .

٢٤ - فى ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ حوالى الساعة ١٦٠٠ اقلعت طائرة بان

امريكان رحلة ١٠٣ ألفا من مطار فرانكفورت بعد أن قامت بخدمة توصيلية إلى مطار هيثرو بلندن وطائرة بان امريكان ١٠٣ وذلك بنقل أمتعة من طائرة خطوط مالطا رقم كى ام « ١٨٠ » .

٢٥ - في ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ بين الساعة ١٧٤٠ و ١٨٠٧ تم نقل الأمتعة القادمة من فرانكفورت من على متن الطائرة بان امريكان ١٠٣ ألفا إلى الطائرة بان امريكان ١٠٣ وتحمل رقم (ان ٧٣١ بي ايه) وجرى النقل في مطار هيثرو بلندن .

٢٦ - كانت شركة خطوط بان امريكان ورلد اير وايز مملوكة لاحدى المؤسسات العاملة في ظل قوانين الولايات المتحدة الامريكية ومسجلة في القسم رقم ٢٠ بند ٤٩ من كود الولايات المتحدة . وبموجب هذا التسجيل تقوم الشركة بإرسال طائرات للقيام برحلات تجارية بين الولايات المتحدة ودول أخرى ، وتم توثيق الطائرات العاملة على شركة خطوط بان امريكان تحت قوانين مقاطعة نيويورك .

٢٧ - كانت طائرة شركة بان امريكان التى تحمل رقم (ان ٧٣٩ بي ايه) طائرة مدنية تابعة للولايات المتحدة ومسجلة لدى إدارة الطيران الفيدرالية تحت بند ٤٩ (يو اس سى) قسم ١٤٠١ وتعمل في نطاق سلطة الولايات المتحدة الأمريكية القضائية الخاصة بتشغيل الطائرات الخاصة .

٢٨ - في ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ كانت طائرة بان امريكان رقم ١٠٣ في رحلة طيران تجارية خارجية بين مطار هيثرو بلندن في المملكة المتحدة ومطار جون كيندى في الولايات المتحدة الأمريكية.

٢٩ - في يوم ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ قامت طائرة بان امريكان ١٠٣ بحمل ٢٥٩ شخصا (٢٤٣ راكبا و ١٦ طاقم الطائرة) وهم رعايا الدول التالية : الولايات المتحدة ، المملكة المتحدة وايرلندا الشمالية ،

سويسرا ، فرنسا ، كندا اسرائيل ، الارجنتين ، السويد ، ايرلندا ،
ايطاليا ، المجر ، جنوب أفريقيا ، المانيا ، اسبانيا ، جاميكا ، الفلبين ،
الهند ، بلجيكا ، ترينيداد ، اليابان ، بوليفيا .

٣٠ - في ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ حوالى الساعة ٧,٠٣ مساء بتوقيت
جرينتش انشطرت طائرة بان امريكان ١٠٣ فوق الاراضى الاسكتلندية
وهى على ارتفاع ٣١ ألف قدم نتيجة لاشتعال عبوة ناسفة فى حاوية
الشحن الأمامية للطائرة .

٣١ - نتيجة للانفجار تحطمت طائرة بان امريكان ١٠٣ وسقطت على
الأرض ولقى جميع الركاب الـ ٢٥٩ مصرعهم إلى جانب ١١ شخصا
كانوا يقيمون فى مدينة لوكرى الاسكتلندية .

المؤامرة

٣٢ - بداية من صيف ١٩٨٥ حتى يوم صدور هذا الاتهام ، قام
المتهمان عبد الباسط والأمين فهيمه إلى جانب آخرين غير معروفى الهوية
لدى هيئة المحلفين العليا ، قاما بإرادتها وبشكل غير قانونى وهما على
معرفة تامة ودراية ، بالتآمر على القيام بأعمال إرهابية ضد الولايات
المتحدة الأمريكية ورعاياها ، وذلك داخل حدود كل من البلاد التالية :
ليبيا وسويسرا ومالطا وألمانيا والمملكة المتحدة وأماكن أخرى خارج
الولايات المتحدة .

٣٣ - لقد كان جزءا من المؤامرة أن يقوم المتهمان والمتآمرون معها
بوضع عبوة ناسفة عن عمد على متن طائرة بان امريكان ١٠٣ وهى طائرة
تعمل فى نطاق سلطة الولايات المتحدة القضائية وهى طائرة مدنية تستخدم
وتعمل عبر البحار فى الرحلات التجارية الخارجية طبقا للقانون ١٨ من
دستور الولايات المتحدة قسم ٣٢ (أ) (٢) و ٢ .

- ٣٤ - وكان جزءا آخر من المؤامرة أن يقوم المتهمان والمتآمرون معها بإحداث عطل وتدمير طائرة بان امريكان بواسطة تفجير عبوت ناسفة .
- ٣٥ - وقد تعدد المتهمان أن يقوموا بتدمير الطائرة بان امريكان باستخدام عبوة ناسفة ومركبة تستخدم في التجارة الخارجية ، وهو عمل يؤثر على التجارة الخارجية ويعد خرقا للقانون ١٨ من دستور الولايات المتحدة قسم ٨٤٤ (أ) و ٢ .
- ٣٦ - تعدد المتهمان والمتآمرون معها أن يقتلوا رعايا الولايات المتحدة أينما يوجدون خارج البلاد ويعتبر هذا القتل عمدا طبقا للقسم ١١١١ (أ) من المادة ١٨ من دستور الولايات المتحدة وخرقا للقانون ١٨ من دستور الولايات المتحدة أقسام ٢٣٣١ (أ) و ٢ .
- ٣٧ - تعدد المتهمان إخفاء تورط منظمة الجوهرة الأمنية الليبية في أعمال إرهابية ضد الولايات المتحدة ورعاياها .

الطرق والوسائل التي استخدمها المتآمرون لتعزيز أهداف المؤامرة

٣٨ - من الطرق والوسائل التي استخدمها المتآمرون لتعزيز أهداف مؤامرتهم مايلي :

(أ) استخدم المتهمان - بوصفها ضابطين وعميلين لـ (جى اس أو) - المصادر والتسهيلات المتاحة لدولة ليبيا ، بما فيها جى اس أو لتنفيذ مخططاتها لتدمير طائرة بان امريكان باستخدام عبوة ناسفة ولقتل الركاب على متنها .

(ب) قام المتهمان بتركيب عبوة ناسفة معدلة مكونة من متفجرات بلاستيكية تحتوى على مادي (أر دى اكس ، بي . أى . قى . ان) وميقات زمني من نوع ام - اس قى - ١٣ قادر على بدء التفجير في وقت محدد سلفا وتم تصنيعه في شركة ميستر ايه بولير السويسرية خصيصا

لـ (جى اس أو) خلال الفترة من ١٩٨٥ إلى ١٩٨٦ بناء على طلب رشيد والهشارى .

(جـ) قام المتهمان والمتآمرون معها بوضع جهاز راديو توشيبا داخل حقيبة سامسونايت ٤٠٠٠ بنية اللون .

(د) تعمد المتهمان والمتآمرون وضع الحقيبة فى غلاف من قماش يباع فى مالطا ليضفوا عليها مظهر حقيبة السفر العادية .

(هـ) تعمد المتهمان وضع الحقيبة وما تحويه من العبوات الناسفة ضمن أمتعة الركاب فى مطار لوكا بجمهورية مالطا .

(و) استخدم المتهمان هويات مزيفة متباينة للدخول إلى مالطا ودول أخرى تم تنفيذ المؤامرة داخلها .

(ز) استغل المتهمان معلوماتها وحققها كموظفين فى شركة الخطوط الليبية لمراوغة الجمارك المالطية وسلطات أمن مطار لوكا وأماكن أخرى ، وقاما باستغلال العلامات المميزة لخطوط طيران مالطا لتمرير الحقيبة التى تحمل العبوة الناسفة .

(ح) تعمد المتهمان والمتآمرون معها وضع الحقيبة التى تحتوى العبوة الناسفة داخل مقصورة طائرة خطوط طيران مالطا رقم كى ام - ١٨٠ فى مطار لوكا بمالطا وتعمدوا نقل نفس الحقيبة من الطائرة المالطية إلى طائرة بان امريكان ١٠٣ ألفا من مطار فرانكفورت بألمانيا ثم تنتقل ثانية إلى طائرة بان امريكان ١٠٣ فى مطار هيثرو بلندن المملكة المتحدة ، كما تعمدوا إحداث التفجير فى العبوة الناسفة اثناء رحلة طيران طائرة بان امريكان ١٠٣ إلى الولايات المتحدة مما أدى إلى تدميرها وقتل ٢٧٠ شخصا على متنها وعلى الأرض حين سقوطها .

أعمال علنية

٣٩ - من أجل تدعيم المؤامرة وصولاً لتحقيق أهدافها تم ارتكاب الأعمال والأفعال العلنية التالية في ليبيا وسويسرا ومالطا والمانيا والمملكة المتحدة وأماكن أخرى :

١ - في حوالى بداية صيف ١٩٨٨ قام الأمين فهيمة بتخزين كميات من المتفجرات في مكتبه بمحطة خطوط الطيران الليبية العربية بمطار لوكا بمالطا .

٢ - في حوالى نهاية عام ١٩٨٨ طار عبد الباسط من طرابلس بليبيا إلى مطار لوكا بمالطا على الخطوط الجوية الليبية .

٣ - في حوالى ٧ ديسمبر ١٩٨٨ سافر عبد الباسط من ليبيا إلى مالطا .

٤ - في حوالى ٧ ديسمبر ١٩٨٨ تم تسجيل اسم عبد الباسط في فندق هوليداي ان في سليمة بمالطا مستخدماً اسم عبد الباسط أ - محمد وصفته مسئول طيران للخطوط الجوية الليبية .

٥ - في حوالى ٧ ديسمبر ١٩٨٨ في مدينة سليمة بمالطا قام عبد الباسط بشراء نوع من النسيج من محل مارى هاوس الذى يقع على بعد ٣٠٠ ياردة من الفندق الذى يقيم فيه .

٦ - في حوالى ٩ ديسمبر ١٩٨٨ سافر عبد الباسط من مالطا إلى زيورخ بسويسرا

٧ - في حوالى ١٥ ديسمبر ١٩٨٨ سجل الأمين فهيمة في دفتر مذكراته العبارات التالية « عبد الباسط آت من زيورخ مع سلافو » و « أخذ علامات مميزة للحقائب من طيران مالطا » .

٨ - في حوالي يوم ١٥ ديسمبر ١٩٨٨ أضاف الأمين فهيمة إلى مذكراته « أحضر العلامات المميزة من المطار عبد الباسط عبد السلام » .

٩ - في حوالي ١٥ ديسمبر ١٩٨٨ أضاف الأمين فهيمة إلى يومياته كلمة (أو - كى) اضافة إلى عبد الباسط قام من زيورخ ..

١٠ - في ١٧ ديسمبر سافر عبد الباسط من زيورخ بسويسرا إلى لوكا بالطا ثم إلى طرابلس .

١١ - في ١٨ ديسمبر ٨٨ سافر الأمين فهيمة من مالطا إلى ليبيا للاجتماع مع عبد الباسط .

١٢ - في ٢٠ ديسمبر سافر عبد الباسط من ليبيا إلى مطار لوكا باستخدام هوية مزيفة باسم أحمد خليفة عبد الصمد .

١٣ - في ٢٠ ديسمبر سافر الأمين فهيمة من طرابلس إلى مطار لوكا على نفس الطائرة تحت اسم عبد الباسط .

١٤ - في ٢٠ ديسمبر أحضر المتهمان والمتآمرون معها حقيبة سامسونات كبيرة بنية اللون إلى مالطا .

١٥ - في ٢٠ ديسمبر عقد عبد الباسط اجتماعا مع الأمين فهيمة في مالطا .

١٦ - في ٢٠ ديسمبر سجل عبد الباسط اسمه في فندق هوليداي ان بمدينة سليمة بالطا تحت اسم مزيف وهو أحمد خليفة عبد الصمد .

١٧ - في ٢١ ديسمبر حوالي الساعة ٧,١١ (بتوقيت أوروبا المركزى اقام عبد الباسط بمخبرة الأمين فهيمة تليفونيا من فندق هوليداي ان .

١٨ - في ٢١ ديسمبر غادر عبد الباسط مطار لوكا تحت اسم مستعار على طائرة تابعة للخطوط الجوية الليبية رحلة رقم ال ان (١٤٧) إلى طرابلس .

١٩ - في ٢١ ديسمبر بين الساعة ٨١٥ و ٩١٥ بتوقيت أوروبا المركزي قام المتهمان والمتآمرون معها غير المعروفين لهيئة المحلفين بوضع الحقيبة البنية السامسوننايت التي تحتوى العبوة الناسفة ضمن الأمتعة التي دخلت طائرة الخطوط المالطية رقم كى ام ١٨٠ المتوجهة إلى فرانكفورت .

٢٠ - في ٢١ ديسمبر قام المتهمان بتدمير طائرة رقم ان ٧٢٩ بي ايه كما سيأتى تفصيلا في الجزء الثالث .

٢١ - في ٢١ ديسمبر قام المتهمان بتدمير طائرة بان امريكان باستخدام وسائل اشتعال ومتفجرات ونتيجة لذلك لقي ٢٧٠ شخصا مصرعهم .

٢٢ - في ٢١ ديسمبر قام المتهمان بتدمير طائرة بان امريكان وأدى ذلك إلى مصرع ١٨٩ شخصا من رعايا الولايات المتحدة كما هو آت طبقا للعدد خمسة حتى ١٩٢ (وبعد ذلك خرقا للقانون ١٨ من دستور الولايات المتحدة فقرة ٣٧١) .

الفقرة الاتهامية الثانية

١ - تكرر هيئة المحلفين العليا ادعاءها بالإشارة إلى الفقرة من واحد إلى ٢١ من الفقرة الاتهامية الأولى من نص الاتهام .

٢ - في ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ في مطار هيثرو بلندن / المملكة المتحدة / وفي أماكن أخرى قام المتهمان عبد الباسط والأمين خليفة بالاشتراك مع متآمرين آخرين غير معلومين لدى هيئة المحلفين العليا - بإرادتهم وبشكل غير قانونى - بوضع عبوة تدميرية على متن الطائرة رقم (ان ٣٩ بي ايه) وهي طائرة مدنية امريكية تستخدم وتعمل عبر البحار في الطيران الخارجى التجارى من قبل شركة بان امريكان ورنڊ ايروايز

رحلة رقم ١٠٣ في رحلتها إلى الولايات المتحدة من مطار هيثرو وتسببوا في موت ٢٧٠ شخصا من ١٨ جنسية .

الفقرة الاتهامية الثالثة

- ١ - هيئة المحلفين العليا تكرر ادعاءها بالإشارة إلى الفقرات من ١ إلى ٢١ من الفقرة الاتهامية الأولى .
- ٢ - في يوم ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ وعلى ارتفاع ٢١ ألف قدم فوق مدينة لوكرى باسكتلندا قام المتهمان عبد الباسط والأمين فهيمة بإرادتهما وبشكل غير قانوني بتدمير الطائرة المذكورة وسببت في مصرع ٢٧٠ شخصا كما هو محدد في الفقرة الاتهامية الثانية .

الفقرة الاتهامية الرابعة

- ١ - هيئة المحلفين العليا إلخ
- ٢ - في يوم ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ وعلى ارتفاع إلخ
- ٣ - في يوم ٢١ ديسمبر وكنتيجة مباشرة لتدمير الطائرة بان امريكان فوق لوكرى والمنطقة المحيطة تسبب المتهمان عبد الباسط والأمين فهيمة في قتل ٢٧٠ شخصا عن عمد ، وهؤلاء الاشخاص تم تعريفهم في الفقرة الاتهامية الثانية .

الفقرة الاتهامية من الخامسة

- ١ - هيئة المحلفين العليا إلخ .
- ٢ - الضحايا الذين تم تعريفهم من الفقرات الخامسة وحتى ١٩٢ كانوا رعايا للولايات المتحدة كما هو معروف بالفقرة ٨ من دستور الولايات المتحدة جزء ١١٠١ (أ) (٢٢)
- ٣ - في ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ خارج الولايات المتحدة في مدينة لوكرى

باسكتلندا وداخل وإلى جوار المملكة المتحدة وأماكن أخرى قام المتهمان عبد الباسط والأمين خليفة بمحض ارادتهما وعن عمد وبسبق الاصرار والترصد بقتل ١٨٩ شخصا من رعايا الولايات المتحدة الامريكية الذين كانوا ركاب وطاقم الطائرة المعرفين في القائمة المذكورة في الفقرة الاتهامية الثانية .

ماذا حدث للعقل المصرى؟

حزب مصر الفتاة ، وهو حزب (سياسى) شرعى ، يقوم برنامجه على مشروع لشق نهر عظيم مواز لنهر النيل ، يبدأ من بحيرة ناصر ، وينتهى إلى ما شاء الله ، ويكون واديا جديدا لنيل جديد يستوعب الزيادة السكانية ، ويملا البطون ، ويزرع ملايين الأفدنة ..

وكيل مؤسسى حزب الشعب ، وهو الأستاذ أنور عفيفى ، صرح لإحدى الصحف اليومية ، بأن لديه (لدى الأستاذ أنور عفيفى) مشروعا لاستصلاح وزراعة أربعين مليوناً من الأفدنة ، أى أن سيادته شخصيا سيضيف إلى المساحة المزروعة أكثر من سبعة أمثالها ..

من يصدق أن مستوى الفكر السياسى وصل إلى هذا الحد ؟
لو كان فيما يقوله هؤلاء ذرة من الحقيقة أو الإمكانية أو الواقعية لطالبت بإعدام وزراء الزراعة والرى فى مصر على مدى نصف القرن الأخير رميا بالرصاص ، لأنهم لم ينفذوا هذه الأحلام الجميلة ، الوردية ، الزائفة ..

المشكلة أن مجال تخصصى الدقيق فى رسالتى الماجستير والدكتوراه ، كان فى هذا الموضوع بالتحديد ، وهو موضوع اقتصاديات الرى فى مصر ..

الحقائق تقول إن لمصر حصة من مياه النيل ، وهى حصة محددة بمقدار ٤٨ مليار متر مكعب من المياه ، يضاف إليها نصيب مصر من مياه السد العالى وهو سبعة مليارات ، فيصبح المجموع ٥٥ مليارا ، يذهب منها

لاحتياجات الشرب والملاحة وتوليد الكهرباء ، ثلاثة مليارات ، ويتبقى حوالى ثمانية آلاف متر مكعب تقريبا للفدان الواحد ، الذى يزرع مرتين أو ثلاثا خلال العام . والحقائق تقول أيضا إن مصر تتغلب على عجز المياه بإعادة استخدام مياه الصرف ، وإنها أغلقت فرع دمياط بحيث لم يعد يصب فى البحر المتوسط ، وتحكمت فى مصب إدفينا بواسطة القناطر ، وسحبت من المياه الجوفية حتى الحد المسموح به إلى درجة انخفاض بعض مناسيب الآبار ، وإنها تتوسع فى الأراضى الجديدة فى استخدام أساليب الري الحديثة ، التى يصعب أو يستحيل استخدامها فى الأراضى القديمة ومع المحاصيل التقليدية لأسباب فنية ، وإن فى مصر أكبر وأعظم وأعقد شبكة رى سطحى فى العالم ، وليس فى هذا القول أى مبالغة ، وإنه لا أمل فى متر مكعب واحد جديد من المياه ، ولا إمكانية لتوسيع كبير فى الاستصلاح إلا باستكمال قناة جونجلي (٩ مليارات لكل من مصر والسودان) . وإن حصة مصر الحالية من المياه مهددة بسدود جديدة تسعى بعض دول حوض النيل لإنشائها : فى اثيوبيا وفى السودان . وفى غيرها ، وإن غير المتفائلين أمثالى يتوقعون أن يصل النزاع حول مياه النيل إلى مستوى الصراع المسلح لأسباب يطول شرحها ..

أى نهر جديد هذا الذى يتحدث عنه رئيس حزب مصر الفتاة ؟ وكيف إن شاء الله سوف يستصلح أربعين مليون فدان جديدة ؟ وكيف يصل التحدى للقضايا القومية إلى هذا المستوى على يد رؤساء الأحزاب ؟ وكيف أصبح المثل الشعبى المعروف هو الفلسفة العميقة لقيادات العمل السياسى فى مصر ؟ .

المثل الشعبى يقول (زغردى يا الى مش غرمانه) ..

(٢) .

فى العالم كله تصدر القوانين للأحوال العادية ، أما الحالات الشاذة فلا يوجد تشريع بشأنها ، لسبب بسيط هو أنها (شاذة) ..
أقصى ما يفعله المشرع هو أن يضع حدا أدنى وحدا أقصى للعقوبة ،
ويترك الحرية للقاضى فى الحكم على أساس الوقائع ، وفى حدود العقوبة
المقررة قانونا ..

نزيد الأمر توضيحا فنقول إن جريمة النشل مثلا ينظر إليها المشرع
على أنها جريمة سرقة ، قد يكون المبلغ المسروق فيها صغيرا أو كبيرا ،
وقد تقترن بالعنف ، أو لا تقترن به ، إلى آخر هذه الملابس التى تدعو
إلى تخفيف أو تشديد العقوبة فى حدود معينة ومعروفة ..

الملابس التى ذكرناها تدخل فى إطار الأمور المتوقعة أو المعتادة وقد
تحدث حالات شاذة ، لم يضعها المشرع فى اعتباره ، ولأنها (شاذة) فإن
من المنطقى ألا يضعها المشرع فى اعتباره أبدا ، لأنه ليس معقولا أن
يفترض المشرع مثلا أن المجنى عليها أرملة ، لا تملك من الدنيا كلها سوى
مكافأة نهاية خدمة زوجها الذى توفى حديثا ، وأنها سحبت هذه الأموال
لكى تدفعها لإجراء عملية عاجلة فى القلب لابنتها الوحيدة الجميلة
الراقية ، وأن اللص سوف يسرق هذا المبلغ بأكمله ، فتكون النتيجة وفاة
الابنة بالقلب ، ثم وفاة الارملة حزنا وكمدا ..

الحالة الشاذة السابقة تدفع المشرع بالتأكيد إلى الحكم بإعدام النشال ،
وهى حالة قد تحدث فى الواقع ، لكنها ليست نموذجا لما يمكن أن يحدث ،
ولا يجوز القياس عليها أبدا ، وهذا ما يحدث فى العالم كله ، وما كان يحدث
فى مصر ، حتى السنوات الأخيرة ..
الآن تغيرت الصورة تماما ..

التشريعات في مصر أصبحت توضع للحالات الشاذة ، وليس للحالات العادية ..

التشريع لجريمة هتك العرض يتم قياسا على حادثة العتبة ، وتفصيلا على (مقاسها) ..

التشريع لجريمة الاغتصاب يتم قياسا على حادثة المعادى ، وتفصيلا على (مقاسها) ..

ونحن في انتظار حادث شاذ جديد ، بعد شهور أو سنوات ، حتى تتم صياغة تشريع جديد ، دون أن يتنبه أحد إلى أن التشريع الذى يوضع لمواجهة حادث شاذ ، لابد فى النهاية أن يكون تشريعا ... ولاداعى لاستكمال العبارة ، مع كل الاحترام للقانون والهيئات التشريعية ..

(٣)

انتهز أعداء المرأة ، وأعداء الحرية الشخصية حادثتى العتبة وامبابة ، للهجوم على المرأة وليس على الجناة ، فالسبب فى تقديرهم هو خلاعة النسوة ، وإغراء الأزياء الفاضحة ، واستهتار المرأة وعبثها المتمثل فى إبراز جمالها من خلال أدوات التجميل الحديثة ، التى تثير لواعج الشبان وتهز مشاعرهم ، وتدفعهم إلى المحظور ..

الذين يكتبون هذا ، وهم كثر ، لم يتنبهوا لحقيقتين : الأولى أن فتاة العتبة كانت محتشمة ، وبسيطة المظهر ، وتنتمى لطبقة فقيرة لا تتيح لها رفاهية (التجميل المثير) كما ورد فى أدبيات هؤلاء الكتاب ، وأن امرأة إمبابة ، سيدة تجاوزت الأربعين من العمر ، لا يوجد فى مظهرها ما يلفت أو يثير ، وكانت للمصادفة البحتة ، تلبس ثلاثة فساتين فوق بعضها ..

الخلاعة هنا ، والفتنة ، والإثارة ، أمور ليست واردة في قواميس هاتين الجريمتين ..

الحقيقة الثانية ، أننا عاصرنا جميعا في السبعينات ، موضة الميكروجيب . ولم نسمع في هذه الفترة إطلاقا عن جريمة اغتصاب بشعة ، بينما انتشرت هذه الجرائم مع انتشار الحجاب ، وهذه حقيقة واضحة ، لا يختلف عليها اثنان ، ولا تنتطح فيها عنترتان ..
الغريب حقا أن أحدا لم يتوقف أمام هذه الحقائق ، والأغرب ، وهذا ما أكدده ، أن أحدا لن يتوقف أمامها ..

(٤)

منذ شهور كتبت في هذا المكان مقالا عنوانه (لا تظلموا بطرس غالى) . تنبأت فيه بما يحدث الآن ..
كتبت وأكتب اليوم وسأكتب غدا ، وسيتحول ما أكتبه إلى (كلام في الهوا) ..

نقول إن بطرس غالى لا يرسم سياسة بل بنفذ سياسة ، ولا يحكم بل ينفذ قرارات ، ولا يستطيع أن يخرج عن حدود الصلاحيات المرسومة له .
فيقولون (خاب ظننا فيك يا بطرس) ..

نقول إنه لم يعد مصريا ولا عربيا ، بل أصبح أميا وعالميا ، ولا بد له أن يتخلى عن عواطفه وانتمائه ، وإننا يجب أن نساعد على ذلك ، أو على الأقل نفهم ذلك ، فيقولون (أخطأنا حين رحبنا بك يوم فزت بالمنصب ، ونحن نعلن اليوم اعتذارنا عن ذلك) ..

الحكاية يا سادة أننا نفهم ما نحب أن نفهمه ، بصرف النظر عن موقعه من الحقيقة أو الواقع أو طبيعة الأشياء ..
البعض فهم أن الأمم المتحدة (ستكلم عربى) ..

والبعض فهم أننا بهذا حكمنا العالم...
والبعض فهم أننا أصبحت لنا (عزوة) في مجلس الأمن ..
والبعض تصور أن أول قرار سيأخذه بطرس غالى هو ضرب إسرائيل
بالصرمة القديمة أو اتخاذ قرار يرفع العقوبات عن العراق ، أو إصدار أمر
بتنفيذ قرار التقسيم الصادر في الأربعينات ..
الذين فهموا هذا أو تصوره ، كانوا من كتاب الأعمدة واليوميات
والمقالات الثابتة ، للأسف الشديد ..
كانوا يكتبون وكنت أسأل نفسى ..
هل يعرفون الحقائق ويخدعون الناس ، أو أنهم صادقون وهذا هو
فهمهم للأمور؟
الأولى مصيبة ، والثانية كارثة ..
الطريف حقا أنني كنت حسن الظن بهؤلاء الكتاب ، حين تصورت
أنهم يعرفون الحقائق ، ويزايدون على الناس ..
اتضح الحقيقة المحزنة والمخجلة أمامى وأنا أتابع التعقيبات الساخنة
التي تناولت تصريحات بطرس غالى الأخيرة ..
قال بطرس غالى : إن القرارات المطبقة على العراق وعلى ليبيا تخضع
لنصوص الفصل السابع من ميثاق حقوق الإنسان ، ومعنى هذا أنها
قرارات ذات قوة تنفيذية ..
فى المقابل فإن قرارات مجلس الأمن الخاصة بالنزاع العربى الإسرائيلى
لا تخضع لنصوص هذا الفصل ، ومعنى هذا أنها غير ملزمة بالتنفيذ ، وأن
السبيل الوحيد لتنفيذها هو التفاوض بين الأطراف المتنازعة ..
ما قاله الرجل هو الحقيقة لا أكثر ولا أقل ..
وإذا كانت هذه الحقيقة لا تعجبنا ، وهى فعلا لا تعجبنا ، فالسبيل إلى
تعديل ذلك واضح ..

السييل هو إصدار قرار جديد من مجلس الأمن يستند في ديباجته إلى ما ورد في الفصل السابع ..
قرار جديد تنفيذى ملزم ، آليات التنفيذ فيه واضحة .. وإلى أن يحدث هذا ، علينا أن نتحمل ما يكتبه العباقرة ، وعلى بطرس غالى أن يدفع ثمن مفاهيم بعض الكتاب من دول العالم الثالث ..

(٥)

في جريدة الأهرام طالعنا عنوان يقول (اللجنة التشريعية في مجلس الشعب تطالب بتجريم سفور المرأة والشذوذ الجنسى والزنا بتراضى الطرفين) ..

العنوان أصابنى بالاكئاب الشديد . لأنه يعبر عن فكر مجلس الشعب الموقر ، بل عن فكر الصفوة (التشريعية) في هذا المجلس ..
أول ما يلفت الانتباه هو المساواة بين (سفور المرأة) والشذوذ الجنسى أو الزنا بالتراضى ..

وثانى ما يلفت الانتباه هو أن الزمن يستدير بنا دورة كاملة ، بحيث نترحم على رواد التنوير في بدايات هذا القرن ، الذين استحقوا ريادتهم ومكانتهم في تاريخ مصر ، بدعوتهم للسفور ، الذى يتطوع جهابذة العصر بالمطالبة ليس بتحريمه فقط ، بل بتجريمه أيضا ..

الشيخ أبو العيون فى الأربعينات أفتى بحرمة (المايوه) فأوسعده رسامو الكاريكاتير بالنكات اللاذعة ، واليوم أصبح السفور وليس المايوه ، هو جريمة الجرائم ..

ملايين النساء السافرات ، فى الجامعة ، وفى أماكن العمل ، وفى المصانع ، وفى كل مكان أصبحن مجرمات فى عرف أهل التشريع ..
لم يعد الأمر يحتمل إلا تفسيراً من اثنين ..

إما أننا في حاجة إلى علاج هرموني ، لأن شعر المرأة المسترسل لا يثير
لواعجننا ولا يثير كوامننا ، ولا يلهب دماءنا ، وإما أن السادة المشرعين ،
في حاجة لمهدئات أو مسكنات ، والاحتمال الثاني هو الأقرب للواقع ،
والمستول هنا هو السيد وزير الصحة ، الذي لابد أن يطرح هذه المهدئات
بأسعار مدعومة ، أو بأثمان رمزية ، رحمة بنا ، وبنسائنا ، وبأعصابنا
أيضا ..

وتبقى المطالبة بتجريم الشذوذ الجنسي ، وهي تستدعي تساؤلات عن
سبب هذه المطالبة ، لأنني لا أعتقد أن الشذوذ الجنسي قد أصبح ظاهرة في
مصر ، تؤرق المشرعين ، إلى الدرجة التي يطالبون فيها بالعلاج
التشريعي ، وأعتقد أننا في هذه القضية تحديداً ، في حاجة لسماع رأى
فضيلة الشيخ الشعراوي ، لأنه أقدر الناس على الإفتاء في هذا
الموضوع ..

(٦)

في مجلة حريق بتاريخ ١٩ ابريل ١٩٩٢ ، وعلى صفحتين كاملتين
(٢٤ و ٢٥) ، دار حوار ساخن ، بين الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ
محمد جلال كشك ولجنة الفتوى بالأزهر الشريف ..

القضايا الساخنة التي تناوّلها الحوار ، والتي انشغل بها الفقهاء هي
قضية الممارسات الجنسية في اللجنة ..

الأستاذ جلال كشك يؤكد أن المسلمين في اللجنة سوف يكونون في حالة
(انتصاب) دائم . والفقهاء لا يؤكدون ولا ينفون ، وإن كانوا يتشككون
في (الديمومة) ، والأستاذ كشك يؤكد أن غلمان اللجنة سوف يكونون
(مقرطين مسورين) . أي أنهم سيلبسون الأساور والأقراط ، ومعنى هذا

أنهم سيكونون من حظ ونصيب ذكور الجنة ، حيث يستمتعون بهم كما يشاءون ، والعلماء يتشككون في ذلك ..

هذه هي هموم المسلمين إذن في نهاية القرن العشرين ..
الانتصاب الدائم ، واللواط بالعلمان ، في الجنة إن شاء الله ..
أكتب هذا وأنا أشعر بالحزن والأسى ، وأتساءل عن رأى غير المسلمين في قوم هذه مشكلاتهم ، وتلك قضاياهم ..
أكتب هذا لكى أذكر الطرفين بأن العالم منشغل حولنا باختراق الفضاء والهندسة الوراثية وإعجاز الكمبيوتر ..

يا حسرة على الإسلام وعلى المسلمين ..
ويا حسرة على الوقت الضائع ، والجهد الذى لا طائل منه ، والقضايا المخجلة ، والعلم الذى لا ينفع ، وأترك الحكم على هذا كله للقراء ..

(٧)

في كل مكان أذهب إليه ، أفاجأ بسؤال متكرر ، وأحيانا أرد ، وأحيانا أزهد في الرد ، لأننى أتصور أحيانا أن صاحب السؤال لم يفكر فيه قبل أن ينطق به ..

السؤال هو : أين القدوة ؟ إن شبابنا يفتقد القدوة والنموذج والمثال وهذا هو السبب الرئيسى للتطرف والانحراف والتسيب ..

الإجابة جاهزة ، لأن مصر مزدهرة بعشرات النماذج ، التى يصلح كل منها لكى يكون قدوة للشباب المصرى ، والعربى ، بل للشباب فى كل مكان ..

نجيب محفوظ ، ألا يصلح قدوة على الانجاز والإعجاز والنجاح والانضباط الخلقى والإبداع غير المسبوق ..
بطرس غالى .. ألا يصلح قدوة ، وهو الذى وصل إلى أرفع منصب

عالمى ، ربما لن يحصل عليه مصرى أو عربى أو افريقى قبل زمن طويل
طويل ..

الدكتور فاروق الباز ، والدكتور مجدى يعقوب ، ومحمد عبد الوهاب
الذى تربع على عرش فنه أكثر من ستين عاما ، واحتفظ بقمته طوال هذه
السنوات ، وفاتن حمادة التى احتفظت بتألقها وكرامتها وعظمتها ومكانتها
على مدى سنوات طوال ، وطه حسين الذى حول عجزه إلى تألق رفيع .
وإضافة هائلة إلى رصيد التنوير والحضارة ، وعباس العقاد الذى لم يحصل
على الابتدائية ، واستطاع أن يحتل مكانة العقل الأكبر فى مصر ،
والدكتور جمال حمدان ، الذى يعمل فى صمت ، ويبدع ويتألق ويتفوق ،
ويرفض أن يدخل دائرة الضوء ، رغم أنه وحده أحد مصادر الإضاءة
والإشعاع الفكرى والثقافى والحضارى ..

ولماذا نبعد بعيدا أو يدفعنا الخوف من مظنة النفاق ، وهو ما لم نعرفه فى
حياتنا كلها ، إلى الابتعاد عن حقيقة واضحة ، ونموذج مؤكد للقذوة
الصالحة الرائعة ؟.

الرئيس حسنى مبارك نفسه . الذى بدأ (طيارا) ثم وصل
(بكفاءته) إلى قيادة القوات الجوية ، ومنها بكفاءته أيضا فى حرب
أكتوبر ، إلى منصب نائب الرئيس ، ثم منصب الرئيس ..
المؤكد أن حسنى مبارك لم يحلم فى شبابه يوما بهذا المنصب ..
والمؤكد أن كفاءته واستقامته كانتا سبيله إلى أعلى منصب فى الدولة ..
ألا يصلح هذا كنموذج أو قدوة ؟ ..

إذن من أين ينطلق السؤال إلا من الرغبة المدمرة فى تعذيب النفس
دون سبب ، أو إطلاق الأحكام دون دليل ؟.

طابور القدوة طويل ، وهو يشمل العشرات ممن لم نذكرهم ، ولا أظن
أن بلدا آخر فى المنطقة كلها يحفل بهذه النماذج ..

ألا يشاركنى القارئ الآن فى أننا لم نعد نستخدم عقولنا ، وأن ما ذكرته
طوال هذا المقال يدفع إلى سؤال واحد لا بديل له ، وهو سؤال مؤرق ،
محزن ، مخجل :
ماذا حدث للعقل المصرى ؟ .

كل شيء هادئ في منشية ناصر

الله لا يرضى .
الشعب لا يرضى .
القيادة السياسية لا ترضى .
الأحزاب المدنية لا ترضى .
أجهزة الأمن لا ترضى .
وحدث ما حدث في منشية ناصر .

* * *

الأمن لا يقاس بعدد العساكر .
ولا بعدد الضباط .
ولا بعدد سيارات الأمن المركزى .
ولا بعدد البنادق أو المدافع أو المسدسات .
الأمن يقاس بشيء معنوى آخر .
هو هبة الدولة .

* * *

الحدث الجسيم ليس نبأ شيطانيا .
إنه نتيجة تسبقها مقدمات .
وأول بدهيات الأمن ما يسمى بالضربة الوقائية .
وهى ضربة تجهض المقدمات ، فتتعدم النتائج .

ومقدمات حادث منشية ناصر متعددة .
وهى لم تكن مجهولة .
وهى أيضا لا يرضى عنها أحد .
ومع هذا استمرت المقدمات وتضاعدت .
ولا بد من تفسير .

* * *

المنظمة المصرية لحقوق الإنسان انها خاطبت السلطات المركزية
بالقاهرة ٣ مرات ، تناشدها التدخل السريع لوضع حد لأعمال العنف
الطائفى فى القرية . ولم تتلق ردا ، ولم يتدخل أحد .
شبهة الجهل بالمقدمات ليست واردة إذن
وشبهة تقصير الأهالى فى الشكوى ليست واردة .
وشبهة تدخل المسئولين لحل المشكلة قبل تفاقمها ليست واردة أيضا .

* * *

المنظمة تذكر فى تقديرها أن التنظيم المسمى بالجماعة الاسلامية فى
ديروط ، يمارس أعمال عنف منظمة (منذ عدة أعوام) ، ويفرض
أشكالا من الاضطهاد الاقتصادى والاجتماعى ، والايذاء البدنى
والمعنوى ، والذى لم يقلت منه كثير من المسلمين من غير أنصار هذه
الجماعة .

فى المثل الشعبى يقولون . (يا فرعون مين فرعنك) .
الفرعون هذه المرة أقام إمارة اجرامية .. فى التاريخ المصرى عرفنا
(جمهورية زفتى) وكانت عملا بطوليا .. وفى زمننا هذا عرفنا (إمارة
ديروط) ، وهى عمل اجرامى من طراز فريد .

* * *

إمارة ديروط الاجرامية حظرت على غير المسلمين أن يجهروا

بشعائهم الدينية ، وهاجمت محاولة تجديد بلاط دار العبادة ، وأوقفت
بفدائية وبطولة هذه المحاولة ، وحطمت في جهادها بعض الأبواب
والنوافذ ، ثم أجبرت بعض غير المسلمين على التبرع لها ، وسال لعابها
لتبرع جديد حصلت عليه منهم لبناء (مسجد) بالقرية .

الانتصار يغرى بالانتصار ، ولهذا صدر قرار جديد يحظر على نفس
المجموعة اقامة أى احتفالات علنية بالمناسبات الاجتماعية ، مثل الزواج
أو حتى الموت .

الذى ينزعج لهذا يجب ألا يكمل المقال ، لأن هذا كله لا يزيد على
كونه (مقبلات) بلغة أهل الشام أو (فكة) بلغة أهل المال .

* * *

ابتدعت إمارة ديروط الاجرامية ، عقوبة جديدة لمن يعصى أوامرها .
العقوبة هى تكسير عظام الذراع اليمنى والساقين .
والهدف المباشر هو (التعجيز) الكلى للضحية .
والهدف النهائى هو أن تصبح الضحية نموذجاً (حياً) رادعاً
للآخرين .. المعلومة منقولة من تقرير المنظمة ، الذى يضيف إليها تعليقا
وضعه بين قوسين ، تقول كلماته (يلاحظ أنها نفس العقوبة التى ابتكرها
جيش الاحتلال الاسرائيلى فى مواجهة الانتفاضة الفلسطينية) .
الفرق هنا أن اسرائيل تفعل ذلك فى مواجهة (الانتفاضة) .
وجمهورية ديروط تفعل نفس الشيء فى مواجهة (الامتعاضة) .

* * *

فى أوائل شهر ديسمبر (نوى) إلى علم أمير الجماعة أن المواطن
(بشرى خليل) تحدث عنه بالفاظ غير لائقة .
أعلنت حالة الطوارئ بالجمهورية ، وصدرت الأوامر بأن يدفع
(بشرى) ، تعويضا قدره ٣ آلاف جنيه ..

رفض (بشرى) أن يدفع التعويض .
في اليوم التالي قطعت عليه عناصر الجماعة الاسلامية الطريق
بالأسلحة النارية ، ثم انهالوا عليه ضربا بالمواسير الحديدية .
أماكن الضرب هي الذراع اليمنى والساقان .
التقرير الطبى المبدئى الصادر من مستشفى ديروط المركزى فى نفس
اليوم (١٧ ديسمبر ١٩٩١) يقول :
(اشتباه فى كسر بالساقين اليمنى واليسرى والذراع الأيمن .. سجمات
بالذراع الأيسر والوجه .
نزيف وجروح رضية بالساقين اليمنى واليسرى) .
تأكد الأطباء بعد ذلك من وجود كسور فقاموا بوضع الساقين فى
الجبس ، واحتاجت الذراع قبل (تجبيرها) إلى عملية جراحية خاصة .
تلقى المعارض (بشرى) انذارا من الجماعة بأن أشقائه سوف يلقون
نفس المصير إذا أصر على التمسك باتهاماته للجماعة الاسلامية أمام
النيابة .
أدرك بشرى أن المقاومة لا تفيد ، واضطر الى التوقيع على محضر صلح
بتاريخ ٢٦ يناير ١٩٩٢ .
ذراع بشرى اليمنى فى حالة عجز كامل عن الحركة .

* * *

(كامل عزمى سمعان) مواطن مصرى متزوج وله ٦ أطفال .. شاء
سوء حظه أن يكون أحد رعايا إمارة ديروط الاجرامية المستقلة .. جريمته
أنه أمين صندوق دار العبادة .

يوم ٣١ ديسمبر ١٩٩١ حدث له ما حدث للأخ بشرى .
يقول التقرير المبدئى لمستشفى ديروط المركزى فى نفس اليوم (وجود
كسر بعظمة الساعد الأيمن ، وجروح رضية ، وسجمات باليد اليمنى ،

وكسر متفتت أعلى عظمة القصبة اليمنى ، وكسور متعددة بالشظية اليمنى ،
وتورم شديد بالساق اليمنى ، وعلامات قصور شديد بالدورة الدموية .
للساق اليمنى واحتمال حدوث غرغرينة بالساق اليمنى (.
ساق كامل اليمنى ما زالت في الجبس .
ساق كامل اليسرى عاجزة كلياً عن الحركة .

* * *

الإمارة تحتاج إلى موارد مالية ، ولهذا فرضت الجزية على غير
المسلمين .

لم تتعسف القيادة الثورية للإمارة عند فرضها للضريبة ، حيث قصرتها
على عمليات البيع ، إذا كان البائع غير مسلم .
هذه المعلومة هي مفتاح تفسير قصة (الخلاف حول بيع المنزل) التي
أذاعتها وزارة الداخلية .

المنزل مملوك لمواطن مسيحي اسمه (عبد الله مسعود) .

المشتري مواطن مسلم اسمه (عبد العظيم صبرى) .

القرار الثورى الديروطى المستقل (ينص على ما يلى .

- يلغى عقد البيع الأول .

- يبيع عبد الله مسعود المنزل الى أحد أعضاء الجماعة بثمان أقل

(تحدده الجماعة) .

- يدفع عبد الله مسعود جزية مقدارها ٥٠٠ جنيه من ثمن البيع الذى

ستحدده القيادة الثورية للجمهورية الاجرامية .

رفض عبد الله مسعود الأوامر فاحتل الجيش الثورى أرضه بقوة

السلاح .. ذهب عبد الله مسعود للأرض فأطلق عليه الجيش الثورى

الرصاص .. تدخلت الشرطة (بعد اطلاق الرصاص) وأطلقت هى

الأخرى الرصاص .

أسفرت الأحداث عن مصرع ثلاثة أشخاص .
مسيحي ، وعضو بالجماعة ، ومسلم لا صلة له بالنزاع ، وأصابته
رصاصة طائشة .
صدر بيان من وزارة الداخلية يؤكد أن النزاع (عائلي) حول بيع أحد
المنازل .

* * *

اجتمع المجلس الثوري للإمارة الاجرامية وأصدر بيانا ثوريا حماسيا ..
مفردات البيان على النحو التالي .
- تدخل الشرطة يمثل اعتداء خارجيا على إمارة مستقلة ذات سيادة .
- الاعتداء تم نتيجة شكوى المسيحيين .
- تفرض حالة الطوارئ على القرية .
- يحظر خروج المسيحيين (الرجال) من منازلهم وإلا تعرضوا للقتل
(هذا القرار هام لأنه يفسر ما حدث يوم ٤ مايو) .
- يتم اعدام ٤ مسيحيين بتهمة ابلاغ السلطات ، وقد تم تحديدهم
بالاسم ، وكان أول اسم في القائمة هو (بدر عبد الله مسعود) الموظف
بمصلحة الطب الشرعي في أسبوط والمقيم بها ، وهو ابن عبد الله مسعود
صاحب المنزل .

* * *

في يوم ١٤ ابريل ، وفي وضع النهار ، وفي شارع رياض وهو أحد أكثر
شوارع مدينة أسبوط اكتظاظا بالحركة ، اعترض الجيش الثوري (بدر
عبد الله مسعود) وأطلق الرصاص عليه .
سقط بدر على الأرض .

تقدم افراد الجيش الثوري وحاصروه ، وأجهزوا عليه
(بالسواطير) .. قبل ذلك وبعده لزم من صدرت اليهم الأوامر منازلهم ،

وتولت النساء شراء لوازم المنازل وتخزينها خوفا من الحصار .
قبل ذلك وبعده أيضا ، انهالت البرقيات المرسلة إلى محافظ أسبوط
ووزير الداخلية والمسئولين ، تطالبهم بالتدخل ، وتناشدهم العمل على
رفع الحصار ، وانقاذهم من الجوع وفقدان الوظائف ، وخطر الموت ..
صور البرقيات موجودة .

* * *

في صباح الرابع من مايو قررت قيادات الإمارة إعلان الحرب ، بعد أن
وصل إلى علمهم أن بعض الرجال خالفوا قوانين الطوارئ وحظر
التجول ، وتحركت أربع مجموعات للقصاص ممن خالفوا الاحكام
العسكرية .

تم ضبط المخالفين في حالة تلبس (خارج منازلهم) .
المجموعة الأولى توجهت إلى أسرة خالفت باكملها قرار حظر
التجول .

كان مع الأسرة بالمصادفة أحد المسلمين وهو محمد لطفى عبد الحافظ .
قرأ محمد لطفى في عيونهم ما سيحدث فتقدم إليهم متوسلا .
انطلق الرصاص فسقط محمد لطفى عبد الحافظ صريعا .
حصد الرصاص بعد ذلك الأسرة بكاملها .

ألفى سمعان بخيت .

سمعان ألفى سمعان .

ايليا ألفى سمعان .

(الطفل) اليشع ألفى سمعان .

كمال عزمى سمعان .

عياد لمعى سمعان .

المجموعة الثانية توجهت إلى مكان آخر على بعد ٢٠ كيلو مترا من المكان الأول ..

انطلق الرصاص فحصد أرواح المخالفين للقرارات ..

اسحاق أيوب خليل ..

سمير مرزوق عبد الله ..

سرحان حنا عبد الله ..

فهمي فهم جرجس ..

بعد أن فرغت هذه المجموعة من مهمتها توجهت إلى (حديقة عنب أرض) حيث كان عادل شفيق شاروبيم متواجدا بالمخالفة للأوامر فأطلقوا عليه الرصاص وسقط قتيلًا ..

المجموعة الثالثة توجهت إلى مدرسة منشية ناصر الابتدائية .. في المدرسة كان (منصور قديس) يمارس عمله رغم أوامر الجماعة المشددة ..

اقتحمت الجماعة المدرسة وهي تطلق الرصاص في الهواء .. سمع منصور قديس صوت الرصاص وهو يقترب فأمر التلاميذ بالانبطاح تحت الكراسي حتى لا يصيبهم الرصاص .. انفتح باب الفصل وانهار الرصاص على المدرس فسقط مضرجا في دماؤه ..

المجموعة الرابعة توجهت إلى طبيب بشري يدعى صبحي بخيت وأحاطت بمنزله ..

تمت مراقبة المنزل ، حتى حدثت الكارثة ..

نزل الطبيب إلى الجراج أسفل المنزل لكي يستقل سيارته ..

معنى هذا أنه خالف قرار حظر التجول مع سبق الإصرار والترصد ..

اقتحمت المجموعة الجراج وأطلقت على الطبيب البشري ٢٦ رصاصة ..

بعد يوم من الحادث توجه بعض أفراد الجماعة إلى (مقر النيابة)
وأطلقوا عليه الرصاص من داخل سيارة ..
في هذه المرة أطلقت الشرطة الرصاص وتم القبض على اثنين وألقي
الثالث بنفسه من السيارة إلى التربة حيث عثر على جثته فيما بعد ..
* * *

الكلمات هنا لا معنى لها ..

والحادث هنا (بشع) ليس لعدد القتلى ، ولكن لما هو أخطر .. القتل
هنا على الهوية . وهذا نذير بالكارثة ..

المعلومة التي نهدىها للقارئ حتى تكتمل ملامح الصورة ، أن عدد
المسيحيين في القرية أكثر من عدد المسلمين ، وأن نسبة المسيحيين حسب
تقديرات مصادر وزارة الداخلية تصل إلى ٥٤ ٪ من اجمالي سكان
القرية ..

* * *

ما يزال البعض يتساءلون وأنا منهم ..
ماذا حدث للمجرمين في أبي قرقاص والمنيا والفيوم ..
أين قرارات الاتهام والمحاكمات والقصاص القانوني العادل ..
ماذا حدث للمتضررين وكيف تم تعويضهم ؟..
هل هناك إمارات مستقلة أخرى ، في أماكن أخرى ؟ لا نعلم عنها
شيئا ؟.. كيف تم تجاهل كل هذه النذر والمقدمات والاستغاثات والاشارات
الواضحة ؟ كيف سيتم التعامل مع هذا الحادث ؟..

لقد ثار الرأي العام المصري لانتهاك عرض فتاة العتبة ..
هاهو ذا عرض الأمان في مصر كلها ينتهك ..
ألا يستحق هذا أن تشتعل النفوس بالغضب ؟..

لقد فزع المصريون جميعا لاغتصاب فتاة المعادى .
ما هو رأى المصريين فى اغتصاب أغلى ما نملكه فى مصر وهو وحدة
الوطن ،

للصورة وجهها الآخر
فوزير الداخلية صاحب تجربة سياسية وأمنية سابقة وناجحة ، فى نفس
المحافظة التى استقلت عنها الإمارة الإجرامية ..
كفاءته الأمنية ليست محل شك ..
رغبته فى تأكيد هبة الدولة وسطوة الأمن ليس لها حد ..
سماعته الوجدانية معروفة ..
تعليماته لرجالها واضحة وصارمة ..
حرصه على سمعة جهازه يمنعه من البوح بما يضيق به صدره ، وصدور
العاملين تحت قيادته ..
فالمرتببات هزيلة ..
والمخاطر جمة ..
والأحداث متلاحقة ..
والمعدات متهالكة ..
والأسلحة فى حاجة لمسيرة التقدم العصرى والتطور الإجرامى ..
ووسط هذا كله يعمل رجاله ليلا ونهاراً ..
ويسقط منهم صرعى فى حوادث الإرهاب ..
ويتحملون مزايدات الأحزاب التى ظاهرها مدنى ، وجوهرها دينى ..
وهو أمام هذا كله فى حاجة إلى كلمة حق ..
وها نحن أولاء نقولها له ..
(اردعهم) وتوكل على الله يا شيخ العرب ..

أثبت لنا ياسيدى إن لقانون الطوارئ فائدة ..
افرض هيئة الدولة وسطوة القانون وكلنا معك ..
وثق أننا لن نحملك فوق طاقتك ، فأنت فى كثير من الأحيان ضحية ..
ضحية للإعلام غير المتسق فى مواجهة الإرهاب ..
ضحية للتعليم غير المتطور لمعالجة فساد العقول والنفوس .. ضحية
لمواردك المحدودة ..
ضحية لغلط ملفات القضايا السابقة ، وحديث هذا الغلط يفتح علينا
أبواب الهم ..

يا فرعون من فرعنك ..
يقول (فرعون) للإرهاب .
(فرعنى) أنهم تسامحوا معى ، فلم يعاقبوا أحدا على ما حدث فى
أبى قرقاص ، فانطلقت إلى المنيا ، وفى المنيا شاعت التهمة ، ونجوت من
المساءلة ، فتفرغت فى الفيوم ، وعندما انتهت أحداث الفيوم وجدت
نفسى حرا طليقا ، فأعلنت استقلالى فى منشية ناصر .. فى قضية اغتصاب
فتاة المعادى ظل الجمهور يلهث واء المطالبة بالعقاب ، حتى تحقق ..
وفى أحداث الفتن الطائفية لم يسمع أحد عن شىء تحقق .. لا العقاب
حدث ..

ولا التعويضات دفعت ..
ولا المتابعة تحققت ..
إلقاء المسئولية إذن على وزارة الداخلية وحدها ظلم بين .. ومراجعة
ما حدث هى المقدمة لمواجهة ما يحدث ..

كل شىء هادئ فى منشية ناصر ..

ما حدث خلاف (عادى) ، ونزاع (عائلى) يحدث كل يوم ..
_ (مصارين) البطن تتشاجر فما بالك بالبشر ..
القصة كلها خلاف حول شراء منزل ..
الأصابع (الأجنبية) هى التى تدفع إلى الحديث عن الفتنة . لجان
وزاة الأوقاف سوف تحل المشكلة ..

* * *

الدنيا ربيع ..
والجو بديع ..
قفلى لى على كل المواضع ..
لا تقول كانى
ولا تقول مانى ..
كانى مانى إيه ..
الدنيا ربيع .

عصر الأستىكة

(١)

وتدور العجلة للخلف ..

أى انتصار حضارى حتى ولو كان محدودا تتم مراجعته ، ويتفانى المجتمع فى الإصرار على التخلّى عنه ..

قانون الأحوال الشخصية فرض للزوجة نفقة متعة بعد طلاقها .. نفس القانون أعطاه الحق فى الاحتفاظ بمسكن الزوجية بشروط محددة ، منها أن تكون حاضنة (أى أن يكون لها أولاد من الزوج فى سن الحضانة) ، وأن يعجز الزوج عن توفير مسكن آخر (ملائم) ، وبشرط ألا تتزوج خلال تلك الفترة ..

منتهى العدل ، وإن كان هذا فى تقديرى يمثل الحد الأدنى للعدل .. بديل ذلك أن يتشرد الأولاد ، وأن تصبح الزوجة المطلقة بلا مأوى . وأن تمتلئ حياتنا بنماذج شبيهة بنموذج الممثلة القديرة أمينة رزق فى دورها الخالد فى فيلم (أريد حلا) .. ونموذج الفنان الكبير فريد شوقى فى فيلم (جعلوني مجرما) ..

كل هذا تتم مراجعته الآن ..

فى أشهر محاكم الأحوال الشخصية فى مصر وهى محكمة زنا نيرى ، بؤادر النهاية لهذا الإنجاز المحدود ..

قال الزوج للزوجة أنت طالق ..

لم تجد الزوجة مبررا للطلاق ..
رفعت الزوجة دعوى نفقة متعة ودعوى بالتمكين من المسكن
(لأولادهما) القُصْر ..
رد الزوج أمام المحكمة بأن قانون الأحوال الشخصية (غير
دستورى) فى هاتين الدعويتين ..
اضطرت المحكمة لتحويل طعن الزوج إلى المحكمة الدستورية
العليا ..

أتى تقرير مفوض المحكمة الدستورية العليا مفاجئا للجميع ..
التقرير يقول ان استقلال المطلقة بمسكن الزوجية (حتى ولو لم يوفر
لها ولأطفالها مسكنا آخر) يتم (جبرا) وهذا يخالف حق الملكية كما نص
عليه الدستور ..

معنى هذا أن فى الشارع (بمعنى الطريق العام) متسعا للأم وللأطفال
القصر ، من أجل عيون الأطفال القصر ، ومن أجل عيون الأم التى
طلقتها الزوج ، ولم تطلق نفسها لأنها لا تملك هذا الحق ..
معنى هذا أيضا أن ما يملكه الأب له من القداسة ما يمنع حتى أولاده من
المساس به ، أما الأولاد أنفسهم فلا يتمتعون بما يتمتع به الجهاد من رعاية
وحماية و قدسية ..

الشقة أصبحت أغلى من فلذات الأكباد فى مصر ..
فى الولايات المتحدة الأمريكية تحصل الزوجة على نصف ما يملكه
الزوج فى حالة الطلاق ، والمحامى (الشاطر) يدفع الزوج إلى حمد الله
وتقبيل يديه ظهرا وبطنا ، لو استطاع الخروج من منزل الزوجية بملابسه
الداخلية ..

فى الولايات المتحدة وفى أوروبا وفى أغلب بلدان العالم ، المتحضر وغير

المتحضر ، تكون الأولوية للأطفال القصر ، الذين لا ذنب لهم في خلافات
الوالدين ..

أظن أننا الآن على أعتاب عصر جديد ، هو عصر (الأستيكّة) ..
أى إنجاز حضارى أو حتى إنسانى ، مطلوب مسحه بالأستيكّة ..
ان السباق الحضارى والإنسانى فى العالم يتجه لحقوق الإنسان ولكن
عندنا من يحاول أن يسعى لهدمها ..

العالم ودع منذ قرون فكرة الدولة الدينية بسلطتها المعروفة ، والجهايزة
فى بلادنا يسعون إليها ..

العالم يسعى لحماية (الحيوانات البرية) ونحن نسعى لتشريد الأطفال
ليس الأطفال الأجانب ، بل أطفالنا نحن ..

العالم ينظر للمرأة على أنها إنسان ، على قدم المساواة مع الرجل لأنها
الأم والأخت والزوجة والابنة ، والبعض منا ينظر إليها على أنها متاع ،
ومتعة ، بل وأكثر من ذلك ، لا يرى أن هذه المتعة تستحق نفقة ..
ملايين الأسر فى العالم تنزعج إذا أصاب كلبها الأليف أو قطتها
الأليفة ، نزلة برد ، ونحن لا تنزعج إطلاقا إذا تشرد أطفالنا بلا مأوى ..
(حتى لو عجز الزوج عن توفير مسكن ملائم لأولاده) ، فليس من
حقهم الإقامة بمسكن الزوجية ..

هل رأى (العصر) سكارى مثلنا ..

هل رأى (الطفل) جبابرة مثلنا ..

هل رأت المرأة (أسيادا) مثلنا ..

عزيزى القارئ ، لا تفزع ، ولا تحزن ، وغنّ معي ..

خارج السباق يا بلدنا خارج السباق ..

كله منساق يا بلدنا كله منساق ..

(٢)

ضمان الديمقراطية هو الرأى العام المستنير ، وهو لن يتكون إلا بالممارسة الديمقراطية الصحيحة ، وهى لن تتحقق إلا إذا احترم الكتاب والسياسيون شرف الكلمة ..

ما يحدث فى الساحة السياسية المصرية الآن نذير بالعكس ..

هناك بدهيات لا يختلف عليها أحد ..

نزاع حلايب على سبيل المثال ..

هذه قضية قومية .. تتعلق بتراب وطنى ..

لا مجال هنا للمناورات الحزبية ، أو المزايدات السياسية ، لأن المناورات والمزايدات لا تحتل إلا وصفا واحدا فى هذه الحالة . وهو الخيانة الوطنية ..

هل يمكن تبرير هذا الموقف الرخيص ، غير الوطنى ، بعزومة فى السودان ، أو لقاء مع حسن الترابى ؟ .

بمجرد سؤال تنتظر إجابة عنه من بعض صحف المعارضة فى مصر .

(٣)

مادما نتحدث عن صحف المعارضة فلا بأس أن أنقل للقارئ مكالمة من صديق عزيز ، متفوق فى مجاله الطبى ، ومشارك فى الحياة السياسية والعامة ..

قال لى ، هل قرأت ما يكتبه محمد عباس فى الشعب ..

- تقصد رسالة إلى السيد الرئيس ؟ ..

- نعم ، لقد أصابتني الرسالة بارتفاع فى ضغط الدم ..

الصديق معه حق ، سلسلة المقالات التى يكتبها الأخ عباس ، الذى لم

أتشرف بالتعرف عليه ، سياسيا أو كاتبا من قبل ، تذكرنا بمحاولاتنا الأولى ونحن هواة ، حين كنا نتخيل أننا نجلس إلى السيد الرئيس ، ونكتب الصفحات الطوال ، ونأخذ راحتنا في الحديث ، وينتهي الأمر بمحاولة نضحك عليها حين نقرأها (على كبر) ..

أنا شخصا كتبت رسائل مطولة للرئيس السادات وللرئيس مبارك . وكان ذلك قبل نحو عشر سنوات ، لكنني والحق يقال لم أبلغ ما بلغه الأخ عباس ، من مستوى لا أسمح لنفسى بوصفه ..

ما معنى أن يتحدث كاتب للسيد الرئيس قائلا ما معناه ، إن عمرك اليوم قد تجاوز الخامسة والستين ، وقد اقترب موعد لقائك بربك ، وسوف يسألك عن كذا وكذا ، وساعتها لن يكون معك كذا وكذا .

أين اللياقة وأدب الحوار ، بل وأين الفكر في هذا كله ، ومن هذا كله ؟ إنني أعتذر للقارئ بأنني لم أقرأ الرسائل كاملة ، واكتفيت بنظرة سريعة إلى السطور ، لأنني فوجئت بالكاتب في الرسالة الأولى يكتب شيئا أذهلني ، حيث كان يتوقع كما يقول ، أن يبدأ حسنى مبارك عهده بالإفراج عن قتلة السادات ..

هكذا ..

أين حدث هذا إن شاء الله ؟ .

واستنادا إلى أى شرع أو دين أو فكر ..

قتل رئيس الدولة وسبعة معه ، يؤدي إلى براءة المتهمين ؟ .. لماذا لا يكمل إذن سلسلة مقالاته ، ويبوح بما يعمل في صدره ، ويطالب لهم بأوسمة ؟

يبدو أن الكاتب يعيش في (الباي باي) ، ويتخيل أوهاما دينية لا سند لها إلا الارهاب ، ولا شفيع لها إلا مرض النفوس ، شفاء الله منه وعافاه ..

عندما قتل عبد الرحمن بن ملجم الإمام عليا ، تولى أمره عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فقطع يديه ، وقطع رجله ، وسمل عينيه ، وقطع لسانه ، ثم قتله ، ثم صلبه وأحرق جسده ..

هذا عن قاتل علي إمام المتقين ..

في عهد أبي جعفر المنصور ، كتب الأديب الرائع ابن المقفع (رسالة الصحابة) ناصحا له ، فماذا كان جزاء النصيحة ، مجرد النصيحة ..

اختلفت الروايات يا أستاذ عباس ..

رواية تقول إنهم قطعوا جسده قطعة قطعة ، وأخذوا يشوون القطع على النار ، ويطعمونه إياها حتى مات ..

ورواية أخرى أنهم أحرقوه في التتور ..

والحديث طويل ، وأئمة الفقه الأربعة ، كان مسموحا لهم في عهد ازدهار الدولة الإسلامية بالحديث عن الدين ، فإذا تجاوزوا إلى شبهة السياسة ، أو حتى شبهة الاختلاف الفقهي مع فقهاء الخليفة ، نالوا ما نالوه من جلد وضرب وتعذيب ..

الإمام (أبو حنيفة) جلد لرفضه ولاية القضاء ، وقيل إنه مات بعد أن دسوا له السم ..

الإمام مالك ، جلدوه وهو عار ، ولم يسترُوا عورته ، إمعانا في إذلاله ، حتى خلع كتفه ، وامتنع عن الذهاب للمسجد بعد ذلك ، خجلا من الناس ، حتى توفاه الله ..

الإمام ابن حنبل ، عذب وجلد ، لرأيه في خلق القرآن ، على خلاف رأى المعتزلة ، الذي اقتنع به الخليفة المأمون ..

الإمام الشافعي ، تربص به تلاميذ الفقيه فتيان ، فقيه السلطة وضربوه حتى مات ..

والسلسلة طويلة ..

الإمام زيد بن علي إمام المذهب الزيدي ، قتل وصلب جثمانه ..
الإمام ابن تيمية ، خرج من سجن إلى سجن حتى مات ..
فلتحمد الله يا أستاذ عباس على أنك تعيش في عصر ، غير العصر
الذي تدعو إليه ، وتظلمك الديمقراطية الوارفة بظلمها الظليل ، وبحميك
القانون (الوضعي) ، مهما تجاوزت ، وتكفل لك الدولة (المدنية) أن
تكتب ما تكتب وأنت آمن ..
وإذا لم تستح ، فاكتب في جريدة الشعب ..

(٤)

مطلوب قانون لتجريم توزيع أشرطة التسجيل التي تحض على الفتنة
الطائفية ، وتهدد الوحدة الوطنية .
مطلوب أيضا ألا تسقط هذه الجريمة بالتقادم ..
مطلوب أيضا أن يعاقب المتحدث في الشريط ، إذا كان حديثه مشيراً
للمسلمين ضد الأقباط ، أو للأقباط ضد المسلمين ..
مطلوب أيضا أن يتم إعمال القانون الذي يعاقب على ازدراء الأديان
السماوية ، ليس في حق الكتاب وحدهم ، بل في حق رجال الدين قبلهم ،
لأنهم أولى بالعقاب إذا خرجوا على قواعد الدين وقيمه النبيلة ، وعلى
رأسها التسامح الديني ..
لو عاد القارئ إلى ما كتبه في كتابي (الإرهاب) ، الذي صدر عام
١٩٨٨ لتبين أننا حذرنا من العواقب ، قبل الهنا بسنة ، بل بسنوات ،
وحتى يدرك سببا جوهريا من أسباب ما نراه الآن وتنكره ، ونفشل أحيانا
في معرفة أسبابه ..

ليقرأ القارئ حتى يدرك أن المخدرات أنواع ، وأن الهيرويين ليس
أكثرها ضررا ، لأنه على الأقل يصيب الفرد ، أما المخدرات التي سنكتب

عنها الآن ، فهي مدمرة للأمة كلها ..

في صفحة ٩٤ من الكتاب كان من بين ما كتبه حديث طويل عن شريط كاسيت لشيخ شهير جهير ، منعه الرئيس السادات من العودة إلى منبره . في الوجه الأول من هذا الشريط يتحدث حديثا سافرا يحرض فيه على الفتنة بين المسلمين والأقباط بشكل لا يحتاج إلى شرح أو توضيح . فهو ينصح المسلمين بعدم مصادقة النصارى لأن أساقفتهم يعلمونهم في الكنائس كراهية المسلمين ويوصونهم من بين ما يوصون قائلين لهم : (إذا قلبك راق للمسلم خليه بفتة سودة) . والوصية الأخرى : « يا شباب النصارى تعلموا الطب لتبتزوا أموال المسلمين ، وتكشفوا عورات نساء المسلمين ، وتحددوا نسل المسلمين ».

ما أشد الغفلة ، ما أشد غفلتنا ، تعلموا الطب لتبتزوا أموالهم ، وتحددوا نسلهم ، وتكشفوا عورات نسائهم) ، يا إلهي ، حديث لم نتخرج في نشره لأنه منتشر ، وكما قلت في مئات الألوف من الأشرطة ، وهو حديث يدفع المسلم إلى أن يمسك بخناق أول قبطي يصادفه عند خروجه من المسجد ، وهو حديث كاذب مخترق لا يسمح قبطي مصري لنفسه أن يسمعه ، ناهيك عن أن يقوله ، وهو واضح الاختلاق لمثلي أو لمثلك أيها القارئ ، لكن أنا وأنت لسنا مستهدفين ، المستهدف هم البسطاء ، المؤمنون الودعاء ، المعتقدون أن الشيخ إذا وقف على المنبر لا يأتيه الكذب من بين يديه ولا من خلفه . والشيخ يدرك ذلك ويتوجه إلى هدفه في رقة النمر وخفته ، فيتخلى عن الفصحى ، ويقرب من ذهن البسطاء ووجدانهم بعبارة تناسبهم (إذا قلبك راق للمسلم خليه بفتة سودة) ثم يستدير لكي يطعن طعنته المدمرة (ويكشفون عورات نسائكم) ، نعم إلى هذه الدرجة ، يتفوق الطالب القبطي في الثانوية العامة ، ويحصل على مجموع كبير ، لكي يدخل الطب ، ويقضى سبع سنوات في الدراسة

الشاقة ، وهدفه الوحيد من وراء ذلك ، الفرجة على عورات النساء ،
وأى نساء نساءنا ، يا إلهى ، ونتعجب بعد ذلك إذا حدثت فتنة طائفية ،
ولم يحاسبه أحد على أقواله حتى الآن ، وشرائطه مازالت تباع دون مصادرة
أو قيد ، ودون رقابة تصدر ، أو شرطة تمنع ، أو تحقيق يجرى ، بينما ترتج
المصنفات وتخرج الحملات ، وتسود المحاضر ، لأغنية لعدوية أو لطقطوقة
لليلي نظمى ، أو لعبارة تهدد أمن المجتمع ووحدته مثل السلم نايلو فى
نايلو ، ودون رد من علمائنا الأجلاء ، الذين ينشغلون أحيانا بالتوسط
لدى وزير الأوقاف لعودة الأئمة المبعدين عن منابرهم ومن بينهم ، بل
على رأسهم الشيخ الشهير ، الأشهر من أن يقع تحت طائلة القانون ،
ودون أن تتعرض لذلك الصفحات الدينية بالصحف والبرامج الدينية فى
الإذاعة والتلفزيون وترد عليه ، بدلا من أحاديث الختان وحرمة معاشرة
الجان ..

لا يغرنكم أن الشجرة خضراء ، وأنها واقفة ، وأن ظلالها وارفة ، فقد
تعلمنا فى الزراعة أنه أحيانا يحدث هذا ، بينما دود الأرض يأكل الجذور ،
وساعتها يفاجأ الجميع بالانهيار ..

ما ذكرته كله يربطه خيط وإن كان خيطا رفيعا ..
كل شىء جميل ونبيل فى حياتنا يتم محوه الآن ، أو على الأقل محاولة
محوه ، بالأستىكة ..

حقوق المرأة يحاول البعض محوها بالأستىكة ..
حقوق الطفل يحاول البعض محوها بالأستىكة ..
التقليد العظيم المتمثل فى احترام رئيس الدولة ، لأنه رمز للدولة ، وهو
احترام لا يفرضه القانون ، ولكن تفرضه الأعراف والقيم والمبادئ
والتاريخ بل والجغرافيا أيضا ..
هذا التقليد يحاول البعض محوه بالأستىكة ..

الوحدة الوطنية ، أعظم إنجازات الوطن في تاريخه ..
يحاول البعض محوها بالأستيكة ..
غنٌ معي يا عزيزي القارئ ..
تيكة تيكة ..
كله يمسح ..
بالأستيكة ..
كله يرجع ..
ويبتغى ..
بالبولوتيكة ..
تيكة تيكة ..
والسلام عليكم ورحمة الله ..

رسالة عتاب لكاتب قدير

مطلوب من القارئ ألا يحترم الكلمة المكتوبة .
مطلوب منه عند قراءته لأي مقال ألا يصدق ما ورد فيه ، لأنه من الممكن أن يأتي نفس الكاتب بعد أسبوع ، ويكتب في نفس المساحة ما نصه أو ما معناه ، أو ما مفهومه ، (ضحكت عليك أيها القارئ ، عليك واحد) .

هذا هو الدرس الذي نقله إلينا كاتب كبير قدير ، تعودنا أن نختلف معه ونحترمه في ذات الوقت ، وهو الأستاذ فهمي هويدي .
بدون مقدمات فاجأنا في الاهرام بتاريخ ١٢/٥/١٩٩٢ بمقال ساخن ، عنوانه (تقرير عربي عن الفتنة الأمريكية) ، وذكر فيه أنه كان في الولايات المتحدة ، وحضر المؤتمر الصحفي الذي انعقد في البيت الأبيض ، وسمع بأذنيه أن جماعة من الأصوليين الإسلاميين ، يطلق عليها اسم (البلاليين) نسبة إلى بلال مؤذن الرسول ، كانت وراء ما حدث في لوس انجلوس وغيرها .

الكاتب يذكر أن الزنجي الذي اعتدى عليه البوليس بالضرب المبرح ، كان مستأجرا بواسطة الجماعة ، وهو الذي بدأ الاعتداء ، ولم يكن صاحب كاميرا الفيديو الذي صور الحادث موجودا بالمصادفة ، بل كان موجودا بقصد وترتيب من نفس الجماعة ، وقد تم مسح بداية

الشريط وفيها بدأ الزنجى بالاعتداء ، وبقي الجزء الأخير المثير ، الذى يثبت اعتداء الشرطة .

الكاتب الاسلامى الكبير ، فهمى هويدى أضاف أن لدى أجهزة الاستخبارات الأمريكية ما يثبت ذلك بالصور ، فقد شوهد بعض الملتحين يوجهون الزنوج لتخريب أماكن محددة ، كما شوهد الزنجى المعتدى عليه والآخر الذى قام بتصويره يترددون على أحد مساجد الأصوليين ، ثم أضاف أن الأمر يتعدى الحوادث المحدودة إلى التنظيم الجماعى العالمى الدقيق ، الذى يشارك فيه عمر عبد الرحمن والغنوشى ، ولم يذكر اسميهما مكتفيا بإشارة واضحة فى مقال الأهرام ، وإن كان البعض قد ذكر لى أنه ذكر الأسماء فى نفس المقال الذى ينشر فى نفس اليوم بالصحف العربية .

كاتب يكتب هذا ويذكر فى بداية المقال أنه - ولا فخر - أول من ينشر القصة الحقيقية الكاملة لما حدث فى المدن الأمريكية ، وأول من ينشر ما وراء الأحداث من أسباب وتفصيلات ، ويؤكد أنه سمع ذلك بأذنيه ، وأنه ناقل أمين لما سمع ، ثم ينهى مقاله بقوله إنه - ولا فخر أيضا - يسجل السبق الصحفى فى نقل هذه الحقائق ، ويتعمد (وهذا هو ما يحزن حقا) أن تكون آخر كلمات المقال ، تلك العبارة السامية الرائعة (ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد) .

ماذا يتوقع مثل هذا الكاتب من القارئ العادى وغير العادى ، وقد أشهد الله على ما يقول .

وحدثت المفاجأة

فقد كتب الأستاذ هويدى فى الأسبوع التالى بتاريخ ١٧/٥/١٩٩٢ مقالا جديدا ذكر فيه أن هذه القصة كلها كانت من نسج خياله ، وأنها -

ولا فخر - ليست حقيقية ، وأنه تعجب حين صدقها الناس - هكذا -
ومعنى هذا أن الناس ظالمون . ومغرضون ، لأنهم يصدقون أى شيء يقال
ضد التيار السياسى الدينى مهما بلغت درجة غرابته أو شذوذه .
هكذا بكل بساطة ، وعلى صفحات الأهرام العريقة ، التى تعودنا منها
الجدية والصدق ، وأمانة النقل ؛ (شكل) الكاتب قراءه ، وأخذهم
(مقص) ، وتلاعب بهم على مدى أسبوع كامل ، حتى يثبت أن المجتمع
كله فاسد النفس ، ظالم القصد ، سيء الطبع ، ملئ بالشك والعقد
النفسية ، سادى النزعة ، يحكمه هواه عندما يكون الحديث عن
(الاسلاميين) ، وأشهد أنتى فى حياتى كلها لم أقرأ شيئاً كهذا ، ولعلى
لا أجد وصفا لهذا أيضا .

ولهذا صدقنا الكاتب الكبير

صدقناه أولا لأنه كاتب إسلامى ، ومن آداب الاسلام صدق الكلمة .
والنأى عن شهادة الزور .

الكاتب (الاسلامى) إذا قال صدق ..

وإذا ذكر لنا أنه شاهد ، فشهادته - ولا فخر .. حق وعدل .
وصدقناه لأنه أشهد الله على بلاغه ، والذي يشهد الله لا بد وأن يكون
صادقا ، ويستحيل أن نتصور كاتباً إسلامياً يجرؤ على أن يشهد الله على
دعابة ، أو أكذوبة .

وإذا كان هذا يكفى لتبرير الوقوع فى الشرك الذى نصبه لنا الكاتب
الكبير ، فإن هناك من الأدلة فيما ذكر ، ما يدفع أمثالى إلى تصديق القصة
بأكملها .

القصة تبدأ بخداع وكذب وتلفيق ، وهذه سمة من سمات التيار الذى
يتحدث عنه .

عندما حاول البعض اغتيال وزير الداخلية الأسبق اللواء حسن أبو باشا . لفقوا له أنه كان يدوس المصحف بقدميه .

عندما هاجموا حفلا غنائيا في جامعة القاهرة ، تحييه فرقة (المصريين) أشاعوا أن المغنى (هانى شنودة) يفرش أرض المسرح بصفحات القرآن (ويدبدب) عليها هو وفرقته .

عندما حرقوا المحلات والصيدليات وممتلكات الأقباط في المنيا أشاعوا أن الأقباط يملكون شقة (الكترونية) مجهزة بأجهزة سرية ، لتصوير المسلمات عاريات ، حتى يتاح لأهل الذمة اغتصابهن تحت سيف التهديد .

عندما أشعلوا الفتن قبلها بسنوات في قرى ومدن الصعيد ، أشاعوا قصة (الاسبراى) الذى يرشه الأقباط على ملابس المحجبات ، فيتطاير في الهواء وتبقى منه (صلبان) لا تظهر إلا بعد (الغسيل) .

تلفيق التهم إذن أحد خصائص هذا التيار المأثورة .. الكذب والاختلاق إذن إحدى وسائل هذا التيار المعروفة .

تزوير الحقائق إذن أحد أساليب هذا التيار المتداولة .

ما الذى يمنع إذن من تزوير فيلم ضرب الزنجى ، بإخفاء بدايته التى اعتدى فيها الزنجى على الشرطة ، وإظهار رد الفعل وكأنه الفعل الوحيد . والتركيز على رد الاعتداء ، وتزييفه بحيث يصبح اعتداء ، وبحيق تنعكس الحقائق ، ويصبح الحق باطلا ، والباطل حقا .

أيلومنا الأستاذ هويدى بعد ذلك إذا صدقناه ، وقد ساق إلينا كذبا تعودناه منهم ، وتلفيقا عرفناه عنهم ، وتزييفا للحقائق لم نعرف غيره منهم ، ولم نعرف سنداً له غيرهم ؟ !

والإرهاب دليل لا يكذب

فالذى حدث في المدن الأمريكية كان مزيجاً من جرائم متعددة .. كانت هناك سرقة المحلات ، فاندفعت ذاكرتنا إلى سرقة محلات الصاغة في نجع حمادى وشبرا الخيمة والزيتون ومحاولة سرقة أحد البنوك في المنصورة .

وكان هناك حرق للمحلات فتذكرنا حوادث نوادى الفيديو . وكان هناك تدمير للأماكن العامة ، فتذكرنا تدمير المحلات والصيدليات وأماكن السكنى والعبادة في المنيا وأبى قرقاص وامبابة . وكان هناك اعتداء وحشى على الأمنين ، فطفت على ذاكرتنا الجنازير والمواسير الحديدية ، والخناجر والسنج ، وهى جزء من (أدبيات) هذا التيار على مدى السنوات الطوال السابقة .

وكان هناك قتل لمن لا ذنب لهم ، فتذكرنا أحداث قتل مائة جندى وضابط فى أسبوط صباح عيد الأضحى ، عقب قتل الرئيس السادات ، دون ذنب جناه واحد منهم ، وانتعشت ذاكرتنا بحوادث منشية ناصر الأخيرة .

أيلومنا الأستاذ هويدى بعد ذلك إذا صدقناه .

وهناك دليل آخر

فعلى العكس مما حاول الأستاذ هويدى أن يثبت لنا فى مقاله الأخير يبدو لنا أن الارهاب الدولى سمة أخرى من سمات التيار الذى يتحدث عنه ، فإيران لم تنف عن نفسها أبدا تهمة تصدير الارهاب ، وإن كانت أسمته (تصدير الثورة) : ، ومسلسل خطف الرهائن الغربيين فى لبنان ، لصالح إيران مخطط معروف ومشهور ومتواتر ، والذين شاركوا فى الحرب الأفغانية بدأوا يعودون إلى بلادهم ومعهم خبرتهم العسكرية التى يحاولون

توظيفها لقلب نظم الحكم ، ومثال الجزائر واضح ، والطموح لزعامة شبكات الإرهاب الدولية محل نزاع بين قيادة الأخوان في (ميونيخ) وبين قيادة التراي في الخرطوم .

الارهاب الدولي الذى ينطلق من مظلة أو مظنة العداء للحضارة الحديثة له إذن سنده ومظاهره ، والعالم كله لم يعد يسمع عن محاولات اغتيال الحكام بصورة متواترة إلا في بلادنا ، وتحت راية واحدة للأسف الشديد هى راية الإسلام السياسى ، والعالم كله لم يعد يسمع عن مطاردات الكتاب والحكم بقتلهم بسبب آرائهم أو معتقداتهم إلا في بلادنا وتحت نفس الـراية . ما الذى يمنع إذن من تصديق أن الارهاب الدولي قد انتشر هذه المرة ، وطال أرض الولايات المتحدة ..

الأقرب للمنطق هو التصديق وليس التكذيب ، والقبول وليس الانكار ، والموافقة- وليس الرفض ..

ويبقى لنا عتاب ..

وهو عتاب يمليه علينا أدب الإسلام الرفيع ، الذى علمنا ألا تمر علينا ليلة واحدة ، وفي نفس المسلم منا شيء نحو أخيه ، والأستاذ هويدى أخى فى الوطن وفى الإسلام ، ولو كان العتاب شخصيا ما ذكرناه هنا ، لكنه عتاب يتعلق بحق من نتوجه إليه ، أنا والأستاذ هويدى ، وأقصد به القارئ فى أن يصل إلى الحقيقة دون لبس أو تزوين أو إضافة أو حذف ، ويعلم الله أننى قد اخترت هذه الألفاظ بدقة وعناية ، احتراما ومودة ، وبديلا عن ألفاظ أخرى أصدق فى وصف ما حدث ..

لقد أشار الأستاذ هويدى إلى ما أكتبه أكثر من مرة دون ذكر الاسم ، وقد أرسلت إليه منذ سنوات أكثر من رد ولم ينشره ، وهذا تقديراته وموازناته ، لكن الحادثة التى أفرزتنى حقا ، هى نشره لأخطاء تاريخية

واضحة في أحد مقالاته ، ورفضه أن ينشر تصحيحا لها أرسلته إليه ..
الأمر هنا يخرج عن الخلاف إلى حق القارئ في المعرفة ، وإلى واجب
جريدة الأهرام في تصحيح الخطأ ، وأعترف أن في نفسي شيئا من هذا
الموقف ، ولهذا أستسمح القارئ في نشر ما ذكره الأستاذ هويدى ، وما
عقبت به عليه ..

فلتكن خاتمة المطاف أن أنقل للقارئ نص الرسالة التي أرسلتها
للأستاذ هويدى ، ولم ينشرها ، وعنوانها (مع خالص الاعتذار) ..
(أشهد أنني منذ سنوات طويلة ، لم أقرأ فقرة قصيرة ، حفلت بأخطاء
تاريخية كثيرة ومشيرة ، كما حدث عندما قرأت للأستاذ الكبير فهمى
هويدى في مقاله (إنكار في الحاضر واهدار للماضى) ما نصه :
« والذين جاءوا بعد معاوية كانوا على الجملة أهل حكمة وسداد وعلم
وحزم ، مروان بن الحكم انتخب في ظل شورى حقيقية ، تحت في مؤتمر
عقده أهل الرأى بالشام ، واستمر ثلاثين يوما في بلدة « الجابية » - بين
الأردن ودمشق - حيث رجحت كفته على عبد الله بن الزبير وخالد بن
الوليد وكان مروان شيخ قريش في زمانه ، وكبير بنى أمية ، وعرفت عنه
الكفاءة والشجاعة والتفوق فضلا عن أنه يعد من الطبقة الأولى للتابعين ،
الذين تلقوا معارفهم على أيدي الصحابة ..

ابنه عبد الملك ، الذى تولى الخلافة بعده . كان من أعظم الناس
عدالة كما يقول ابن خلدون ، فوق كونه من أفقه أهل زمانه ، حتى احتج
الإمام مالك بفعله في كتابه « الموطأ » وفي عهد خلفه الوليد بن عبد الملك
ظهرت عظمة الدولة الإسلامية ، ويذكر له أنه لم يعهد بالخلافة من بعده
لأحد من أولاده وإنما عهد بها إلى أفضل أهل زمانه ، عمر بن عبد العزيز
الذى هو أجل من أن يعرف ..

ولا نريد أن نستطرد ، فنفصل في بقية المسيرة الطاقرة التي استمرت

حتى العصر العباسي الأول .

لقد حفلت الفقرة السابقة بالأخطاء التاريخية التالية :

أولا : ذكر الأستاذ هويدى أن الوليد بن عبد الملك عهد إلى عمر بن عبد العزيز بعده ، والصحيح أن الوليد عهد إلى أخيه سليمان بن عبد الملك تنفيذا لوصية والدهما عبد الملك بن مروان ، واستمر حكم سليمان بعد الوليد سنتين وستة أشهر وخمسة عشر يوما ..

ثانيا : ذكر الأستاذ هويدى أن خالد بن الوليد كان منافسا لمروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير عندما اختير مروان في « الجابية » والصحيح أن خالد بن الوليد مات قبل هذا التاريخ بأربعين عاما ، وبالقسط فإن الأستاذ هويدى يشاركنا الرأي في أن أرواح الموتى لا تشارك في الشورى . ناهيك عن المنافسة على الخلافة ..

ثالثا : الحديث عن كفاءة مروان وتقواه ينقضه ما أجمعت عليه كتب التاريخ (راجع الطبرى وابن كثير وابن الأثير والمسعودى) من أنه كان وراء أخطاء عثمان ، وأنه كان دائم الإفساد لمحاولات على بن أبى طالب لإصلاح ما بين المسلمين وخليفتهم ، وهو صاحب القول المشهور قبيل قتل عثمان (جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من بين أيدينا ، اخرجوا عنا - « الطبرى - جزء ٣ - ص ٣٩٧ ») ولعله أول قول يصف الخلافة بالملك ، وهو القول الذى عجل بفجيرة قتل ثالث الخلفاء الراشدين ، ولا بأس أن نذكر الأستاذ هويدى بما تجمع عليه كتب التاريخ من أن مروان كان صاحب السهم الذى أصاب طلحة بن عبيد الله ، المبشر بالجنة ، وزميل مروان في جيش عائشة ، وحسبنا ذلك دليلا على تقوى مروان ، وصلاحه ..

رابعا : ساق الأستاذ هويدى واقعة اختيار مروان بن الحكم في « الجابية » كمثال للشورى الصحيحة ، وأوحى ظاهر لفظه بأن الأمر كان

اختيارا بين مروان وخالد بن الوليد وعبد الله بن الزبير ، أما خالد بن الوليد فقد صححنا الأمر بالنسبة له . والصحيح أن المقصود هو خالد بن يزيد بن معاوية ، ولم يكن الأمر شوري كما ذكر الأستاذ هويدي ، بل كان مؤامرة أموية ، دبرها عمر بن سعيد الأشدق بعد وفاة معاوية بن يزيد . أو (قتله على الأرجح) مقابل وعد من مروان بتوليته وليا ثانيا للعهد بعد خالد بن يزيد ، وذلك لمواجهة نفوذ عبد الله بن الزبير وسيطرته على أغلب ديار المسلمين عدا الشام ، ويصف المسعودي في كتابه مروج الذهب (جزء ٣ - ص ٩٥ - دار المعرفة) اختيار مروان في الجابية بمايلي (وكان مروان أول من أخذها بالسيف كرها على ما قيل بغير رضا من عصابة من الناس - بل كل خوفه إلا عددا يسيرا حملوه على وثوبه عليها . وقد كان غيره ، ممن سلف أخذها بعدد وأعوان ، إلا مروان فإنه أخذها على ما وصفنا) ، أين الشوري إذن والايحاء بأن المسلمين قضوا شهرا في الجابية في الأردن يقلبون الأمر على وجوهه ويختارون بين ثلاثة يعرضون أنفسهم عليهم (مروان ، وروح خالد بن الوليد ، وعبد الله بن الزبير) ، ولا بأس أن يعلم القارئ كيف انتهى الأمر بشوري الجابية فلم تنقضى خمسة أشهر حتى نقض مروان عهده لخالد بن يزيد وللشدياق من بعده ، وأحضر حسان بن مالك ، وأرغبه ورهبه ، فقام حسان في الناس خطيبا ودعاهم إلى بيعه عبد الملك ابن مروان بعد مروان وبيعة عبد العزيز ابن مروان بعد عبد الملك فلم يخالفه في ذلك أحد (مروج الذهب للمسعودي - جزء ٥ ص ٩٧) .

خامسا : ليس صحيحا أن من عهد إلى عمر بن عبد العزيز هو الوليد ، والصحيح أنه سليمان بن عبد الملك ، وأسباب العهد إلى عمر لم تكن التقوى والورع فقط ، بل يضاف إلى ذلك ثلاثة أسباب توردها كتب التاريخ ، أولها صغر أبناء سليمان بما لا يمكنهم من القيام بأعباء الحكم

وثانيهما أن الوليد (شقيق سليمان والخليفة السابق له) كان قد أراد نقض البيعة لسليمان خلافا لعهد لآبيه ، وتولية ابنه من بعده ، فعارض عمر بن عبد العزيز في ذلك ، فحبسه الوليد في غرفة سد منافذها حتى يهلك اختناقاً ، ثم عفا عنه بعد ذلك وتراجع عن فكره تولية ابنه فحفظها له سليمان ، وثالثها أن عمر بن عبد العزيز لم يكن بعيداً عن الخلافة بحيث تصبح توليته مفاجأة ، فوالده عبد العزيز بن مروان كان ولي عهد عبد الملك ، ولولا وفاة عبد العزيز قبل عبد الملك لآلت إليه الخلافة ثم إلى عمر ، ولما وصلت إلى الوليد أو سليمان ، والمفاجأة الوحيدة في تولية عمر ابن عبد العزيز أنه كان صالحاً بأكثر مما هو معروف عن بني أمية وتقياً بأكثر مما هو مطلوب لخليفة من شاكلتهم ، ولعل هذا ما دفع سليمان إلى العهد بالحكم إلى يزيد بن عبد الملك بعد عمر بن عبد العزيز ، حتى يفسد ما أصلحه عمر ، فتعتدل الكفة ويستقيم الميزان ، وهو ما حدث بالفعل دون زيادة أو نقصان ..

سادساً : لعل أغرب ماورد في الفقرة السابقة ، حديث الأستاذ هويدي عن عدل عبد الملك بن مروان وفقهه في الدين وتقواه (حتى احتج الامام مالك بفعله في الموطأ) . ولعل أذكره بأن اليد اليمنى لعبد الملك كان الحجاج بن يوسف الثقفي ، الذي قتل من المسلمين ما لم تقتله جيوش الفرس أو الروم ، والذي كان أول من رمى الكعبة بالمنجنيق ، وهدمها على من فيها دون أن ينكر عليه عبد الملك ذلك ، بل إن آخر وصايا عبد الملك لخليفته الوليد ، أن يلزم الحجاج وأن يحفظ له صنيعة في الدفاع عن ملك بني أمية ، ويؤثر عن عبد الملك أنه خطب عام حج سنة خمسة وسبعين للهجرة على منبر الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة قائلا (والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه) - راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي - ولابن كثير في كتابه الشهير (البداية

والنهاية - جزء ٩ - مجلد ٥ - ص ٦٧) رواية طريقة تقول (انه لما سلم على عبد الملك بالخلافة كان في حجره مصحف فأطبقه وقال : هذا فراق بيني وبينك) ، ومادمننا في مجال الحديث عن فقه عبد الملك وتقواه ، فقد روى عنه أنه نهى عن ذكر عمر بن الخطاب وسيرته لأن سيرة عمر في رأيه (مرارة للأمراء - مفسدة للرعية) - المرجع السابق ص ٧١ .

سابعاً : لعل القارئ يلاحظ انتقال الأستاذ هويدى فجأة من ذكره لمعاوية إلى ذكره لمروان بن الحكم ، متخطياً يزيد بن معاوية ، الذى حكم ثلاث سنوات وثمانية أشهر ونصف بينما لم تزد فترة حكم مروان عن ثمانية أشهر وخمسة أيام حتى يتجنب ذكر مقتل الحسين أو واقعة ذى العرة التى استباحث فيها جيوش يزيد المدينة وقال فيها شعرا أنأى بمشاعر القراء عن ذكره ، كما يلاحظ القارئ أيضاً انتقال الأستاذ هويدى من عمر بن عبد العزيز إلى صدر الدولة العباسية متحاشياً ذكر يزيد بن عبد الملك الذى قتله عشقه لجاريته (حبابة) ولهشام بن عبد الملك (الذى قتل يزيد ابن على بن الحسين وصلبه عريانا) وللوليد بن يزيد الذى كان يهوى رشق المصنف بالسهام ويقول فى ذلك شعرا وكم أتمنى على الأستاذ هويدى أن يفعل ما ذكر أنه بوده من استطراد فى وصف المسيرة الظافرة ، غير أنى منصف له من حيث لا يحتسب ، فمعاوية وعبد الملك والمنصور والمأمون عظماء ما فى ذلك شك ، لكن ليس بمقياس الدين والعقيدة ، بل بمقياس الدنيا والسياسة والحكم . وهذا جوهر ماختلف عليه ، ويبقى على فى النهاية واجب الشكر للأستاذ هويدى لأن مقاله أتاح لنا تصحيح ما سلف من أخطاء ، ولعلها أخطاء مطبعية ، أو لعلها كبوة جواد عظيم ، ولا بأس ولاضير ، ففوق كل ذى علم عليم) ..

أيلومنى القراء بعد ذلك إذا غضبت ، ليس من أجل بل من أجلهم . ومن أجل الحقيقة .

اللهم لا حسد

اللهم لا حسد .
هكذا الدنيا على رأى الأستاذ محمود السعدنى .
إذا أقبلت (باض الحمام على الوتد) .
وإذا أدبرت (بال الحمار على الأسد) .
وقد أقبلت بالنسبة لعلماء النفس فى مصر .
وأدبرت بالنسبة للعقلاء فى بلدنا المحروسة .
أقبلت بغير حد .
وأدبرت بغير حد .

* * *

الجنس يلعب دورا أساسيا فى تفسير السلوك .
هذا رأى فرويد .
والمشكلة أننا نواجه الجنس بمزيج من المشاعر .
أحيانا نواجهه بالخجل الشديد .
وأحيانا أخرى بالتجاهل الأشد .
حادث العتبة كان محوره الجنس .
وقد ناقش الجميع تفاصيل الحادث
تحدثوا عن الفتاة .
وتحدثوا عن الفتى .
تحدثوا عن الجريمة .

وتحدثوا عن العقاب .
تحدثوا عن أدق التفاصيل .
ولم يتحدث عن المشكلة الجنسية أحد .
معنى هذا أن المشكلة سوف تتفاقم .
وسوف تتعقد .
وسوف تشتد .
والرابع في النهاية عيادات الطب النفسى .
واللهم لا حسد .

* * *

الجماعات الظلامية لها من المشكلة الجنسية نصيب .
صحيح أنها ظاهرة احتجاج سياسى .
لها أسبابها الاقتصادية والاجتماعية .
ولها أيضا غطاؤها الدينى . نتيجة تفسيرات صبيانية .
الا أن الجنس يلعب دورا مؤثرا فى التفكير والسلوك .
فى تونس أدركوا هذه الظاهرة .
لا يوجد تونسى واحد لم يسمع عن أو لم يشاهد شريط (على
العريض) .
ثالث قيادات جماعة النهضة .
الشريط لدى وهو شريط فيديو بشع شاذ .
منذ شهرين تلقيت شريط فيديو آخر .
بطل الشريط هذه المرة هو الأستاذ عبد الفتاح مورو .
المؤسس الأول لحزب النهضة ونائب الرئيس .
الأستاذ مورو يناضل بطريقته وفى مكتبه مع صديقة تونسية بالغة
الجمال .

ضاق بهما المكان فلجأ إلى الأرض .
ولم يجدا ما يفترشانه سوى سجادة الصلاة .
البعض لام الدولة لتسجيلها الشريط .
لكن الأستاذ مورو استحق اللوم الأشد .
لم يقف معه أحد .
ناشدته الصحف أن يلجأ للقضاء .
صمت ولم يرد .
ماذا يكسب الإنسان إذا ربح حزبا وتأثيرا وخسر نفسه .
ماذا يبقى للحزب إذا الرأس فسد .

* * *

في سمالوط منذ خمس سنوات حرمت الجماعات أكل (الكوسة)
والباذنجان .. حجة الجماعة أن (الكوسة) يتم حشوها
وكذلك الباذنجان .
وفي الحشو إيجاء جنسى ، هكذا زعم الصبيان .
إذن فالبائع يستحق الجلد .
والمشترية تستحق أن يقام عليها الحد .
انتهت القصة حين لم يستمع إليهم أحد .
الحق أقول للقارئ إننى شعرت بتعاطف شديد معهم .
البطالة وأزمة الاسكان وارتفاع المهور وغريزة الجنس لا ترحم .
إذا اغتصب أعدموه .
إذا هتك العرض طالبوا بإعدامه .
إذا عالج مشكلته بنفسه أفتوا بحرمة ما فعل .
فلتختف المرأة من أمامه .
وَأَدِ البنات حرام .

إذن فليكن النقاب هو الحل .
ولتدفع المرأة الثمن .
بيد أن الغريزة باقية .
وهي غريزة لا ترحم ،
والكوسة والباذنجان لا يواكى لهما .
إذن فلتدفع الكوسة الثمن .
وليدفع الباذنجان الثمن .
ولن يبكى على الكوسة أحد .
ولن يبكى على الباذنجان أحد .

* * *

منذ أوائل القرن ونحن نلعب كرة القدم .
أطربنا رفعت الفناجيلي .
وأمتعنا أبو جريشة .
وأسعدنا الخطيب .
كانت عيوننا تتابع الكرة ولا أكثر .
وظهرت الجماعات الظلامية وغريزة الجنس لا ترحم .
تابعنا الكرة وتابعوا أفخاذ اللاعبين .
كنا نهتف هذا لاعب فذ .
وكانوا يهتفون هذا لاعب فخذ .
كما نهتف باللاعب اقذف الكرة في المرمى .
أصبحوا يهتفون باللاعب ، غط فخذك أيها الداعر .
اكتشفنا فجأة أن فخذ اللاعب عورة وفتنة .
الأحاديث الدينية الصحيحة تنفى ذلك .
كتبنا هذا ووثقناه .

لم يستمع إلينا أحد .
انصرفت أذهانهم إلى (فتنة الأمرد) .
الفتى الأمرد هو الفتى صغير السن .
أمامى كتاب من كتب زماننا السعيد .
يقول الكاتب إن فتنة الفتى الأمرد تعادل فتنة سبعين امرأة .
فى الملعب يوجد ٢٢ لاعبا .
فتنة كل منهم تعادل سبعين .
أكثر من ألف وخمسمائة فاتنة تلهب خيال صبية الجماعات .
ناهيك عن الحكم ومراقبى الخط .
أما الاحتياطى فيا أطف الله .
فتنة ، فتنة ، فتنة .
مجتمع كافر لا يرحم .
ألف وخمسمائة فاتنة فى ملعب صغير .
أزمة اسكان وبطالة وارتفاع مهور .
كبت وألم .
ومعاناة بغير حد .

* * *

بعض كبار الفقهاء أصابهم المد .
أحدهم أفتى ألا يجلس رجل مكان امرأة فى الاتوبيس الا بعد مرور
دقائق عشر .
الحكمة هى أن تختفى حرارة الجسد .
آخر أفتى بكراهة تشريح الطبيبة لجنّة الرجل .
ثالث أفتى بحرمة أن تخلع الفتاة ملابسها أمام كلب ذكر .
رابع أفتى بحرمة الموسيقى اذا اهتز الجسد .

جسد .. جسد .. جسد ...

من يفتى معنا بحرمة هذا البلد .

من يحترم معنا والدا وما ولد .

من يدرك معنا أن الإنسان خلق في كبد .

وأن الحرمان كبد .

وأن الكبت كمد .

أيحسب هؤلاء أن كرامة الإنسان قد ضاعت سدى .

أيحسب هؤلاء أن لن يقدر عليهم أحد .

* * *

جريدة مايو بتاريخ ٢٥ مايو ١٩٩٢ نشرت الموضوع التالى الصفحة

الثانية .. جلست الفتاة المنقبة أمام لجنة الفتوى فى دار الافتاء .

بكت الفتاة بدمع سخين .

الفتاة تحمل مؤهلا متوسطا .

الملهاة أنها تزوجت أمير الجماعة .

المأساة أنه طلقها بعد شهور أربعة .

المأساة الأكبر أنه زوجها فى اليوم التالى لنائب الأمير .

نكرها مرة أخرى (فى اليوم التالى) .

سألته عن شهور العدة فأخبرها أن القرآن يذكر أنها ثلاثة قروء .

القروء معناها الشهور .

فضيلة (أمير الجماعة) فسر القروء بأنها قراءة القرآن الكريم .

ذكر لها أنه قرأه ثلاث مرات فى ليلة واحدة .

استمع الشيخ الجليل للقصة وهو مذهول .

ساد الصمت القاعة والفتاة تتساءل عن مصير الولد .

ابن من سيكون ؟!

ابن الأمير أم ابن نائبه .
القصة نسخة كربونية من قصة مماثلة لفتاة الغردقة .
كانت مشكلة كتبها الأستاذ ضياء الدين بيبرس على صفحات هذه
المجلة منذ أكثر من عام .
كان العنوان على ما أتذكر (النصب باسم الإسلام) .
الفرق الوحيد بين القصتين أن الفتاة الأولى من الغردقة .
والثانية من القاهرة ، وأن الأولى جامعية والثانية تحمل مؤهلا
متوسطا .

في الحالين سؤال عن مصير الولد .
أزمة الاسكان والبطالة وارتفاع المهور والجنس لا يرحم .
في الزمن البعيد السعيد لم تكن هناك مشكلة .
كان الزواج غالبا بأربع .
وكان التسرى بالجوارى بغير حد من عدد .
كان التسرى دون قيد .
الراغبون في استعادة التاريخ ينقلون سطرا ويتركون سطرا .
وليس ثم من بديل .
كل الحوار ينتهى لحارة سد .

* * *

ماذا أقول لسائلى عن حل .
أعرف من بلغوا سن الأربعين دون علاقة سوية .
أعرف أيضا أن الأسباب شتى .
لكنى ألمح ذلك المارد خلف كثير من ظواهر السلوك .
تدفعنى رغبة عارمة إلى المداعبة وإثارة الابتسام .
لكنى حزين فعلا ومتألم .

حتى الحضارة الإنسانية لم نعد نرى فيها سوى هذا المارد .
الحرية الجنسية ، الدعارة ، الانحلال ، الإيدز ، الشذوذ .
هذه هي مفردات الحضارة في أذهان الكثيرين منا .
لا شيء عن الوصول للقمر ، ولا عن الكمبيوتر ، ولا عن الهندسة
الوراثية . ولا عن تقدم وسائل الاتصال ، ولا عن النظافة والنظام
واحترام الوقت وأداء العمل .
لا شيء .

حتى عندما يذهب إليهم شبابنا ، يذهبون وفي ذهنهم غزو هذا العالم
الجديد ، بأسلوب وحيد .
لست أدري حقا أيهما أفضل .
الذي يعيش بالجنس ؟.. أم الذي يعيش للجنس ؟
مثل هذه الأسئلة مزعجة ، لأن لغتنا الجميلة تكفلت بالاجابة .
لغتنا هي لغة (أفعل) التفضيل .
نحن الأروع والأعظم والأفضل والأرقى والأحسن .
أحسن .
لا داعي لإرهاق الذهن .
لا داعي لكشف الغطاء .
فليس فينا من يحب النقد .

* * *

الشيء بالشيء يذكر .
الصحف الدينية تقود حملة على (التبرج) .
منطقهم بسيط .
هتك العرض سببه هياج الشبان .
وهياج الشبان سببه تبرج المرأة .

في المجتمعات القديمة كانت المرأة تستتر .
وكانت النتيجة عشرات الكتب في فتنة الأمر .
في العصر العثماني كانوا يجمعون المكوس من بيوت الدعارة .
في نهاية العصر العباسي الأول وطوال العصر العباسي الثاني كانت
بغداد تمتلئ بالخانات ، والمراقص ، وكان في بغداد وحدها في عصر المأمون
مائة حانة (للغلمان) ، وفيها كما يقول أبو حيان التوحيدي في كتابه
(الامتاع والمؤانسة) ، كان يفتضح أصحاب النسك والوقار ، خاصة
عندما يخرج عليهم الأمر ، ويفك أزراره ، ويفتح إزاره ، ويقول أقبلوا
عليّ يا أسيادي .

أحيانا أسأل نفسي ما الذي تغير .
هل اكتشفنا إسلاما جديدا منذ ربع قرن .
هل التركيب الفسيولوجي لقدة البروستاتا كان مختلفا لدى الآباء
والأجداد عنه لدينا .

أم أنه أسلوبنا القديم المعروف .
لا بد من شماعة نعلق عليها مشاكلنا وأخطاءنا .
الشماعة هذه المرة هي المرأة .
تثور مشاعرنا فنطالبها بلزوم المنزل .
تفور دماؤنا فنطالب بالنقاب وما هو أكثر .
تشتعل غرائزنا فنطالب بالعقاب على التبرج ، بل أيضا على السفور .
المرأة هي الشماعة .
ولا تفسير لذلك إلا اعتقادنا بأنها أضعف .
وأنتا كشرقيين .
من حقنا أن نقرض عليها ما نراه .

ومن واجبها في تقديرنا ألا ترد .

* * *

لماذا نطالب الآن بإلغاء المرأة .

لماذا لا يطالب الجوعى بإلغاء الطعام .

لماذا لا يطالب (العطاشى) بإلغاء الماء .

السبب منطقى .

لا يستطيع الإنسان العيش بغير طعام أو شراب .

لكنه يستطيع أن يعيش بغير جنس .

وفي هذه الحالة سوف يعيش .

ولكنه لن يدع غيره يعيش .. وهذا ما نحصد .

* * *

يا وزير الصحة مطلوب منك أن ترد .

طالبتك في مقال سابق بدعم المهدئات الجنسية ولم ترد .

عدم استجابتك هذه المرة تهدد الأمن القومى .. الأمن القومى مهدد .

الارهاب يزيد .

والتطرف يشتد .

والحل في يدك .

وإلى أن تعالج الدولة مشكلات الاسكان والبطالة .

فلا بد من دعم المخرج الوحيد للمشكلة .

بل هو المخرج الأوحـد .

الزواج صعب .

والاختصاص غير إنسانى .

والقضاء على المرأة غير ممكن .

وحل المشكلات المعقدة يحتاج إلى زمن طويل .

والكافور هو الحل .
الكافور هو الحل .
من أجل انقاذ البلد .
ويا أطباء علم النفس .
اللهم لا حسد .. اللهم لا حسد .

* * *

أهل البقدونس

أسخف نكتة سمعتها في حياتي هي نكتة (البقدونس) ..
قال شاب لصديقه ، إننى أستطيع أن أجرى مائة متر في عشر ثوان
فقط ..

رد عليه صديقه قائلاً .. ليه .. هوه أنت بقدونس ...
هل هناك ما هو أسخف من ذلك ..
السخافة هنا مصدرها إنه لا علاقة بين الجرى وبين البقدونس ..
هذا جرى وهذا بقدونس ..
منتهى السخافة وتقل الدم ..
أراهن أنك تبتسم الآن ..
لماذا تبتسم ؟ ..
هل أنت بقدونس ..

ماذا جرى لنا ..
أحيانا قلت مساحة الابتسام وزادت مساحة الاكتئاب في حياتنا ..
حاول يا عزيزى القارئ أن ترصد المارة وأنت تسير في الشارع .
وسوف تكتشف أن الوجوه مشدودة ومكدودة وعابسة وأن التجهم هو
السمة العالية ..
الوجه (المفروود) الذى ترسم على ملامحه تباشير الابتسام أصبح
عملة نادرة ..

حتى النكت تحولت إلى (بقدونس) ..
انكمشت مساحة حسن الظن في حياتنا وحل محلها الشك واتهام
الآخرين .. بسند أو بغير سند .. في ذمتهم أو في وطنيتهم أو في دينهم ..
انتقل هذا إلى الكتاب فأصيب أغلبهم بحالة شلل جزئي ..
إذا دافع عن مظلوم اتهمه البعض بأنه شريك في الجريمة ..
إذا مدح إنجازا اتهمه البعض بالنفاق ..
إذا هاجم سلوك بعض المسلمين اتهمه البعض بالعداء للإسلام ..
التهمة الأخيرة شديدة البشاعة . وقد نال كاتب هذه السطور منها
بعض الرذاذ ..

* * *

نسبة واحد في المائة من الخطابات التي تصلني تحمل هذا المعنى تصریحا
أو تلمیحا ..
الناس ما تزال تخلط بين الإسلام وبين تاريخ المسلمين . ورغم أن الأول
دين سماوی مقدس والثاني تاريخ بشر يصيبون ويخطئون ..
الوليد بن يزيد كان خليفة أمويًا ، وكان ماجنا وفاسقا ، فهل يحسب
مجنونه وفسوقه على الإسلام ..
السؤال لا يحتاج إلى إجابة ، لأن إجابته واضحة ..
حتى علماء الدين الذين يعيشون بيننا ، أصبحوا في نظر بعض القراء
رموزا مقدسة لا يجوز المساس بها أو الاقتراب منها أو النقد لسلوكها .
هل هذا معقول ؟
قلناها ونقولها ألف مرة ..
الإسلام شيء والمسلمون شيء آخر . ونقد أخطاء بعض المسلمين
دفاع عنهم وعن المسلمين وعن الإسلام ..

المشكلة في تقديري لا تأتي من القراء وحدهم ، لكنها تأتي قبل ذلك من المناخ الفكرى العام ..

أصبح الناس يفضلون الراحة والأخذ باليسير من الأمور ، ومن شروط الراحة أو التيسير ألا يحاول أحد مناقشة المقولات السائدة ، فالتسليم بها أدعى لراحة النفس والعقل والوجدان ، بينما مناقشتها وتغييرها أدعى لإرهاق الذهن ، وهذا ما يرفضه الكثيرون ..

تعود الناس أن يقرأوا مقال كاتبهم المفضل قبل النوم ، حتى يسرع النوم إلى عيونهم ، ومعنى هذا أن رسالة المقال يجب أن تكون على (مقاس) أفكارهم وتصوراتهم ، فإذا اختلفت أو طرحت مفاهيم عكسية ، أصبح الكاتب مزعجا حتى ولو كان الحق معه وأصبح مرفوضا حتى ولو كان منطقيا ، وهذه كارثة لأن الفكر الإنسانى لا يتطور إلا بالرأى والرأى الآخر ، والثقافة الإنسانية لا تتجدد إلا بحوار العقل ..

هذه بدهيات ، أو المفروض أن تكون كذلك ، لكن البعض يرفض هذا كله ، ويرى أن ما هو سائد صحيح تماما ، لمجرد أنه سائد ، ومنطقى تماما لمجرد أنه مريح ..

القارئ (ج أ.أ) أرسل إلى خطابا غاضبا ..

موجز رأيه أننى أرفض خلط الأوراق السياسية بالدين ، وهذا فى تقديره (كفر بواح) ..

سيادته ينهى مقاله بمبررات دعوته للدولة الدينية ، وهى مبررات يوجزها فى العبارات التالية ..

(لقد جربنا النظام الليبرالى قبل الثورة وفشل ..

وجربنا النظام الاشتراكى وفشل ..

وجربنا الانفتاح الاقتصادى وفشل ..

لقد انتقلنا من فشل إلى فشل منذ سقوط الخلافة العثمانية التي وحدت المسلمين ، وحاربها الاستعمار ، فحدث ما حدث لنا) ..

نبدأ من حيث انتهى القارئ العزيز ، ونلفت انتباهه إلى حقيقة غائبة عنه ، رغم أنها واضحة ، وهي أن ما يدعونا إليه ليس تصورا خياليا ، وليس حلما لا علاقة له بالواقع ، فالصحيح أننا عشنا تجربة الدولة الدينية أكثر من ألف عام ، والدولة العثمانية التي يتحدث عنها حكمت الشرق الإسلامى كله ، أكثر من خمسمائة عام وقد بدأت بتفريغ مصر من العمال المهرة والحرفيين ونقلهم إلى (الآستانة) ، وانتهت إلى واقع بصفة علماء الحملة الفرنسية بقولهم ، « كل شئ في مصر ميت تقريبا ، آلاف الكسالى بلا عمل سوى تدخين الحشيش وأكل المنزول والحديث عن الحريم .. الزراعة كما هي من أيام الفراعنة ، أما الصناعات والحرف فهي بدائية وإن كانت لا تخفى عبقرية دافنة توارثها المصريون عن أجدادهم .. لقد انقطعت صلة هؤلاء بالعالم تماما ، والشئ الوحيد الذى يربطهم بالسلطة المركزية هو استبداد الولاة ، وجمعهم للأموال بالقوة ، وللأفراد بالسخرة لمقاومة الفيضان أو للاشتراك في جيش الدولة ، وقد تعود المصريون أن يودّعوا جنودهم بالصراخ والعويل ، لأنهم عادة يسافرون إلى بلاد بعيدة ولا يعودون منها أبدا » ..

بلغت الأرقام نعيد صياغة الفقرة المغلوطة التى ذكرها القارئ فى رسالته ..

جربنا النظام الليبرالى قبل الثورة نحو ثلاثين عاما ..
جربنا النظام الاشتراكى بعد الثورة نحو عشرة أعوام ..
جربنا الانفتاح الاقتصادى نحو عشرين عاما ..

جربنا الدولة الدينية أكثر من ألف ومائتي عام ..
كلها تجارب إذن ، والدولة الدينية هي أطول التجارب في التاريخ
المصرى كله ، وهي تجربة انتهت إلى ما انتهت إليه ، وأدبيات التيار
السياسى الإسلامى تردد باستمرار مقولة (العبرة بالخواتيم) ، ونظن أن
الخواتيم ليست فى حاجة إلى بيان ..

هل فشلت التجارب الحديثة حقا فى مصر ..
الليبرالية والاشتراكية والانفتاح ..
أم أنها تجارب لها وعليها ..
وأن مالها باليقين كان أكثر ..
المشكلة هنا تتعلق بمساحة المقال ..
والأفضل للقراء ولكاتب هذه السطور أن نبدأ بالتجربة التى نعيشها
حتى الآن ، وهى تجربة الانفتاح الاقتصادى والسياسى ، وسوف يكتشف
كاتب الخطاب أن الحديث عن الفشل المطلق لهذه التجربة ، يدخل فى باب
اليقْدونس ، وأنها مأساة حقيقية أن يدفعنا البعض إلى ترديد هذه المقولات
(البقدونسية) دون تفكير أو مراجعة ، وأنا نهوى تعذيب أنفسنا حين
لا نرى من الكوب إلا الجزء الفارغ منه ...

قبل خمسة عشر عاما ذهبت إلى مرسى مطروح لأول مرة ..
من الاسكندرية وحتى مرسى مطروح لم يكن هناك شئ على الشاطئ
كله سوى فندق سيدى عبد الرحمن ومدينة أو (قرية) العلمين ..
فى العام الماضى ذهبت إلى هناك مرة أخرى ..
تذكرت قصص ألف ليلة وليلة ، وأحاديث (الجن) الذى يخرج من
الققمم ويفعل المستحيل ..

الذى حدث للشاطئ الطويل لا يمكن وصفه بالكلمات ، لأنه يتعدى
الإنجاز إلى الإعجاز ..

عقرت من الجن لم يترك كيلو مترا واحدا دون عمران على أرقى
المستويات ..

قرى شاطئية وسياحية بالغة الروعة والجمال على طول الطريق ..
الحكومات تذهب وتجيئ والحكام يأتون ويذهبون والأجيال تموت
والعمران .

الحكومة والقطاع الخاص فعلا ذلك في صمت وهدوء وجنون عبقرى
أيضا .. هل هناك صلة بين الفشل وبين هذا الإنجاز ..

الطريق الصحراوى بين مصر والاسكندرية لم يبق منه سوى الاسم ..
ثلاثة أرباعه تحول إلى طريق زراعى صناعى ..
طريق مصر الاسماعيلية الصحراوى نموذج آخر مشابه ، فايد التى
كانت قرية مغمورة أصبحت مدينة سياحية شاطئية متكاملة ..
مدينة العاشر من رمضان أصبحت أكبر مدينة صناعية فى مصر ..
مدينة ٦ أكتوبر والسادات و ١٥ مايو تشكل ثورة معمارية وصناعية
وحضارية حقيقية ..

الغردقة أصبحت إحدى المعالم السياحية العالمية ..
لم يكن فيها شئ منذ ربع قرن ، ولم يعد فيها شبر الآن للتوسع ،
والنتيجة كانت الامتداد إلى سفاجا ..

المدن السياحية على امتداد شواطئ جنوب سيناء من رأس سدر إلى
طابا إنجاز مذهل ..

الذى أتحدث عنه الآن لم يكن له وجود ، منذ بداية الخليفة وحتى بدء
عصر الانفتاح ..

أكرر ، منذ بداية الخليفة ، لم أتساءل عن الفشل الذى يتحدثون عنه ..

فى مصر الآن آلاف مصانع الملابس الجاهزة على أرقى المستويات العالمية ..

فى مصر الآن آلاف مزارع التسمين وإنتاج البيض بالأساليب الحديثة ..

فى مصر الآن مئات المزارع الحديثة بأسلوب الزراعات المحمية وبوسائل الري المتطورة ..

هل كان لهذا وجود قبل ربع قرن ..

ما يقال عن الملابس يقال عن الأحذية ، والصناعات الجلدية ، وتصنيع الأثاث ، وصناعات الأدوية ، وصناعات التجميل والصناعات الغذائية ، والصناعات الهندسية (التلاجات والبوتاجازات والمراوح وصناعة التكييف) والصناعات الالكترونية ، وصناعات الألومنيوم ، والفنادق السياحية ، وصناعات مواد البناء ، وصناعة السيراميك ، وصناعات السجاد والموكيت ، والقائمة طويلة . وأحد أصدقائى ذكر لى أنه منذ عشرة أعوام أثث منزله وكان كل شىء مستوردا . ثم خطر له أن يعيد تجديد المنزل وتأثيثه ، فإذا بكل شىء من الإنتاج المحلى ، وعلى أرقى المستويات ..

ويتحدثون بعد ذلك عن الفشل ..

من منا يتذكر أوضاع التليفونات فى مصر منذ ربع قرن ..

من منا يتذكر أوضاع المجارى فى القاهرة منذ ربع قرن ..

من منا يتذكر أحوال الطرق منذ ربع قرن ..

هل هذا كله حدث في كوكب المريخ ..
الطرق العلوية والأوتوستراد ومترو الانفاق والمستشفيات الحديثة
والمطار الجديد والقرية الأوليمبية الصالات المغطاة ، والأوبرا وقاعة
المؤتمرات والتوسع في محطات الطاقة الكهربائية ، وتطوير قناة السويس ،
كل هذا قبض ريح ..

أى تعذيب للنفس هذا ..

القائمة طويلة ، والملاحظة التى ذكرتها فى بداية المقال هى التى تدفعنى
إلى الاختصار ، لأن المدافع عن الحق يصبح فى نظر البعض منافقا ، وهذه
كارثة ، والمؤكد أن أصحاب هذه المقولات (البقدونسية) لا يدركون
حقيقة جوهرية ، وهى أن مصر رائعة وخالدة بقدرة أبنائها الخيالية على
التطور بقوة الدفع الذاتى ..

تتغير النظم والمصريون يتقدمون ..

تحاربهم البيروقراطية وهم ينجزون ..

جذورهم ممتدة فى عمق الأرض إلى أبعد مما يتصور أحد ..

يحتاجون فقط إلى التواصل مع حضارة العصر ، فتنفجر داخلهم
عبقريّة الزمان والمكان ، والرغبة فى التحدى ، والقدرة على إثبات
الوجود .

بعد خراب الدولة العثمانية لما يقرب من خمسة قرون ، ظهر محمد على
وأرسل البعثات إلى فرنسا ، فانفجر المارد فى نفوس المصريين ، وبعد ربع
قرن . كان لهم أعظم أسطول بحرى ، وكان جيشهم يطرق أبواب
الآستانة . وكانت أعلامهم تخفق على ربوع المنطقة كلها ، واحتاج الأمر
إلى تكتل جيوش الدول الكبرى للقضاء على الحلم ..

بعد محمد على أتى عباس الأول .. فأعاد الأمر إلى ما كان عليه قبل
محمد على . وقطع صلات مصر بالحضارة ، وامتلاً وجدانه بالتعصب فأخذ

يحلم بإجلاء الأقباط إلى السودان وخمدت الروح في مصر ، وسكنت مصر إلى حين .. وفجأة ظهر الخديو اسماعيل ..

مرة أخرى عاد التواصل الحضارى من جديد ، وتضاعفت الرقعة الزراعية وامتدت شبكات الري ، وافتتحت قناة السويس ، وأعيد تخطيط القاهرة والاسكندرية ، ونشط العمال والصناع ، وأصبحت مصر قطعة من أوروبا ، وخرج الجيش المصرى إلى أن وصل إلى مصوع وزيلع وهرر ، وتحالف عليه الأعداء ، وحدث ما حدث ، وانتكست مصر من جديد ، وخضعت للاحتلال المباشر ..

مرة أخرى صحت مصر ، وكانت الصحة على يد سعد زغلول ، وكانت النهضة من خلال ثورة ١٩١٩ ، وأهل البقندونس فقط هم الذين ينكرون تراث الثورة المتمثل في طلعت حرب ، ومحمد عبده وسيد درويش وشوقي وحافظ ودستور ١٩٣٣ والديموقراطية التي عرفتها مصر قبل أى دولة في المنطقة كلها ..

وحتى ثورة عبد الناصر التي ينكر أهل البقندونس أى فضل لها ، ويركزون على أخطائها ، وأنا واحد من المنتقدين لهذه الأخطاء .. هل ينكر أحد مكانة مصر السياسية عالميا وعربيا وأفريقيا ، خلال هذا العهد ، وهى مكانة مانزال نتمتع بآثارها ..

هل ينكر (صبية البقندونس) أن الثورة حققت عدلا اجتماعيا لولاه ما تمتع أغلبهم بالتعليم إلى أعلى مراحل ، وبالمساواة المطلقة دون تأثير لألقاب أو انتهاء لأسرة أو لفريق سياسى ..

لقد اختلفت مع عبد الناصر في حياته ، ودخلت المعتقل لأيام معدودة لأول وآخر مرة في عهده ، لكنى شعرت بالفزع حقا وأنا أقرأ هذا الأسبوع في أحد الصحف الأسبوعية مقالا عنوانه (من أنتم ومن هو ناصر ؟) ..

يا سلام ، من هو ناصر ؟ إلى هذا الحد ..
لقد انتشر البقدونس في الحياة السياسية بصورة مفزعة حقا ..
حاول عهد عبد الناصر إلغاء تاريخ الوفد ، فأتى الوفد لكى يفعل
نفس الشيء مع العهد الناصري ، وحاول الساداتيون تسف المرحلة
الناصرية ، فعاد الناصريون لتسف المرحلة الساداتية ، وتسى الجميع أن
مصر كلها تاريخ متواصل متصل ، وأن إلغاء الآخر مستحيل ، وأن
المستفيد الوحيد من هذا كله هو صبية البقدونس ..

في عهد الفراعنة كانت المسلة الفرعونية ، أجمل إنجاز معمارى فى
التاريخ .

عندما دخلت المسيحية مصر ، لم يكن المسيحيون يعرفون برج
الكنيسة ، وبعد أن أستقرت المسيحية فى مصر ، ظهرت المسلة الفرعونية
من جديد .

فقد كانت فيها فتحة يظهر منها جرس الكنيسة ..
ظهرت أبراج الكنائس وانتشرت فى أنحاء الكون كله
عندما دخل الإسلام مصر ، لم يكن للمسجد مئذنة ..
وعندما استقر الإسلام فى مصر ، ظهرت المسلة الفرعونية ، وحولها
شرفة دائرية تسمح للمؤذن بالدعوة للصلاة ..

ظهرت مآذن المساجد ..
من المسلة الفرعونية إلى برج الكنيسة إلى مئذنة المسجد ، تظهر روح
مصر الرائعة ، وهى روح متصلة .. متواصلة ..
أما باقى ما ورد فى خطاب القارئ ، عن خلط أوراق السياسة
والدين ، وعن حق الكاتب فى انتقاد علماء الدين ، فمجاله حديث آخر ..

فقط تذكروا المسلة وبرج الكنيسة ومثذنة المسجد ..
تذكروا مصر ، وأصالة مصر ، وتواصل مصر ..
مع الاعتذار لأهل البقدونس ..

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة
هذا الكتاب وكاتبه	٣
١ - لا لتسييس مناير المساجد	١١
٢ - لا بد من تونس وإن طال السفر	٢٢
٣ - حرب الفيديو	٣٢
٤ - عند أصبح الحجاب قضية فرنسية ساخنة	٤٠
٥ - قبل أن يجرفنا الطوفان	٥٠
٦ - حديث عن آفاق المستقبل	٥٩
٧ - قراءة في أوراق مؤتمر السلام	٦٩
٨ - المأزق	٧٧
٩ - حديث ذو شجون	٨٦
١٠ - أزمة العقل	٩٥
١١ - هذا بلاغ للناس	١٠٥
١٢ - فصير جميل والله المستعان	١١٦
١٣ - لغة الحضارة	١٢٦
١٤ - من فضلك لا تقرأ هذا المقال	١٣٧
١٥ - انا لا أتحدث عن مصر	١٤٨

١٥٨	١٦ - يا قلبي لا تحزن
١٦٧	١٧ - حوار حول الدولة المدنية
١٧٧	١٨ - لهذه الاسباب يتهمون ليبيا
١٩٢	١٩ - ماذا حدث للعقل المصرى
٢٠٣	٢٠ - كل شيء هادئ في منشية ناصر
٢١٥	٢١ - عصر الاستيكة
٢٢٥	٢٢ - رسالة عتاب لكاتب قدير
٢٣٦	٢٣ - اللهم لا حسد
٢٤٧	٢٤ - أهل البقدونس

اقراء في هذه المجموعة

١ - الحكومة العالمية

د . بطرس غالى

٢ - السيد درويش ومائة سنة على ميلاده

عبد الحميد توفيق زكى

٣ - المياه، الصراع القادم فى الشرق الأوسط

مجدى شندى

٤ - جماعات الإسلام السياسى والعنف فى الوطن العربى

د . محمد سعيد أبو عامود

رقم الإيداع	١٩٩٢ / ٥٥١١
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-3741-8

١ / ٩٢ / ١٧٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

حينما نسرت مجلة أكتوبر هذه المقالات
للدكتور فرج فودة كانت مزار جدل بين
المتقنين والمفكرين ورجال الدين واختلفت
حولها الآراء وتفاوتت .. وتصاعدت .. حتى
بلغت حداً كبيراً من العنف أدت في النهاية
إلى توقف الحوار وإعلان القتل
واليوم ونحن نقدم للقاري هذه المقالات
مجتمعة .. إنما نبغى مزيداً من الرأي
ومزيداً من الحوار .. ومزيداً من التأمل
ونحن على يقين بجدوى الكلمة إذا كانت
تهدف إلى الإصلاح والتغيير وحل مشاكل
المجتمع

مكتبة
30100

Bibliotheca Alexandrina



0333638